دعوة الإسلام

ديوان خطب منبرية حديثة
جيدة المبنى ، نيرة المعنى

تأليف

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ
محمد مصطفى أبو العلا
المدير العام للتعليم الابتدائي
بالأزهر الشريف / سابقا

الناشر
مكتبة القاهرة
صاحبها : الحاج علي يوسف
شارع الصنادقية بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، فاتح القلوب ببليغ العظات ، وأشهد أن لا إله إلا الله : ذكر وعلم بمحكم الآيات ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا إلى الله ، قيوم الأرض والسموات : صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ما طلعت شمس وأضاءت الكائنات ، وما سبح المسبحون لله بلسان الحال ، أو بلسان المقال : بمختلف اللغات واللهجات .

أما بعد :

فإن الله تعالى القائل : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) . لقد من تعالى : وهو واهب المنن وحده - على - بلا حول منى ولا قوة : بإنشاء هذا الديوان ، الذى أردت به تحقيق إنسانية المسلم ، وعبوديته الحقة لربه : بالتزام تعاليم الإسلام ، ولذلك سميته : « دعوة الإسلام » ، وسأدع وصفه للمطلع المنصف ، الذى يراه وافياً بخطب العام :

فى هذا المنظر الرائق ، والوضع الجميل الاتساق ، وتوزيع خطبه على الجمع - تعرف من الدليل - الفهرس .

وإن دواوينى السابقة : فى الوعظ والخطابة : على توفيتها بالمقام ، الذى لمعت فيه ، وكثرة جولانها فى ميادين كثيرة ، ووفرة إنتاجها فى مواضيع جمة - لا تغنى عن هذا الديوان ، الذى أسأل الله تعالى : فى ضراعة واستكانة - أن يمن عليه : من واسع رحمته ، وفيض كرمه - بقبول حسن ، وسعة الخطا ، وزيادة العدد : فى القبول والمدد ، وأن يمن على : من محض

جوده ، وإنعامه : بالتوفيق لما يحبه ويرضاه ، والعفو والتجاوز والصفح عما جنته الجوارح : بهوى أضعف النفوس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفى عقب هذا الذى سطر - أقول : كما قال شعيب : عليه السلام : (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) ؟

محمد مصطفى أبو العلا الشهير بحامد

الحث على التوبة

الحمد لله ، الرحيم الرحمن ، (العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) وأشهد أن لا إله إلا الله ، علام الغيوب ، وستار العيوب ، الذى فتح باب الاستقامة للداخلين : بالتوبة ، مبدإ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وقد قال تعالى : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أطاعه ، وما عصاه أبداً ، وهو أعلم الخلق بمقامه : جل علاه ، ولذلك - اعتذر - بالاستغفار : عن شغل جزء من وقته ، بإعطاء نفسه حظاً من بعض المباح : كالأكل : مع أنه كان ينوى بذلك رضا الله ، والتقوية على طاعته تعالى ، قال : صلوات الله وسلامه عليه[1] : (إنه ليغان[2] على قلبى فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، التائبين الطاهرين أما بعد : فيا عباد الله :

الفضيل بن عياض رضى الله عنه - رجل من سلفنا : سجل له التاريخ مقاماً يجعله قدوة صالحة : اسمعو . وعوا . وانتفعوا .

---

(١) رواه مسلم عن الأغر المزنى : رضى الله عنه .

(٢) يرى الإمام أبو الحسن الشاذلى أن الغين - الغيم والتغطية على القلب الشريف - غين أنوار ، لا غين أغيار ، فالاستغفار إذاً : للشكر : للنور بعد النور : بسبب انتقاله ﷺ من مقام إلى مقام أعلى ، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه . وكل مسلم يدرك من حقيقة رسول الله ﷺ : بقدر فهمه ، فرضى الله عن الشاذلى وأرضاه ، وأعلى مقامه بين ذوى قرباه : ﷺ .

كان ذلك الرجل فى أول أمره ـ من الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى ، وكان من قطاع الطريق ، ثم تاب إلى الله ورجع عن قطع الطريق ، ودخل فى طريق أهل السعادة والتوفيق ، وصار من أكابر الصوفية .

قيل له مرة : يا فضيل . أخبرنا : كيف جذبتك يد التوفيق ـ من قطع الطريق ؟ . وكيف نقلت من طريق الشقاوة إلى أسعد طريق ؟

فقال : يا قوم : كنت ضالا عن الطريق ، بعيداً عن التوفيق ، فأنقذنى مولاى من بحر الآثام ، وغمرنى بالإحسان ، فقالوا : كيف كان ذلك ؟ قال : بينما أنا يوماً قد خرجت : لأقطع الطريق على المارة ، تقودنى إلى الشر نفسى الأمارة ، فذهبت لأنتهب الركاب ـ إذ سمعت قارئاً معهم يقرأ قول الله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) ، فألقيت له سمعى ، وأثر ذلك فى رجوعى إلى ربى وقلت : بلى ، والله ، لقد آن وحان رجوعى إلى الرحمن ، وخوفى من العصيان ، ولكن لا بد للخائف من أمان ، فجاءت بشائر القرآن بترجمان : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، فرجعت عن قطع الطريق ، ودخلت فى طريق أهل السعادة والتوفيق ، وعدت إلى ربى تائباً منيباً ، ونادماً مطيعاً .

وقد قال : ﷺ ((١) الندم توبة) : به تطهر النفس من دنس ذنبها : كما يطهر البدن من دنسه بالماء .

ومن شأن النادم على فعل الذنب ـ أن يتركه ، ويعزم على عدم فعله : إذا كان يتعلق بحق الله تعالى : من ترك أمر كصلاة أو فعل نهى : كشرب خمر : فتوبة لنادم : هى ترك الذنوب ، وطاعة علام الغيوب .

---

(١) رواه ابن ماجه . وابن حبان . والحاكم عن ابن مسعود (ض) ، وابن حبان والحاكم عن أنس (ض) .

وإن كانت توبته من ذنب يتعلق بحق آدمى : كمال اغتصبه منه ، أو غيبته ، أو سبه وشتمه ـ رد الحق إلى صاحبه ، أو طلب عفوه ومسامحته؛ ما دام ذلك ممكناً : قال رسول الله ﷺ : ((١) من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شىء ـ فليتحلله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح ـ أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات ـ أخذ من سيئات صاحبه ، فحمل عليه) ، فمن قال تبت إلى الله ، وقد ترك الذنب ، وندم على فعله ، وعزم على ألا يعود إليه أبداً ، ورد الحق إلى صاحبه أو مكنه منه ، أو طلب عفوه ومسامحته ـ كانت توبته نصوحاً ، صادقة نافعة ، وليستغفر الله : ليغفر له ، وقال الإمام على فى التوبة النصوح : إجابة لمن سأله عنها : يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب ـ الندامة ، وللفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على ألا تعود ، وأن تربى نفسك فى طاعة الله : كما ربيتها فى المعاصى فليست التوبة النافعة ـ يا عباد الله ـ ولا استغفار الله المفيد ـ أن يقول المرء بلسانه : تبت إلى الله ، أو أستغفر الله ، وهو عاكف على الذنب ، مصر على المعصية ، كالمستهزىء بربه . وتوبته كاذبة والله تعالى يقول : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) .

وقال جل شأنه : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) .

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة (رض) .

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما .

فيا قوم :

إنما قبول الله تعالى التوبه والغفران - أمر محقق حتما : لأنه تحقيق لسابق وعده الكريم (لا يخلف الله وعده) : (كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) .

وقبول التوبة متحقق للذين يعملون بجهل وسفه عند ثورة الشهوة أو الغضب وتكون المعصية : صغيرة : لصغر ضررها ، وهى اللمم : كالنظرة الأولى للأجنبية التى تقع من غير عمد ، وكبيرة : كالنظرة الثانية لها المتعمدة : إذا لم يصروا وتابوا من قريب : بعد وقوعها بسرعة ، قبل أن تتراكم الظلمة منها على قلوبهم ، حتى تصير ريناً وطبعاً ، فلا تقبل المحو ، أو قبل أن يعاجلهم المرض المضعف عن العمل أو الموت ، فلا يجدوا مهلة للاشتغال بمحوها ، ولذلك - قال لقمان لابنه : (يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة) ولذلك كان سلفنا الصالح - يستغفرون الله كثيراً ، ليلا ونهاراً ، وعقب الصلوات ، وعند اليقظة والنوم ، فربما مات الإنسان فى نومه ، ومن مات مستغفراً لقى الله طاهراً .

أيها المسلمون :

لذة الدنيا سريعة الزوال ، وكثرة الذنوب تبعد صاحبها عن رحمة الكبير المتعال ، ومثل المسوف فى توبته : كمثل رجل : أراد قلع شجرة ، فرآها قوية ، فأخرها إلى سنة أخرى ، والشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها فى الأرض فاشتدت صعوبة قلعها ، وكذلك الإنسان إذا أخر التوبة ،

وألفت نفسه المعصية ـ صعب عليه تركها ، وربما فاجأه الموت وهو عاص ، خيلق الله بحال لا تصلح للعرض عليه ، فيحرم الفوز والنجاة .

ولا عجب أن يكون أثر العصيان كذلك ، والعاصى مصاف للشيطان ، عدو الله ، وقد قيل :

إذا صافى صديقك من تعادى فقد عاداك . وانقطع الكلام

ومن هنا ـ كان التائب حبيب الله ، وعظم بتوبته فرح الله ورضاه : قال رسول الله ﷺ ((١) لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط(٢) على بعيره . وقد أضله(٣) فى أرض(٤) فلاة) .

ألا وإن قبول التوبة ، ومغفرة الذنوب لأثر من رحمة الله الحكيم العليم ، الذى قدر ضعف الإنسان أمام مغريات الحياة وفتنها الملائمة ، ففتح أمامه باب التوبة ، ووصف سبحانه نفسه بالغفور الرحيم ، حتى لا تيأس من رحمته ، وقال : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) ولذلك ـ قال : ﷺ ((٥) والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) .

فالعيب كل العيب ، والإساءة كل الإساءة ، والتقصير كل التقصير فى أن يعصى الإنسان ، ولا يتوب ، ويسىء ولا يرجع إلى علام الغيوب ، ويسرف فى الذنوب ويسوف فى التوبة ويقول غداً أو بعد غد أتوب (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس (ض) . (٢) صادفه من غير قصد
(٣) ضيعه (٤) فى أرض واسعة (٥) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض)

أيها المسلمون :

أين المفر ، والإله الطالب : (له ملك السموات والأرض يحي ويميت وهو على كل شيء قدير) ، فأين تذهبون هاربين منه تعالى : الداء معلوم وهو الذنوب ، والدواء معروف وهو التوبة النصوح الخالصة لوجهه تعالى ، لا لغرض أبداً : كمن يتوب محافظة على الوظيفة . أو خشية الفضيحة بين الناس ، فإن التوبة النصوح ، التي تحقق بها ربح الأعمال الإقلاع عن الذنب ، وندم القلب على فعله في الماضي ندماً دعا إلى الحزن والأسف على التفريط في حق الله ، وإسخاطه - تقتضي - ولا شك - العزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب مرة أخرى في المستقبل كما تكون(١) كفارة الذنب المقلع عنه ، الذي انصرفت نفس التائب عنه مبغضة له .

فاتقوا الله واستغفروه ، فإنه يرجى بكثرة الاستغفار . وعمـــل

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ - قال : (إن عبداً أصاب ذنباً . فقال : يا رب . إني أذنب ذنباً فاغفره لي ، فقال له ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر ، فقال : يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي : قال ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر ، وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي فقال ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذه به . فقال ربه غفرت لعبدي فليعمل ما شاء) أي ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه توبة نصوحاً ، كانت توبته هذه واستغفاره كفارة لذنبه ، فلا يضره لا أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده . فإن هذه توبة الكذابين .

الصالحات ـ أن يرغب الله تعالى يوم القيامة فى أن يعفو المظلوم عن ظالمه الذى لم يمكنه رد الحق إليه ، وذلك من الصلح الذى أخبر عنه الرسول بقوله(١) : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المسلمين يوم القيامة) ، واستغفروا لمن اغتبتموه : قال ﷺ : (٢)(كفارة من اغتبته أن تستغفر له) ، (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ، (يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) .

قال رسول الله ﷺ : (النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان . فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة ، واحذروا التسويف . فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله: عز وجل: فإن الجنة والنار ـ أقرب إلى أحدكم من شراك نعله . ثم قرأ رسول الله : ﷺ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) : رواه الأصبهانى عن ابن عباس : رضى الله عنهما ، والمقت البغض .

وقال ﷺ : (إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) : رواه الترمذى ، وما لم يغرغر : ما لم تصل روحه حلقومه : من الغرغرة ـ وهى جعل الشراب فى الفم ، ثم ترديده إلى أصل حلقومه . فلا يبلغه .

---

(١) رواه الحاكم وغير عن أنس (ض) .
(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت عن أنس (ض) .

إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى

الحمد لله : جعل العمل الموافق لشرعه ، الخالص له - سبب الفوز والنجاة : فى دنياه وأخراه ، وقال نبيه : حبيبه ومصطفاه ((١) إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : أمر رسوله الأسوة الحسنة لعباده ، فقال : (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : حذر من الفضيحة بين الناس لسوء النية والإصرار بمعصية رب الناس ، المعز القهار ، فقال : ((٢) لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء . ليس لها باب ولا كوة(٣) لخرج عمله كائناً (٤) ما كان) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، البررة الصادقين الكرام المخلصين .

أما بعد فيا أولى الألباب دخل جماعة على بعض الصوفية يعودونه فى مرضه ، فقال لهم : انووا بنا حجاً انووا بنا كذا . وعدد لهم أنواعاً من البر والخير ، فقالوا له : كيف ، وأنت على هذه الحالة ، فقال : إن عشنا - وفينا وإن متنا - حصل لنا أجر النية .

وصدق ذلك الصوفى ، فقد قال النبى(٥) (وإنما لكل امرىء ما نوى فالنية ، بقصد فعل الخيرات - من الصالحات (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) .

---

(١) رواه النسائى : عن أبى أمامة رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى : ومسلم . (٣) نقب البيت : بفتح الكاف وتضم .

(٤) على أى وجه كان .

(٥) جزء من حديث فى الصحيحين .

والنية أساس العمل كالنبات يكون وفق بذرته ، فكما تكون النية يكون العمل إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر : كما قال هادينا الأمين ﷺ (١) إنما الأعمال بالنيات) .

وعلى هذا يشق الطبيب الجراح بطن المريض ليخرج منه الأذى سعياً لسلامته وشفائه ، فيشكر ويؤجر لأنه عمل وفق نية الخيرية خيراً ، ويشق الجانى المعتدى الآثم بطن المجنى عليه البرىء . فيستحق عقاب الدنيا (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) : لأنه عمل وفق نيته الشرية شراً .

ولنتدبر ذلك حتى لا نغضب الله ؛ باتباع غير هداه : كمن يرى أن نية التزوج - تبيح ما يترتب على عقد الزواج من غير أن يكون هذا العقد ، وغفل عن أن نية الزواج يكون بها عقد الزواج الذى يكون به التمتع بروية من عقد عليها .

وكم لهذا القول من نظائر : لو أخذ بها لأحل كثير مما حرم الله (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) : كمن ينظر إلى المرأة الأجنبية ، ويقول : أتأمل فى صنع الله الجميل ، فأذكره مثنياً حامداً فكيف يكون الثناء على الله تعالى بعصيانه ، فقد قال جل شأنه : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن أبصارهن ويحفظن فروجهن) .

ألا إن ارتكاب المعصية : بزعم حسن النية - من تلبيس إبليس ، وتضليله للناس . فنية العمل من جنسه ، فالحلال نيته حلال ، والحرام نيته حرام . واسمعوا وعوا وانتفعوا : النية تصير بها الأعمال العادية طاعات يثاب عليها فاعلها : إذا نوى بها التقرب إلى الله : كالأكل والشرب : إذا

---

(١) جزء من حديث فى الصحيحين .

قصد بهما التقوى على العبادة ، وكالنوم إذا قصد به الاستراحة : لأجل الاستيقاظ لصلاة الصبح أداء ، والوطء : إذا أراد به عفة نفسه وزوجه من الحرام ، وكالتنظف إذا أراد به دفع الروائح المؤذية لعباد الله ، والإنفاق إرضاء لله على الزوجة والعيال والدواب ، ونحو ذلك ومن نوى فعل طاعة : كصلة رحم - أثيب عليه وإن لم يؤده لمانع كمرض .

وإن الله عز وجل ليعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله .

تأمل يا عبد الله :

أمن يخدمك خوفاً من عقابك ، ولولا ذلك - لتمرد عليك ، ومن يطيعك طمعاً فى إحسانك بحيث لو انقطع إحسانك انقلب عاصياً لك : كمن يخدمك ويطيعك لأنه يحبك ويتلذذ بخدمتك وطاعتك ، ويرى مثله الكامل فى مشاهدتك ومجالستك ؟ أيكون هؤلاء عندك بمنزلة واحدة : فى حبك ، وميلك وقد اختلف مقصدهم : كلا : فخادمك . ومطيعك ما بقيت دونه خادمك للغرض .

وهكذا منازل المصلين بنياتهم - عند الله : فمن يعبده تعالى خوفاً من العقاب ، ومن يطيعه حرصاً على الثواب وهما بالتقدير - جديران - ليسا كمن يعبده ويطيعه : رغبة فى التمتع بالنظر إليه تعالى .

وقال راغب فى هذا التمتع :

ليس قصدى من الجنان نعيما غـــير أنى أريدها لأراكا

ومن هنا يا قوم - كانت النية خيراً من العمل ، وهى - كذلك لأنه يثاب عليها بلا عمل ، ولا يثاب على عمل بغير نية فهى كالروح ، والعمل كالجسم ولأن الرياء الذى يفسد ما يخالطه لا يخالطها ، ولكنه يخالط العمل . وبها يتضاعف العمل ويكثر : كمن يجلس فى المسجد بنية الاعتكاف فيه ، وعمارته بالذكر والقرآن

وانتظار الصلاة ، والسلامة من اللغو في مجالس الناس ، وحفظ السمع والبصر واللسان عما لا يعنى ولا يهم ، فإنه يحوز : بهذه النيات : في جلوسه بالمسجد - كثير الحسنات .

أيها المسلم الواعى الحذر ، الحريص على ماينفع : عرفت النية وقدرها، وأثرها ، وأنك بها تخطط : لحاضرك الباسم ، ومستقبلك الكريم : إذا نويت خيراً ، وتخطط لحال ومآل سيئين ؛ إذا نويت شراً ، وقصدت بعزم أكيد أن تحدث ضراً ، وتأتى وزراً : أما ما خطر ببالك وحدثتك به نفسك ، وهاجت به رغبتك : من غير هم باهتمام ، وقصد بعزم - فالله تعالى لا يؤاخذك به ، ويعفو عنك : قال ﷺ : ((١) إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) .

وما عزمت على فعله من شر ، ثم فسخت عزمك ، وصرفت عنه همك وقصدك : خوفاً من ربك . وطلباً لرضاه ، وحياء منه جل علاه - كان حسنة لك : فضلا من ربك ، الذى لم يضع عليك مجاهدتك لنفسك : قال ﷺ : ((٢) قالت الملائكة عليهم السلام : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة . وهو أبصر به ، فقال : ارقبوه . فإن هو عملها - فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها - فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائى) .

فمن لم يفعل ما عزم عليه من عصيان : لتعذره عليه ، أو غفلته عنه - لم يكتب له حسنة .

اتق الله ، وأخلص لربك نية فعل الخير دائماً ، فإنه : تعالى - بصير ، واستحى منـــه تعالى ، ولا تنو شراً أبداً ، فإنه : سبحانه - عليم قدير ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) .

لا تخفى عليه نيتك ـ مهما كانت خفية ، وهو سبحانه يجزيك على فعل ما نويت من الخير عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف : إلى ما لا يحصيه عداد (والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم).

قال رسول الله ﷺ : (إنما يبعث الناس على نياتهم) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة : رضي الله عنه .

وقال ﷺ : (إن الله تعالى يقول للحفظة إذا هم عبـــدي بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الحث على ذكر الله تعالى

الحمد لله ، الذى ذكره للقلب شفاء ، وبه تشفى النفس من كل داء ؛ ولذلك ـ قال : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا) .

وأشهد أن لا إله إلا الله . يذكر سبحانه بثوابه ورحمته ـ من ذكره بطاعته وعبادته ، وقال : فى الحديث القدسى : «(١) أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ـ ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ـ ذكرته فى ملأ خير منهم » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : أعلن فضل ذكره تعالى : بعمله وقوله : (٢) كان يذكر الله على كل أحيانه ، ويقول : عنـــد نومه : «(٣) باسمك اللهم أحيا وأموت » ، وإذا استيقظ . « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » ، وقال له رجل : يا رسول الله إن شرائع الإسلام ـ قد كثرت على . فأخبرنى بشىء أتشبث به ؟ قال : «(٤) لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) عن رسول الله ﷺ : قال : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى » الخ .

(٢) رواه مسلم عن عائشة : رضى الله عنها .

(٣) روى البخارى عن حذيفة وأبى ذر رضى الله عنهما : قالا : كان رسول الله ﷺ : إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك اللهم أحيا ، وإذا استيقظ ـ قال : الحمد لله ، ... الخ .

(٤) رواه الترمذى عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذاكرين الله كثيراً ، والذاكرات : (أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

أما بعد :

فرجل من الحبشة أتى(١) النبي : ﷺ ، فقال : يارسول الله : فضلتم علينا بالألوان والنبوة ، أفرأيت(٢) : إن آمنت بمثل ما آمنت به ، وعملت بمثل ما عملت به : إني لكائن معك في الجنة ؟ فقال النبي : ﷺ : نعم ، ثم قال النبي ﷺ : « من قال لا إله إلا الله ـ كان له بها عهد(٣) عند الله ، ومن قال : سبحان الله ـ كتب له بهـا مائة ألف حسنة ، فقال رجل يا رسول الله كيف نهلك بعد هذا ؟ فقال النبي : ﷺ والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضعه على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستنفذ ذلك كله لولا ما يتفضل الله من رحمته ثم نزلت : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) إلى قوله تعالى في هذه السورة الكريمة : في وصف الجنة : (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً) .

فقال الحبشي : يا رسول الله . وهل ترى عيني في الجنة مثل ما ترى عينك ؟ قال النبي ﷺ : نعم ، فبكى الحبشي : من شدة سروره : بما تراه عينه : من نعيم الجنة ، المعد لأحب خلق الله إلى الله ، حتى فاضت نفسه ، وفارق الحياة على هـذه الحال من الإيمان بالله ورسوله ، وبإنعام الله في دار إنعامه وإكرامه :

قال ابن عمر : رضي الله عنهما : فأنا رأيت رسول الله يدليه : يدلي

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) فأخبرني . (٣) أي بالأمن من عقابه .

هذا الحبشى فى حفرته ، : إعلاناً لحسن عاقبته : عند ربه وهكذا تحسن عقبى من آمن بما آمن به رسول الله ، واقتدى به ﷺ : فيما تقرب به لمولاه ، وذكر الله بما ذكره به : صلوات الله وسلامه عليه .

والله سبحانه الذى خلقنا لعبادته ـ قد غمرنا بنعم لا حصر لها : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فمهما عملنا من صالحات ـ لا نوف المنعم جل شأنه بحق فتوالى نعمه تعالى علينا ـ رحمة منه وفضل وإحسان .

فكيف نغفل عن ذكره : تعالى ، ونحن لا نعيش بغير نعمه ، ولا غنى لنا عن إحسانه ، وتوالى إرضاء من لنا حاجة إليه ولو قلت ـ مع إيماننا بأن الحاجات بيده تعالى وحده ، ولا تقضى لنا إلا بإرادته . وإذنه .

وإذا كنا نذكر بالثناء والتقدير ـ من أجرى الله على يده ـ بعض نعمه علينا ـ فلا يليق منا أن ننساه تعالى ، وعلينا أن نذكره على الدوام الدوام نعمه علينا أيقاظاً ورقوداً ، وقد وعد الله عباده أن يذكرهم إذا ذكروه : قال تعالى : (فاذكرونى أذكركم) أى استحضروا جلالى وعظمتى فى قلوبكم : معبرين عن ذلك : بأقوالكم وأعمالكم ـ أذكركم بالألطاف والإحسان ، واذكرونى فى النعم والرخاء ـ أذكركم فى الشدة والبلاء ، واذكرونى بمجاهدة نفوسكم عند الفتنة والشهوة ـ أذكركم بالهداية ، واذكرونى بالعبودية ـ أذكركم بالربوبية ، واذكرونى بمعرفتى ـ أذكركم بمغفرتى .

وحقاً : (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير) فكيف لا يذكر الله ليذكره بالخير الذى هو مطلوبه ومحبوبه ومراده .

فالعقلاء يحرصون ـ لنيل خيراتهم ـ على ذكر ربهم : ممتثلين قوله

تعالى : (فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) أى داوموا فى جميع الأحوال على ذكر الله الكبير المتعال .

فيا قوم :

وأنتم منتبهون : بقلوبكم : لجلال الله وعظمته ، متيقظون لعظيم فضله :

اذكروه تعالى بألسنتكم : بالأقوال التى أشار إليها رسولكم : قال ﷺ : «(١) أفضل الذكر لا إله إلا الله » .

وقد علمتم فى حديث النبى للحبشى أن لقائلها عهداً عند الله ، وقد قال ﷺ : «(٢) لا إله إلا الله لا يسبقها عمل ، ولا تترك ذنباً » ، وكان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «(٣) سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى ، وكان يقول فيهما أيضاً «(٤) سبوح(٥) قدوس(٦) رب الملائكة والروح » ، وقال ﷺ فى ختام الصلاة «(٧) من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين ، وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير - غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

ولمن لم يسعد بالحج فى عامه - بذكر ختام الصلاة : هذا - عزاء وتصبير

---

(١) رواه الترمذى عن جابر رضى الله عنه .
(٢) رواه ابن ماجه : عن أم هانىء : رضى الله عنها .
(٣) رواه البخارى ومسلم عن عائشة (ض) .
(٤) رواه مسلم عن عائشة (ض) .
(٥) منزه سبحانه عن كل ما لا يليق به .
(٦) متصف تعالى بكل ما يليق به .
(٧) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) .

- ولمن سعد به - بزيادة الثواب - زياده بهجة وسرور : تأملوا : «(١) أتى فقراء المهاجرين رسول الله ﷺ : فقالوا : (ذهب أهل الدثور(٢) بالدرجات العلى والنعيم المقيم : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون بها : قال ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا بلى يا رســـول الله : قال : تسبحون(٣) وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

واذكروه تعالى كثيراً : بعبادته ، بالصلاة والصوم ، والزكاة ، والحج .

وأداء تلك العبادة : بإخلاص وإحسان - يثمر ذكر الله ، الذى به زيادة طاعة الله . واجتناب معصيته ، وكرامة العبد وشرفه عزه ، وسعادته: فى حياته وبعد مماته ، وذلك الذكر : هو مراقبة الله ، وهو أكبر ثمرات الصلاة ، ولذلك - قال الله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) ، وتكرار العبادة : تطوعاً : كصلاة التسابيح - من الإكثار من ذكره تعالى ، الذى أمرنا به ، وهو يزيد ثواب الله ، الذى يثمر رفع الدرجات عنده تعالى ، والنجاة من سخطه وعذابه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) الأموال الكثيرة .

(٣) قال أبو صالح الراوى عن أبى هريرة (ض) لما سئل عن كيفية ذكرهن : قال : يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر : حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين . (٤) هذه الزيادة - رواها مسلم .

وهل يليق منا لديم نعمه علينا إلا تكرار عبادته : شكراً له : تعالى ـ وقد قال سبحانه : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وبذكر الله ـ ياقوم ـ تحيا القلوب ـ حياة الاطمئنان بالله ، والإيمان بأن لا نفع ، ولا خير ، ولا ضر ، ولا شر إلا منه ، فتركن إليه تعالى ولا تركن إلى سواه ، وهو : جل شأنه ـ يقول (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

والقلوب المؤمنة المطمئنة بالله ـ لا تحقد ولا تحسد ، وتثبت ولا تضطرب ، وتمتلىء صفاء : ينجلى على الوجه نوراً وبهاء ، ولا تيأس من أمل ، ولا تقنط من الرخاء بعد الشدة ، ولا من النصر بعد الخذلان ولا تقصد إلا رضا الديان المنان ، وتبعاً لها ـ تخشع الأعضاء له تعالى ، ويصدق اللسان ، ويقول خيراً ، ويصمت عن الشر ، وتنظر العين إلى ما يحل ، وتغض عن المحارم ، وتسمع الأذن إلى النصيحة ، والقول النافع فى الدنيا والآخرة ، وتسعى اليدان والرجلان إلى طاعته سبحانه ، ويعف الفرج عن الحرام .

فالإنسان المطمئن قلبه بذكر ربه ـ نقى تقى : يبذل عند الميسرة : لنفع قومه ووطنه ، ويصبر عند الضيق ، ويدعو لكشف ضره : وهو يرجو رحمة ربه ، فلا ينتحر ولا ينحرف عن الصراط المستقيم ، ويذكره تعالى بما ذكره به سيدنا يونس عليه السلام : قال (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فى عاقبة ذلك الذكر ـ قال تعالى : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) .

والمطمئن قلبه بذكر ربه سيكون قوى الروح شجاعا ثابتاً أمام العدو ، فإن انتصر عاش عزيزاً ، وإن مات كان شهيداً ، والشهادة خير حياة .

ولذلك ـ قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

ولمزايا ذكر الله الكثيرة ، وفوائده الكبيرة : فى الحرب والسلم ، ودرجته العظيمة بين الأعمال الصالحة ـ قال : ﷺ : «(١) ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى : قال ذكر الله تعالى» .

والغافل عن ذكر الله ـ مظلم القلب . متبع لهواه ، مأمور للشيطان ، وكأنه ميت فى يده : يتصرف فيه كما يشاء ، ويورده : بالعصيان ـ موارد الذل والهوان ، وصدق رسول الله ﷺ : إذ قال : «(٢) مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره ـ مثل الحى والميت» ، وما أسوأ حال الغافل عن ذكر الله ، وما أمر عقباه : قال تعالى : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

أيها المسلمون : اتقوا الله ، واذكروه تعالى بألسنة نقية : تترجم عن قلوب تقية ، واذكروه تعالى بأعمالكم : لتكون طاعة لا معصية (إن الله كان عليكم رقيباً) ، وبذلك لا يراكم الله حيث نهاكم ، ولا يفقدكم حيث أمركم ، فتفوزوا فى دنياكم وآخرتكم ، ولا تيأسوا عند الأزمات ،

---

(١) رواه الترمذى والحاكم عن أبى الدرداء (ض) .

(٢) رواه البخارى عن أبى موسى الأشعرى (ض) .

ولا تجزعوا عند المصيبات ، ولا تبخلوا عند النعمات ، ولا تخافوا إذا خاف الناس ، ولا تحزنوا إذا حزن الناس : لاطمئنان قلوبكم بذكر إله الناس ذى الجلال والإكرام ، ومن هنا قال عمر : رضى الله عنه : « ذكر الله عند أمره ونهيه ـ خير من ذكره باللسان » . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ـ أى رجع وبعد عن قلبه ـ .

ولا تكونوا كمن يتابع حبات سبحته ليلا ونهاراً ، وهو يسبح فى المنكرات ، ولا يخاف قيوم الأرض والسموات ، وكونوا السعداء الموقنين ، الذين يملئون كتبهم بذكر ربهم الذى خلقهم من العدم ، وأنعم عليهم بجزيل النعم : رزقكم : وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، وقواكم من ضعف ، وأغناكم من فقر ، وستركم ، وقبل منكم قليل العمل ، وأعطاكم كثير الثواب ، ومازالت حسناته عليكم تتوالى ، وبذكره يحفظكم ويذكركم فى الملإ الأعلى .

ومن فضله ـ أن أجاز ذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومحدثاً ، وأجاز ذكره بغير القرآن للجنب والحائض .

فاذكره ـ ياعبد الله جهراً : لنفع الناس : كأن تؤذن للصلاة ، أو تقيم ، وسراً أو دون الجهر : حتى لا تشوش على ذاكر مثلك فى مكانك (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو(١) والآصال(٢) ولا تكن من الغافلين) .

---

(١) فى الصباح .

(٢) جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب .

عن معاذ : رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أخذ بيده .

وقال يا معاذ : والله إنى لأحبك فقال : أوصيك : يا معاذ . لا تدعن
فى دبر كل صلاة تقول : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن
عبادتك » : رواه أبو داود : فى سننه :

١ – الحب فى الله والبغض فى الله

الحمد لله : جعل الحب فى الله ، والبغض فى الله ، وهو وصف كملة المؤمنين من سبل النجاة : قال تعالى : فى الحديث القدسى : (إنى لأهم بأهل الأرض عذاباً . فإذا نظرت إلى عمار بيوتى . والمتحابين فى والمستغفرين بالأسحار - صرفت عذابى عنهم) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يحب المتحابين من أجله ، وأوحى إلى موسى: عليه السلام : (هل عملت لى عملا ؟ فقال : نعم يا رب : صليت ، وصمت . وتصدقت ، وذكر أشياء من أنواع العبادة . فقال الله تعالى : هذا لك . ولكن هل واليت لأجلى ولياً . أو عاديت لأجلى عدواً) فعلم موسى أن الحب فى الله والبغض فى الله : لفضلهما عند الله - لابد من العناية بهما .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذى أحبوا أحباء الله ، وأبغضوا من عاداه .

أما بعد :

فيا من أعزه الله بالإيمان ، وأسعده بالإسلام :

الإيمان : رابطة تربط المتصفين به بعضهم ببعض : (إنما المؤمنون إخوة) وهو ؛ فروع : كل فرع منها : عروة وثقى ، ورابطة قوية .

وأقوى هذه الفروع . وتلك الروابط — الحب فى الله . والبغض فى الله وذلك أن تحب أهل الطاعة المحبوبين عند الله ، وتبغض أهل المعصية الذين غضب عليهم الله فمحبة الطائعين : هى موالاتهم ، ونصرتهم ، والإحسان إليهم ، والتعاون معهم : على الطاعة .

وبغض أهل المعصية : هو الإعراض عنهم واجتنابهم : تنفيراً من المعصية وزجراً عنها ، والله تعالى يقول : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .

وقد بين : ﷺ — فضل المتحابين فى الله . وما لهم عند الله من مكانة: بلغ من علوها أنهم اختصوا بمزية: يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء : مع ما وهبهم الله : من مزايا أكثر ، فقال : ﷺ لأصحابه « إن من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانتهم من الله تعالى : قالوا : يا رسول الله : تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور . وإنهم لعلى نور ولا يخافون إذا خاف النـاس ولا يحزنون إذا إذا حزن الناس . ثم تلا هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

فالمتحابون فى الله أحب كل منهم الآخر لا على القرابة أو الجاه، وعرض الدنيا الزائل ، ولـكن على أساس القرآن الـكريم ، روح الحياة الطيبة : فى الدنيا والآخرة : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويهتدون بهدايته ، ويجعلونه دستوراً لهم : فى جميع شئونهم : إصلاح دينهم ودنياهم .

وبذلك يكونون لله أولياء ، ولدينه نصراء .

ولذلك — لا يخافون إذا خاف النـاس ، ولا يحزنون إذا حزن النـاس ، وتبشرهم الملائـكة عند الاحتضار : تقول لروح كل منهم : (أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان) ويوم القيامة — ووجوههم منورة ، والنور محيط بهم من كل جانب (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائـكة هذا يومكم الذى

كنتم توعدون) ، وفى ذلك اليوم يقول الله تعالى : ((١) أين المتحابون بجلالى : اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى) .

عباد الله :

من الحب فى الله أن تحب رسول الله ، إمامنا وقدوتنا : فى طاعة الله وعلاقة ذلك : اتباعه ، وحب أهل بيته : قال : ﷺ : ((٢) أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبو أهل بيتى لحبى ، ، وقد قال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

ومن الحب فى الله — أن تحب من يواسيك : بماله . أو جاهه ، ويقضى حاجتك ، ويكفيك هم دنياك : تقرباً إلى الله . وأن تحب زوجك : للتعاون على الخير ، ولصون دينكما .

ومن الحب فى الله — حب الوالدين ، اللذين أمر الله بالإحسان إليهما ، وقال ﷺ : ، (٣) رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخط الوالدين) .

أيها المسلمون :

الحب فى الله : طيب الثمر ، دائم الأثر ، لا يزيد مع البر ، ولا ينقص مع الهجر ، ولا ينقطع بالموت : فقد كان : ﷺ — يخرج إلى البقيع :

(١) رواه مسلم : عن أبى هريرة (ض) .
(٢) رواه الترمذى والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما .
(٣) رواه الترمذى عن ابن عمر (ض) .

مقبرة المدينة المنورة ، فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين اللهم اغفر لأهل بقيع الفرقد[١] » .

وكفى الحب فى الله فضلا أنه يكسب حب الله ، وقد قال رسول الله ﷺ : «إن رجلا زار أخاً له فى قرية أخرى ، فأرصد الله على مدرجته[٢] ملكاً ، فلما أتى عليه — قال : أين تريد ؟ قال أريد أخاً لى فى هذه القرية : قال : هل لك عليه من نعمة تربها — تنميها ، وتسعى فى صلاحها ؟ قال : لا غير أنى أحببته فى الله : قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » ، وقال ﷺ : «[٣] إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إنى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادى فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض وشأن الإيمان أن يتواد أهله ويتحابوا : قال ﷺ : والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاونون وإن قربت منازلهم وأبدانهم ، فالحمد لله على نعمة الإيمان وما أسعد الناس به ، وعلامة ذلك أن يتحابوا فى الله ، وما أشقى الناس إذا تحابوا فى سبيل الشيطان ، وإذا كان المتحابون فى سبيل الشيطان — يتلاقون فى أماكن اللهو والفجور : كمحال القمار — فالمتحابون فى الله يتلاقون فى المساجد : فى الجمعة والجماعة ، وفى مواطن الخير والطاعة كأماكن مدارسة العلم وما وصى به الله وشرعه .

فأبشروا أيها المتحابون فى الله — بتوفيق الله لكم للخير والنفع ، واتقوا الله ، وأحبوا من يحبه : تبارك وتعالى ، وأبغضوا من يبغضه ، وتحابوا فى الله بإفشاء السلام بينكم ، واقتدوا برسول الله ، لتبرهنوا بذلك على أنكم

---

(١) رواه مسلم عن أبى هرير (ض) . (٢) طريقه .

(٣) رواه البخارى ومسلم : عن أبى هريرة : رضى الله عنهما .

تحبونه فى الله حقاً ، وبرهنوا على أنكم متحابون فى الله لتلاقيكم ما استطعتم فى بيوت الله ، وفى مجالس العلم ، والذكر ، والقرآن الكريم ، واحذروا مصاحبة العصاة ، الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة الله : لتكونوا مؤمنين حقاً ، وانصحوهم بحكمة : تقرباً إلى الله ، ولا يغرنكم الشيطان : بسلطانهم أو بمال عندهم أو جاه : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) ، وادعوا لهم بالإنابة ، ولا تكونوا عوناً للشيطان عليهم : بسبهم ، أو شتمهم أو لعنهم ، فالمؤمن ليس بطعان ولا سباب ولا لعان (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) .

قال ﷺ : « إن أوثق عرى الإسلام أن تحب فى الله ، وتبغض فى الله » : رواه الإمام أحمد فى مسنده ، وابن أبى شيبة ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن البراء : رضى الله عنه .

٢ – الحب فى الله والبغض فى الله

الحمد لله : من أحبه ، فاتقاه ، وأحب من أطاعه ، وأبغض من عصاه أسعده وأنجاه ، وقال رسول الله ﷺ : «(١) من أراد عزاً بلا عشيرة فليتق الله) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : جعل اتباع رسوله – دليل المحبة له ، ووسيلة الحب منه ، ومحبه : تعالى : إحسانه . وغفرانه : قال : جل شأنه : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير محب وحبيب لله : أنزل عليه تعالى : (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين تحابوا فى الله ، وتعاونوا على بره تعالى وتقواه .

أما بعد : فيا عباد الله :

أبو عبيدة بن الجراح : رضى الله عنه : كان صحابياً جليلا ، بطلا عظيما من أبطال المسلمين المجاهدين .

وكان أبوه فارساً مغواراً من أساطين المشركين ، وقد غاظه اعتناق أبى عبيدة للإسلام ، وترك دين الأصنام ، واتباع سيدنا محمد : عليه الصلاة والسلام : فحرص على قتله .

---

(١) رواه الديلمى .

تصدى له فى غزوة بدر محاولا قتله ، ولكن الابن — حول سيفه عنه مجاهداً غيره ، فعمل ذلك الأب القاسى القلب بالشرك ، الحريص على قتله على أن يلتقى به مرة ثانية ، ووجه إليه ضربة قاسية : استقبلها أبو عبيدة بحركة بارعة جعلتها تهوى فى الفضاء ، وبعد عنه ، ولكن ذلك الأب المصمم على قتل ابنه — أخذ يبحث عنه حتى التقى به مرة ثالثة ، والغيظ الشديد باد عليه ، ومعلن لحقده رأى أبو عبيدة — حينئذ — أن أباه فى تصديه له وإصراره على قتله من أجل الإسلام — لا يرجع عن عداوة الإسلام ، وما أبو عبيدة إلا جندى من جنود الإسلام لا يليق أن يسكت على من يحاربه ، ويمنع انتشار دعوته بين الناس ، فقابل أباه ، ولم يعرض عنه كما أعرض سابقاً ، والتقى السيفان ، ووقف الخصمان ، وفى لحة خاطفة رفع الرجلان سيفيهما : كل يحرص على قتل الآخر ، والانتصار لدينه .

وفى سرعة ومضاء عزم — أهوى أبو عبيدة بسيفه البتار على قلب والده ، الممتلىء حقداً وغضباً على الإسلام ودعوته وأهله ، فتمزق ، وانفجر الدم منه غزيراً كثيراً وهذه الساعة من ساعات التاريخ الفاصلة : اهتزت لها السماوات ، وسجلتها الملائكة فى سجلات الشرف والإحسان ، ونزل جبريل على الرسـول : ﷺ بقول المنان فى القرآن ، المبشر لأبى عبيدة : برضـوان من الله ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار : قال تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

وهكذا من عمر قلبه بالحب فى الله — يكون كأبى عبيدة : يعادى من عادى الله ، ويحب من أحب الله ، أى يحب من أحبه الله من المؤمنين ، والصالحين والمتصفين بما يقتضى المحبة : من الاستمساك بتعاليم الدين ، ويبغض من أبغضه الله من الكافرين والفاسقين ، والمتصفين بما يقتضى البغض من أوصاف المخالفين لله ولرسوله سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً .

والحب فى الله يدوم لدوام الله ، فلا ينقطع بهجر ولا موت ولا قلة دنيا ، وتغير زمان بل يتعادى المتحابان فى الشيطان ، المتعاونان على معصية الديان وفى حالهم يوم القيامة قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) فيزور المحب فى الله — من أحبه فى الله إذا مرض ، ويزور قبره إذا مات ويعرفه فى الضراء كما يعرفه فى السراء .

والحب فى الله جميل : لأنه مظهر لجمال الله ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

فليس الحب فى الله كلمة تقال ، ويدعيها المدعون ، وإنما الحب فى الله هو أن يكون الله هو الغاية المقصودة من الحب ، فيكون العمل لله ، وتكون المعاملة : إرضاء لله : لا لغرض دنيوى ، ينتهى الحب بانتهائه .

فيا عبد الله :

ليس من الحب فى الله — أن تصادق صاحبك : ما دام ذا جاه ، فإن زال الجاه — زلت عنه وفررت منه .

وليس من الحب فى الله أن تصاحب من كان فى نعماء وسراء ، فإذا ذهبت عنه نعماؤه ، وفارقته سراؤه — تركته وحده يعانى بأساءه وضراءه .

وليس من الحب فى الله أن تحترم صاحبك ما دام معك ، فإذا غابه

عنك — فريت جلده ، فاغتبته ، وتناولت عرضه ، وكنت من قيل فيه : فى الوجه(١) مرآة ، وفى الظهر مكواة .

وليس من الحب فى الله أن يجتمع الصاحبان على معصية الله ، وأن يتآزرا على هتك حرمات الله .

وليس من الحب فى الله أن تترك صاحبك حائراً فى أمره ، أو متخبطا فى أخطائه ، أو تغطى عنـــه عيوبه ، بحجة الرفق به ، والحرص على إدامة صداقته .

إن ذلك كله ليس فى شىء من الحب فى الله ، وإنما هو نفاق ، والنفاق : شر الأخلاق ، والله تعالى يقول : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النــار ولن تجد لهم نصيراً) .

وإنما الحب فى الله ياعبدالله : هو الذى ثمرته حب الخير لغيرك : إرضاء لله ، فتحب له دنيا طيبة حلالا ، وأخرى سعيدة ، فى دار السلام : عند الله تعالى .

لذلك — ترشده إلى التدين إن كان عن الدين منحرفاً ، وإلى كسب الحلال والبعد عن الحرام ، وتهجره : إن لم يستجب لك ، وتسعى إلى إحسان حاله ، وراحة باله : مادمت قادراً ، وأنت لا تريد منه جزاءاً ولا شكوراً ، ومع ذلك لا يجد منك أبداً خيانة فى مال . ولا عرض ، ولا نفس .

وصاحب الحب فى الله ، والبغض فى الله — يكون من العقلاء ، الذين أعمالهم كلها منطبقة على ما تأمر به الشريعة المطهرة ، وأولئك هم السعداء الموفقون

---

(١) ومعناه المثل العامى : فى الوجه مراية وفى القفا سلاية .

وشبيه الشيء منجذب إليه : لذلك يحب أولئك العقلاء ، السعداء من سلك النهج القويم ، ويبتعدون عمن حاد عن الصراط المستقيم ، ومن هنا — قال ﷺ : «(١) لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي» .

ولا ريب أن من أحب أهل الصراط المستقيم - انطبع في قلبه حب الكمال والإيمان ، فيكون عدو الله : في نظره له عدواً . وحينئذ - يرى أن أعظم الناس قيمة - أهل الإخلاص ، والطاعة ، وأحطهم منزلة - أهل الرياء ، والعصيان .

وكذلك - كان شأن الرسول الكريم : ﷺ ، وشأن أصحابه : رضي الله عنهم : يحبون في الله ، ويبغضون في الله ، ويوادون الطائعين ، وإن كانوا بعداء ، ويعادون العاصين . وإن كانو أقرباء . ولقد رأيتم موقف أبي عبيدة بن الجراح من أبيه ، والأبوة أحق قرابة بالإحسان .

ولكن رابطة التقوى - أشد من رابطة النسب ، والقرابة وأقوى .

ولقد هجر صلى الله عليه وسلم الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ، ولم يصلهم حتى تابوا ونزلت توبتهم ، ولما خشي عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول - أن يأمر رسول الله غيره : بقتل أبيه : لشناعة أثر نفاقه — استأذنه رسول الله في أن يقتله هو ، حتى لا تتأثر نفسه بالطبع من رؤية قاتل لأبيه .

فيأيها المسلمون :

اتقوا الله ، وتحابوا في الله - باجتماعكم على طاعته : تعالى : ليدوم حبكم لبعضكم ، ولتجنوا ثمرة ذلك عـلى الدوام : بدوام ودكم ، وليحبكم الله ، فتسعدوا في دنياكم وآخرتكم وأحبوا من يحبه تعالى ، وأبغضوا من يبغضه ، واقتدوا برسول الله القائل :

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد (ض) .

« (١) والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » .

وبرهنوا — يا قوم — على أنكم متحابون فى الله ، : بتلاقيكم ما استطعتم : فى بيوت الله ، وفى مجالس العلم والذكر والقرآن الكريم ، واحذروا مصاحبة العصاة ، الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة الله ، وانصحوهم بحكمة : تقرباً إلى الله ، ولا يغرنكم الشيطان : بجاههم وسلطانهم ، أو بكثرة مالهم للاقتداء بهم فى العصيان : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) .

قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : « (٢) أفضل الأعمال الحب فى الله ، والبغض فى الله » .

قال : صلى الله عليه وسلم : « (٣) من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله — فقد استكمل الإيمان » .

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) : والرواية : بحذف النون من : (لا تدخلوا) ، (ولا تؤمنوا) .

(٢) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والطبرانى : عن أبى ذر (ض) .

(٣) رواه أبو داود ، والضياء عن أبى أمامة : (ض) .

الحث على إرضاء الله ـ وإن سخط كل من سواه ـ

الحمد لله ، الذى لا إله غيره ، ولا معبود سواه ، وأشهد أن لا إله إلا الله : بيده الأمر كله ، ومنه الخير كله ، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم ، العزيز الحكيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله . الذى أرضاه تبارك وتعالى ، ولم يبال بإغضاب سواه فى رضاه : جل علاه .

اللهم صل ، وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الذين لم يبالوا بسخط الناس فى رضاه ، فكان لهم نصيراً ، ففازوا فوزاً عظيما .

أما بعد : فيا عباد الله :

عبد الرحمن الناصر ، ملك الأندلس . حين كانت مملكة إسلامية : أراد أن يوسع قصره بشراء دار مجاورة له مملوكة لأيتام ، فقال الوصى عليهم : لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضى المنذر بن سعيد ، الحريص على رضا الله : مهما سخط سواه ، فأرسل إليه الملك : لإنفاذ البيع ، فقال لرسول الملك : إن البيع لدار الأيتام ـ لا يصح إلا لمنفعتهم ، ومنفعتهم إذا أعطاهم أمير المؤمنين ثمناً عظيما مجزياً ، وإلا ـ فلا ، فلما علم الملك ذلك ـ زهد فى الشراء ، فخشى القاضى أن يصمم على الشراء كما أراد ، فأمر بهدم الدار ، وباع الأنقاض : وحدها : بأكثر من الثمن ، الذى عرضه الملك ، فعز الأمر على الملك ، فأحضر القاضى وناقشه ، فقال غير مبال بسخطه : مرضياً لله : لقد أخذت فى هدم الدار : لمنفعة الأيتام : من قوله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها

وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) . . . فقد قبضت فى الأنقاض وحدها أكثر من الثمن الذى عرض ، وبقيت الأرض للأيتام .

فظهر للملك أن القاضى مخلص : فى اتباع الحق ، فقال : نحن أولى بذلك . . .

ولقى القاضى فى حياته — مع سلامته — مالقى بعد مماته : من ثناء عظيم .

(لمثل هذا فليعمل العاملون) (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وإن الله الذى بيده قلوبنا يصرفها : كيف يشاء — هو الذى يملك وحده الخير كله ، ومنه الوقاية من الضر ، والسلامة من الشر .

فهل يليق أن نسوى به الناس : فضلا عن أن نرضيهم . ونسخطه : (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) .

فمهما كثر مال الناس ، وعظم جاههم ، واشتدت قوتهم — فما هم إلا عبيد ضعفاء ، عجزة أذلاء : كل واحد منهم — مهما غزا الفضاء ، ووطئت قدمه سطح السها فضلا عن القمر ، وقد رأى(١) ذلك قفزة هائلة بالنسبة

---

(١) حول رحلة سفينة الفضاء الأمريكية « أبولو » نشرت صحيفة الأهرام فى يوم الثلاثاء الموافق ٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ - م - ٢٢ من يوليو سنة ١٩٦٩ - قول أرمسترونج : فى آخر المحادثة التى دارت بين رائدى الفضاء ، هو واندرين من جانب وبين مركز المراقبة من جانب آخر : لحظة خروجه من المركبة القمرية .

(إننى عند أسفل السلم : إن أطراف المركبة القمرية لم تنغرس فى سطح القمر بمقـــدار بوصة أو بوصتين - وكان السطح يبدو مكونا من =

البشرية - فإنه يقول بلسان الحال : إذا لم يقل بلسان المقال : « اللهم إنى عبدك وابن عبدك . وابن أمتك : ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فىّ قضاؤك » ، (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) . ولا ريب أن المؤمن بذلك الحق لا يؤثر على رضا الله - رضا : فهو يقول ويفعل ما يرضى الله ، مهما خالف هوى نفسه أو أسخط سواه ونصب عينيه قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .

وفى الاستجابة لهذا النداء - الخير كله : بإرضاء الله : بطاعته تعالى ، اتباع رسوله وامتثال أوامره تعالى : من عدل وإحسان ، وكل ما ينفع بنى الإنسان ، واجتناب نواهيه سبحانه . من ظلم وغش وخيانة ، وكل ما يضر الناس ، ويفسد المجتمع ، ويجعل الحياة — إذا شاع — فوق الأرض جحيما . وقد قال تعالى : (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) .

ولنتصور أثر هذا النداء ، فى هذا الموقف الكريم : أسند قضاء المدينة المنورة إلى سيدنا عمر فى عهد سيدنا أبى بكر : رضى الله عنهما ، فمكث سنة كاملة لم ترفع فيها إليه قضية ، فطلب إعفاءه من وظيفته ، فسأله أبو بكر عن السبب فقال . إن قوما يوقر صغيرهم كبيرهم ، ويرحم كبيرهم صغيرهم : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ينصفون أعداءهم من أنفسهم ، القوى عندهم ضعيف ، حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف عندهم قوى حتى

= حبيبات صغيرة جداً حينما كنا نقترب منه ، وهو يشبه البودرة تقريباً ، والتربة ناعمة جداً إننى أهبط من المركبة الآن ثم قال : ناطقاً بالعبارة التاريخية لأول إنسان يطأ سطح القمر : إنها خطوة صغيرة يخطوها الإنسان ، ولكنها قفزة هائلة بالنسبة للبشرية .

يؤخذ الحق له : إذا مرض أحدهم - عادوه ، وإذا مات شيعوه واتبعوه ، قوم هذا شأنهم : لا حاجة لهم بقضاء عمر .

وهكذا المجتمع المتكون من المؤمنين - يعمر بالصالحات والحسنات ، وتختفى فيه السيئات والمنكرات : لأن السماء تمده بالرحمات والبركات ، وبذلك يحيا برضا الله فى عز وأمان .

والمؤمن الحق مبدؤه طاعة الله : بالاقتداء برسوله ، وإن خالف جميع الناس ، وبذلك يبنى لنفسه الشخصية الكريمة ، الجديرة بالثناء والتقدير : فى الدنيا والآخرة ، ولذلك من صفات عباد الرحمن - أنهم يطلبون لأنفسهم الأمامة للتقاة (واجعلنا للمتقين إماما) .

ألا وإن الهوى فى النفوس — مع إغواء إبليس — جعل أكثر الناس أهل باطل لا حق ، حتى قال سبحانه (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) .

فإذا لم يكن العاقل متحصناً حقاً بالإيمان — فى وسط هذا الزحام — دفعه التيار ، مع الآثمين ، فكان من أهل النار ، وذاق مر الحياة ، وأخذ يستغيث من بلواه ، ويلتمس الدواء ، ولكنه غافل عن مكانه الحق ، ولو انتبه — لتجلى له واضحا — أن الداء والدواء : بيد الله ، فتاب إليه ، واستمسك بتعاليم دينه وأرضاه ، وقد قال تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

وما غاية إرضاء الخلق بما يسخط الحق ؟ : لنتأمل أولا — قوله تعالى : (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى

ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم(١) وما أنتم بمصرخىّ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) .

وواضح أن كل إرضاء للخلق : بما يسخط الحق — إرضاء للشيطان ونصيب من أسخط الله فى إرضاء سواه — مع سوء عقباه - عدم الثقة به عند من أرضاه : قال رسولنا ﷺ : « (٢) من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس) .

ولماذا نلتمس بما يسخط الله رضا الخلق ولا شىء عندهم ، وما كان من خير بهم — فهم سبب فيه ، فقط : (وما بكم من نعمة فمن الله) ((٣) واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك) ، ولذلك - التزم سلفنا الصالح إرضاء الله وحده فى تصرفاتهم ، ولم يبالوا بسخط الناس : ومن هنا - لم يغر العطاء ، ولم تخف السلطة الإمام مالكا : حين أرسل إليه الخليفة هارون الرشيد ، وقت زيارته للمدينة المنورة يأمره بالانتقال معه إلى بغداد ، وقد أرسل إليه كيساً به خمسمائة دينار ، فقال لرسول الخليفة : قل له : إن الكيس بخاتمه ، وقد قال رسول الله ﷺ : «(٤) والمدينة خير لهم - لساكنيها - لو كانوا يعلمون » .

---

(١) بمغيثكم من العذاب .

(٢) رواه الترمذى ، وأبو نعيم فى الحلية عن عائشة (ض) .

(٣) جزء من حديث رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما : عنه صلى الله عليه وسلم .

(٤) فى فضل المدينة أحاديث كثيرة منها ما رواه الطبرانى فى معجمه الكبير والدارقطنى فى الإفراد ، وعن رافع بن خديج (ض) أنه صلى الله عليه وسلم قال : المدينة خير من مكة .

وقد بعدت مسافة الخلاف بيننا وبين سلفنا الصالح ، وأصبح كثير من أحوالنا وتصرفاتنا وأعمالنا وأقوالنا - غير إسلامى : للحرص على إرضاء الناس ، ولو أنه يغضب رب الناس : خرجت المرأة متبرجة ، وفى زيها الجديد الفاضح : غير مبالية بسخط الله ولعنه : فى كل خطوة تخطوها ، وفى كل لحظة من لحظات فتنتها ، وتردناصحها بملء فيها : تظن أنها أقنعت وأتت بالحجة : الناس هكذا ، وبعوى ما أنا عليه يقول فى الناس تحقيراً ، والمثل يقول : كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس ، وقديماً - قيل : كل ما اشتهيت والبسا ما يشتهيه الناس .

والله يعلم أن من الناس من لا يعجبهم إلا الكمال ، والحشمة ، والوقار : حيث الجلال ، ولا يرون فى ذلك إلا الجمال ، وقد قال الكبير المتعال : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

ويسمع المرء الأذان للصلاة - وحوله الناس فى المحفل جلوس - فلا يقوم للصلاة : حتى لا يقال عليه : رجعى ، أو غير متمدين ، وماضره هذا القول ؟ ولا يبالى بعذاب ترك الصلاة أو تأخيرها عن وقتها ، ويسمع الإنسان الغيبة ولا ينكرها ، ويساهم فيها حتى لا يغضب قائلها .

ويمدح المرء الفاسق ، ويذم الصالح : نفاقاً ورياء ، ولا ينظر لغضب الله وعقابه : من أجل ذلك .

وكم من ذنب من أجل إرضاء الناس لا يبالى به ، وعاقبته الحسرة وأليم العذاب .

وكم من حق يضيع ، ومنصب يسند لغير أهله : من أجل إرضاء الناس وعدم المبالاة برب الناس ، فتكثر المظالم ، وتعم الفوضى ، وتفسد

الأخلاق ، فيكون الخراب والدمار ، ولذلك قال رسولنا ﷺ :
« (١) إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

ألا كفانا غفلة عن الحق ، فلنتنبه إلى ما نحن مؤمنون به : من أن النفع والضر لا يملكهما إلا الله تعالى ، القائل : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) .

ولنستمسك بتعاليم الإسلام : مطيعين بها الله على الدوام : رضى الناس أم سخطوا : بذلك يكون تعالى معنا (والله غالب على أمره) ، ولنا في الصفوة من خلق الله - أسوة حسنة أسخط رسول الله ﷺ قومه بإرضاء ربه ، لحارب شركهم ، وسيء خصالهم ، فانتصر - بعد أن لم يبال بإيذائهم له .

وكذلك أبوه إبراهيم عليه السلام - أسخط أباه وقومه عبدة الأصنام وأرضى ربه : بتوحيده وطاعته وتكسير الأصنام ، ولم تزحزحه النار عن عقيدته في الله ، الذي رضي عنه وأرضاه ، فجعلها : سبحانه عليه برداً وسلاماً .

ويوسف عليه السلام راودته امرأة عزيز مصر ، وهي ذات منصب وجمال ، وهو مملوك لها ، فأعرض عنها ، وفر منها ، فأغضبها وأرضى ربه فمكن له في أرض مصر ، ورفع قدره .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه : عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ويأيها المسلم :

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

اتق الله ، واستحى منه تعالى ، فلا تترك طاعة ، ولا تفعل معصية : من أجل الناس ، ولا تكن كمن يتقربون إلى الرؤساء وعظماء الدنيا : بفعل ما يحبون ، وإن أغضبوا رب العالمين : يرجون من وراء ذلك جاهاً أو مالا أو وظيفة أو شيئاً ما : من حطام الدنيا الفانى ، وغفلوا عن أن المعطى فى الحقيقة - وهو الله وحده - قد يحرمهم ما أرادوا : مع حرمانهم من فضله ورضاه ، فلا دنيا يصيبون ، ولا آخرة يكسبون (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) ، وقد قال رسول الله : ﷺ « (١) لا يحقرن أحدكم نفسه ، قالوا : يا رسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال يرى أن لله عليه مقالا ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ، فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى » .

والقلوب بيد الله ، الذى يرضى عمن أرضاه : فهو : سبحانه - يرضى قلب من أسخط : إرضاء لله عمن أسخطه ، حتى يكون له حامداً ، لا ذاماً ، ونافعاً لا ضاراً : قال : صلى الله عليه وسلم : « من أسخط الله فى رضا الناس - سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه ، ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه ، وأرضى عنه من أسخطه فى رضاه حتى زينه ويزين قوله ، وعمله : فى عينه) : رواه الطبرانى عن ابن عباس : رضى الله عنهما :

---

(١) رواه ابن ماجه .

وكتب معاوية إلى عائشة : اكتبي إلى كتاباً توصيني فيه ، ولا تكثري . فكتبت إليه تقول : سلام عليك . أما بعد ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله — وكله الله إلى الناس « والسلام عليك » : رواه الترمذي .

الرضا بالقضاء ، وإحياء الأمل وقاية من الانتحار

الحمد لله : في الرضا بقضائه : مع الإيمان بحكمته — راحة النفس في اطمئنان ، واتجاهها إلى ما فيه الربح لا الخسران ، وقال رسوله ﷺ : «(١) من أصابه هم . أو غم . أو سقم . أو شدة ، فقال : الله ربي . لا شريك له - كشف ذلك عنه » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : عمر قلوب أحبائه برجائه ، وقال : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : خير من شكر عند العطاء ، وصبر عند البلاء . ودعا إلى الرضا بقضاء الله . رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، وقال : «(٢) من لم يرض بقضاء الله ، ويؤمن بقدر الله — فليلتمس إلهاً غير الله » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، خير الهداة ، وصحبه السادة التقاة .

أما بعد : فيا عباد الله :

السيدة تماضر(٣) ، المعروفة بالخنساء : من النساء في صدر الإسلام

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس : رضي الله عنه .

(٣) هي من أهل نجد ، ومن أشعر نساء العرب بنت عمرو بن الشريد : أدركت الإسلام وأسلمت مع أولادها : رأتها السيدة عائشة رضي الله عنها وعليها صدار من شعر ، فقالت لها : يا خنساء ، تلبسين الصدار ، وقد =

حضرت حرب القادسية(١) : بين الفرس وبين المسلمين ، وقالت لبنيها الأربعة ، قبل صباح يوم القتال : يابنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو : إنكم لبنو رجل واحد : كما أنكم بنو امرأة واحدة : ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين : من

= نهى عنه رسول الله ﷺ ؟ فقالت : ما كنت أعلم بنهيه ، ولهذا سبب ، وهو أن زوجى كان رجلا متلافاً ، فلم يبق لنا شيئاً ، فشكوت إلى أخى صخر ، فشاطرنى ماله ، فأتلفه . فعدت إليه ، فشاطرنى ما عنده فأتلفه ، وهكذا إلى المرة الرابعة فقالت امرأته : إن هذا المال متلف ، فأمنحها شرار الأموال فقال لها :

والله لا أمنحها شرارها وهى حصان قد كفتنى عارها

ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعرها صدارها

فلما قتل اتخذت هذا الصدار ، وكان أخوها صخر : هذا ـ أخاً لها : لوالدها فقط .

فأين نحن الآن من هذا العطف الأخوى القـــديم ؟ ـ فكأننا . وكأنهم أحلام ـ

(١) كانت فى سنة ١٤ للهجرة (٦٣٥م) بقيادة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وكان الفرس قبل قتاله ـ يهزءون به وبجيشه ، ويشبهون سهامه بالمغازل ولكنهم لم يثبتوا أمامه ، وكانت هزيمتهم من عهد التاريخ ، وضعفهم مضرب الأمثال ، حتى شوهد فرد واحد من جند المسلمين يقود أمامه ثمانين كثيرة من جنود الفرس ، والله تعالى يقول : (كم من فئة قليلة غلبت فئة أسيراً بإذن الله والله مع الصابرين) .

الثواب الجزيل : فى حرب الكافرين) ، واعلموا أن الدار الباقية — خير من الدار الفانيـــة : يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين — فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين . فإن رأيتم الحرب — قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى على سياقها ، وجللت ناراً على أوراقها — فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها : عند احتدام خميسها — تظفروا بالمغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة .

فلما أصبحوا — سارعوا إلى قتال أعداء الإسلام ، وظلوا يقاتلون ، حتى قتلوا جميعاً ، ووصل إليها خبر قتلهم :

أتدرون : ماذا كان منها وهى التى عرفت بشدة الحزن والبكاء : عند قتل أخيها صخر ، حتى قالت :

ولولا كثرة الباكين حولى ... على قتــلاهمو لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن ... أعزى النفس عنــه بالتأسى

إنها — عند الخبر بقتل بنيها الأربعة ، وقد احتسبتهم عند الله تعالى وديعة باقية — لم تبد ألماً ولا جزعاً ، ولم تزد على قولها فرحة مستبشرة : الحمد لله . الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

ويا قوم :

هل الخنساء : عند قتل أخيها صخر : وكان أخاً لها من أبيها فقط ـ هى هى : عند قتل بنيها الأربعة ، وهى ـ حينئذ ـ قد كبرت سنها ، وضعفت قوتها : وإن عاطفة المرأة ـ ولا شك ـ على ابنها ـ أشد التهاباً منها ـ على أخيها .

فكيف بها على أربعة أبناء أعزاء ، بالنسبة لأخ من الأب : كادت تقتل نفسها حين قتل .

ألا : إنه الإسلام : بعقيدة الرضا بقضاء الله ، التى تنيل رحمته ورضاه — قد حول الخنساء من جازعة ساخطة : عند قتل أخيها — إلى صابرة راضية : عند قتل الأربعة بنيها .

وهكذا : المسلم حقاً — يكون العاقل — ، الذى يرضى على الدوام : بما يفعله سيده الحكيم العليم ، الذى أفعاله كلها حكمة — ونصب عينيه — قول من قال(١) :

كن راضياً بالقضاء . واستجل حكمته   والعبد يرضى بما يرضاه سيده
والدار دار ابتلاء لا صفاء بها   أما الصفاء فدار الخلد موعده

والرضا بالقضاء : يا قوم : هو ترك السخط على الله : من أجل ما قضاه ولو لم ترغبه النفس :

روى البخارى : أنه : ﷺ دخل على ابنه إبراهيم — وهو يجود(٢) بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يابن عوف إنها رحمة . ثم أتبعها بأخرى ، فقال : إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا — بفراقك يا إبراهيم — لمحزونون) .

وحكى الله تعالى عن يعقوب بعد فراق ابنيه : يوسف وأخيه : عليهم

---

(١) هو شيخنا الإمام يوسف الدجوى : طيب الله ثراه ، ورحمه ورضى عنه وأرضاه .

(٢) يخرجها ويدفعها : كما يجود الرجل بماله ويخرجه .

السلام ـ قوله لبقية بنيه : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

ولأن اليأس من روح الله . ورحمته ـ عنوان الكفر ـ كان أن يلقى العبد الله بجميع الذنوب ـ خير اله من أن يلقاه قانطاً يائساً من رحمة الله: القائل : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

فالرضا بالقضاء ـ يريح النفس : من تحكم الهم ، وشغلها به ، ويفتح باب الرجاء : لنيل المرجو ، الذى لا يكرهه الله ، ويتيسر معه الدعاء ، وفعل الخير ، الذى يكسب رحمة الله ورضاه فما أسعد الإنسان : رضى بقضاء الله .

وانتبهوا :

قال تلميذ لشيخه : إذا وجدت قلبى راضياً عن الله تعالى ـ علمت أنه راض عنى : فقال الشيخ : أحسنت : يا غلام : قال موسى لربه : دلنى على عمل إذا عملته ـ رضيت عنى ، فأوحى إليه أن رضاى فى رضاك بقضائى .

وكيف لا يرضى العبد بقضاء الله ، وهو وما يحتاج إليه فى حاضره وغده بالله ومن الله ، وليس له ملجأ إلا الله ، الذى قال حديثاً قدسياً : « (١) من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ، فليلتمس رباً سواى) .

وعجبت أن يألف العبد الكسل ، فيضيق عيشه ، أو يهمل مرضه فى بدنه ، فيصعب علاجه بعد ، أو يهمل فى المذاكرة فيرسب فى الامتحان ، فلا يرضى بالقضاء ، ويلجأ إلى الانتحار ، وبه العار وسوء المصير .

أعاقل ذلك العبد ؟ : إن الانتحار خاتمة لكل تصرف أهمل فيه عقله ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان عن أبى هند الدارى عنه ﷺ عن ربه تبارك وتعالى .

وإنه لإثم عظيم : به العذاب الأليم : قال رسولنا ﷺ : « (١) الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار ، والذى يطعن نفسه يطعن نفسه فى النار ، والذى يقتحم ، يقتحم فى النار » : فمن انتحر بدخول النار ـ دخل نار الآخرة : (نار حامية) .

فما أعظم غفلة من ينتحر ، ويعصى الله ، القائل : (ولا تقتلوا أنفسكم) لأنه ظن أنه يستريح بالانتحار مما يعانى من ألم فى الحياة ، فإذا به قد أدام على نفسه الألم وضاعفه بعد الوفاة : ألا انتبهتم إلى تكرير قتله نفسه بعد بالطريقة التى قتلها بها ، وأما المؤمن حقاً ـ فإنه لا يهمل فى حياته أمراً ينفعه ، وإذا قصر فى أمر تدارك ما فاته ، ومهما اشتد ألمه ـ تدرع بالصبر ، وهو يرجو رحمة الله : مستيقناً أن دوام الحال من المحال ، فلا تيأس من الانتقال من حال إلى حال ، وأن كل شىء فى الحياة بقضاء وقدر ، وأن الدنيا مزيج من الخير والشر ، وأن لكل منهما وقتاً محدوداً ، وأنه سبحانه قادر ، وأنه يغير ولا يتغير ، وأن فرجه قريب ، وقد قال جل شأنه : (فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) : فكما أن رحمته تعالى ـ سبقت غضبه ـ كان يسره أكثر من عسره : ولذلك ـ قال ﷺ : « (٢) لن يغلب عسر يسرين : فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً » ، فالمؤمن حقاً مع تقواه مسلم أمره لله ، وهو منصت بانتباه : لقول من قال :

توقع صنع ربك سوف يأتى ... بما تهواه : من فرج قريب
ولا تيأس إذا ما ناب خطب ... فكم فى الغيب من عجب عجيب

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة (ض) .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك عن الحسن مرسلا : أى سقط من سنده الصحابى .

أيها المسلم :

ألا بالصبر تبلغ ما تريد ... وبالتقوى يلين لك الحديد

فاتق الله . واصبر وارض بقضاء الله ، مهما اشتد البلاء ـ يكن ذلك كفارة لذنوبك ووقاية من شر اليأس فى حياتك ، واسأله : تعالى ـ حسن الحال ، فى الحال ، والمآل ، واسلك لما تحب : مما يرضى الله تعالى ـ المسالك القويمة ولا تيأس من نيل الأمل :

لا تيأسن وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجاً
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

واستغفره تعالى كثيراً : لتشفى من الذنوب : قال ﷺ : « (١) لكل داء دواء ، ودواء الذنوب الاستغفار » .

وقال ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء . وإن لله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » : رواه الترمذى . وابن ماجه : عن أنس : رضى الله عنه .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن على (ض) .

الحث على جهاد النفس

الحمد لله الذى كل الخير فى رضاه ، وهو يرضى عمن خالف هواه : عملا بقوله : جل علاه : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : جعل داء النفس اتباع هواها ، ودواءها منه - مخالفة ذلك الهوى ، وجعل تلك المخالفة طريقاً لخير مقام : قال سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أزكى الناس نفساً ، القائل : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ذوى النفوس الزكية والأخلاق المرضية .

أما بعد : فيا عباد الله :

ليتأمل قصة امرأة العزيز مع يوسف : لعدم مجاهدتها نفسها - هانت وذلت ، ويوسف بمجاهدته لنفسه عز وأكرم ، وأبو تراب النخشبى : من سلفنا الصالح : جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل ، وكان حريصاً دوماً على تأديبها لتكون دائماً على أكمل طاعة لربها :

اشتهت نفسه يوما خبزاً وبيضاً - وكان فى سفره - فقصد - لذلك - قرية ، فمر بها على جماعة : يحدثهم واحد منهم بما أصابه : من لصوص :

تعرضوا له بالطريق ، فحين رأى هذا المحدث أبا تراب - قام ، وتعلق به « وقال هذا كان - مع اللصوص ، فقاموا ، إليه وضربوه سبعين عصاً ، ثم كفوا عن ضربه لأنه عرفه رجل منهم ، فزجرهم عنه ، وقد اعتذروا ، وحمله بعضهم إلى منزله ، وقدم له خبزاً وبيضاً ، فقال أبو تراب لنفسه : كلى - بعد ذوق سبعين عصاً ، فذكر نفسه : رضى الله عنه - بأنها نالت مشتهاها - بعد هذا الضرب الشديد - مع أنها اشتهت شيئاً مباحاً : ليس بحرام ، ولا يغضب الله تعالى :

وهو : رضى الله عنه : بتذكيرها كذلك - يلفتها إلى أنها لا تتشبث بالمشتهيات ، وتجعل كل رغبتها فى الطاعات ، التى تنال بها رضا قيوم الأرض والسموات .

وهو : رضى الله عنه : بتربية نفسه كذلك - يلفت النظر إلى أن النفس - تعتاد طاعة القلب ، الذى يأمرها بإرضاء الله : بتدريبها على ترك ما تشتهى : من مباح : اقتداء برسول الله : ﷺ ، الذى - وضع لنا فى هذا الباب - تعويد أنفسنا كذلك ، بالصوم عن الطعام والشراب ، ونحوهما . . .

هذا ، وموافقة هوى النفس غير المباح : فيه يا قوم - الشر المستطير ، وعذاب الله القدير : (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) ، فما أجدر العاقل أن يأخذ بنصح من قال :

إذا طالبتك النفس يوماً بشهوة وكان عليها للخلاف طريق
فخالف هواها ما استطعت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

وبنور الإيمان - يقوى المرء على مخالفة هواه : (ومن يؤمن بالله

بهد قلبه) ، وقال : ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

والمؤمن كذلك تسره الحسنات ، وتسوؤه السيئات .

وبذلك — يسود ويحب ، ويؤمن جانبه ويعز ، وتحسن حاله فى مآله ولقد خلق الله النفوس : مع استعدادها للفجور والتقوى : ميالة لشهوات الدنيا ، تهوى لذاتها بطبيعتها ، ويزينها لها إبليس ، الذى أقسم على إغراء بنى آدم إلى يوم الوقت المعلوم . فالإنسان : بين ذلك الإغراء المقبول للنفس ، وبين تعاليم الهدى التى بصر الرسول ﷺ : بالثواب على اتباعها ، وأنذر بالعقاب على مخالفتها - فى جهاد عظيم .

يقف بعقله وقلبه . وحده : سليما : كان أم سقيما : أمام عدو ملازم له فى كل زمان . ومكان — هو نفسه ، الموصوفة بقوله تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء) وبقوله : ﷺ : « إن أعـــدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » .

ومع نفسه — إبليس ، الذى يرانا ، ولا نراه ، وتجرى وسوسته من ابن آدم مجرى الدم فى العروق : يقوى هوى النفس ، الذى يهوى بها فى الهاوية (وما أدراك ماهيه نار حامية) .

ولا يثاب الإنسان فى جهاد عدوه المشاهد ، المحدود المكان والزمان ، مهما كان قوياً ، ومعه أعوانه — إلا بالانتصار فى جهاد نفسه عليها ، حيث يكون فى جهاده لذلك العدو — ناصراً لله (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

ومن هنا : من تلك الناحية — كان جهاد النفس ومخالفة هواها أفضل الجهاد ، ووجب على العاقل الانتباه لجهاد نفسه : ليحيا حياة طيبة ، ويفوز بحسن العاقبة : يوم يتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، ويتمنون — وهم فى النار — الهــلاك (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) .

والهدى فيما حثنا الرسول على الاستمساك به ، والضلال فيما دعانا إلى اجتنابه .

وجهاد النفس يكون بمخالفة هواها : إذا كان ضلالا لا يرضاه الديان ويزينه الشيطان ، ويشتمل ذلك كل محرم : كالشتم ، واغتصاب الحق ، والإفساد بين الناس وكان سلفنا الصالح يدربون نفوسهم على مخالفة هواها فى المباحات تعويداً لها : على أن تكون حيث يوجهونها .

ومن ذا الذى لا يحرص على رضا ربه : حرصاً على خير دنياه وأخراه ويفيل ذلك الرضا جهاد النفس : بحملها على فعل الطاعات ، واجتناب المعاصى ، والتزام حدود الله ، القائل : (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) .

فجهاد النفس — يا قوم — يرفعها من ضعة النفس الأمارة بالسوء — إلى رفعة النفس المطمئنة ، التى اطمأنت بطاعة الله — إلى رضاه ، ويخاطبها تعالى : بقوله : (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، وجاهدوا أنفسكم : بمداومتكم على مخالفة هواها ، الذى

لا يرضى الله : لراحة بالكم ، وأمنكم وسعادتكم فى الحياة ، وما ضل إبليس وخسر إلا باتباع هوى نفسه ، فلم يمتثل أمر الله بالسجود لآدم ، واعملوا لغدكم : بإرضاء ربكم بالطاعات ، وفعل الخيرات (والله بكل شيء عليم) .

روى الخطيب : فى تاريخه : عن جابر : رضى الله عنه : قال : قدم النبى : ﷺ من غزاة ، فقال : عليه الصلاة والسلام : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : (مجاهدة العبد هواه) » .

الإسلام دين الفطرة يسر

الحمد لله : جعل تعاليم الإسلام - وسائل الحياة الطيبة ، وحسن العاقبة، وقال : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منـــه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : خلق الخلق لعبادته ، ووفق من طلب رضاه لمداومة طاعته ، والاستعداد بالصالحات لآخرته (والله بصير بالعباد) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قدوتنا إلى الله ، ورحمته المهداة ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها « (١) ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله : فينتقم لله تعالى » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله . وصحبه ، الذين دعوا إلى الإسلام : بأقوالهم : وأفعالهم : وفق تعاليمه الوافية الشافية ، الهادية إلى الجنة ، ونصب أعينهم — قوله : جل شأنه (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) .

أما بعد : فيا أتباع سيد الناس :

من الأمور المشهورة — أن رسول الله : ﷺ : - فى نهاية إسرائه ، وقبل معراجه - قدم له جبريل : عليه السلام أربعة آنية(٢) : فيها أربعة

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) جمع إناء : كأوعية : لفظاً ومعنى جمع وعاء .

أنواع : من أنهار الجنة الأربعة : قال تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن(١) وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى(٢)) .

فاختار ﷺ اللبن ، فقال له جبريل : « اخترت الفطرة(٣) » .

أى علامة دين الفطرة : الإسلام : فإن اللبن ـ طيب . طاهر ، سائغ للشاربين ، سليم العاقبة ، ولذا لا يغص شاربه أبداً .

وكذلك الإسلام : تعاليمه سهلة ، ومتجاوبة مع الفطرة ، ولا يصيب المستمسك بها ما يشبه الغصة أبداً ، ولذلك بلغت رايته أكثر من نصف المعمور من الأرض فى أقل من قرن من الزمان ، ودعا سبحانه وتعالى : للإقبال إليه ، والاهتمام به ، فقال : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

فيأيها المسلم المؤمن بهذا القول الحق المبين :

به ـ يدعوك ربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ـ إلى الاستمساك بالإسلام ، المطابق فى جميع مبادئه . وأحكامه ـ للفطرة السليمة فلا تنفر أبداً من مبدإ أو حكم به ـ طبيعة مستقيمة فليس الانحراف عن الإسلام بالطبع ، وإنما يكون من الاقتداء بالأبوين المنحرفين عنه :

---

(١) غير متغير .

(٢) لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها .

(٣) الخلقة : أى ما تقوم به الخلقة الأصلية حين الرضاع ، فإن اللبن : به ـ ينبت اللحم ، ويشتد العظم .

قال ﷺ : « (١) ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه(٢) ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ؛ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء(٣) : هل تحسون فيها من جدعاء(٤) » .

وكثيراً ما يكون الانحراف عن الإسلام : بإغواء شياطين الإنس والجن : روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ - قال فيما يرويه عن ربه عز وجل : « (٥) وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم أى مائلين عن العقائد

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) .

(٢) أى يجعلانه مثلهما يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً عائداً للنار .

(٣) أى تامة الأعضاء .

(٤) أى مقطوعة الأذن ، أو الأنف ، أو الأطراف .

(٥) هذا جزء من حديث قدسى رواه مسلم فى صحيحه :

عن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله : ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا : كل مال نحلته عبداً فهو حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً » :

وذلك : مثل البحيرة ، وهى الناقة تلد خمسة أبطن آخرها ذكر : كان أهل الجاهلية - يبحرون أذنها : أى يشقونها ، ويخلون سبيلها ، فلا تركب . ولا تحلب ، وكان الرجل منهم يقول : إن شفيت - فناقتى سائبة ، ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها ، وإذا ولدت الشاة أنثى - فهى لهم ، وإن ولدت ذكراً - فهى لآلهتهم ، وإن ولدتهما - قالوا : وصلت الأنثى أخاها : فلا يذبح لها الذكر ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن - حرموا =

الزائفة وإنهم أتتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم » : أى أزالتهم عما كانوا عليـــه : من نقاء الفطرة ، وصفاء السريرة ، وزينت لهم الضلالة . والغواية .

فيـا قوم :

الواحد أول عدد ، فأول متصف بالوجود — يجب أن يتصف به : (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الـكافرون) .

ولقد دلت تجريات العلماء على أن التوحيد أصيل فى الفطرة الإنسانية ، ولذلك جاء القرآن الـكريم : حاكياً لسؤال يوسف عليه السلام لمن كانا معه فى السجن : اعتماداً على فطرتهما : قال تعالى : (يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) .

وقد ركب الله فى عقول بنى آدم قوة يعلمون بها دلائل ربوبيته المتجلية ، فى مخلوقاته ، وفى آياته المقروءة ، فهم : إذاً شاهدون مقرون باطناً بربوبيته تعالى ، وإن لم يشهدوا ويقروا ظاهراً بذلك عناداً واستكباراً : قال تعالى : (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم[1] على

= ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى ، وقالوا : قد حمى ظهره : والله تعالى يقول : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب وأكثرهم لا يعقلون) .

(١) نزل تمكينهم من العلم بدلائل ربوبيته تعالى ، وتمكنهم منه ، وذلك أساس الشهادة بالربوبية والأقرار بها — منزلة من سئلوا ليقروا بها فأقروا ، فالله تعالى يقول : وأشهدهم على أنفسهم أى بتمكينهم من العلم =

أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) .

إذاً الإسلام موافق للفطرة السليمة فى دعوته إلى الإيمان بوجود الله وتوحيده ، ومحاربته للشرك والوثنية وما ينشأ عن ذلك : من خرافات . وأوهام بشتى صورها ، وألوانها : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

وهكذا الإسلام : فى جميع تعاليمه ـ واضح الموافقة للفطرة السليمة ـ وحسبك ـ أيها العاقل ـ أنك ترى : ولا عجب : فالذى وضع هذا الدين هو الذى خلق هذه الفطرة ، وهو العليم الحكيم .

هذا الدين الإسلامى ـ يعترف بالغرائز الإنسانية وميول الإنسان ، وقواه الجسمية والروحية ، الكامنة فيه ، فلا يقف دون حاجاتها ورغباتها ، وإنما ينظم لها وسائلها السليمة ، التى تحافظ عليها فى شرف . وسمو . وعدل . وإحسان . وكرامة .

ومن هنا ـ دعا الإسلام إلى الزواج ، وحرم الزنا : عند الرغبة الجنسية ولم يمنع حب التملك ، فأباح التملك بالسعى المشروع : دون الرشوة والغصب والربا : وأكل أجر العامل . ونحو ذلك ، وأباح : مسايرة للفطرة ـ الشراب النافع : كعصير الفاكهة الطازج ، وحرم الشراب الضار : كالخمر .

= بدلائل ربوبيته ، وذلك بمنزلة السؤال : ألست بربكم ، ولذلك ذكره تعالى فى قوله الكريم : كما أن تمكنهم من العلم بتلك الدلائل بمنزلة الجواب بالإقرار : قالوا بلى شهدنا ، ولذلك ذكره تعالى أيضاً فى قوله الكريم المذكور .

وتكاليف الإسلام - يا قوم - ليس فيها ما يشق على الطبيعة الإنسانية، وقد لوحظ حال المكلف إذا ضعفت طبيعته عنها، ومن هنا شرعت صلاة المريض، فيصلى قاعداً إن لم يستطع القيام. وقال تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر).

ولذلك - اشتهر الإسلام دين الفطرة بكونه دين اليسر وعدم الحرج والضيق: قال تعالى: (وما جعل عليكم فى الدين من حرج).

فيأيها المسلمون:

وقد وعيتم أن يسر الإسلام فى أن تكاليفه مستطاعة (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها): ليس معنى أن الدين يسر - أن يؤخر المسلم الصلوات عن أوقاتها المحددة تهاوناً بذلك، وقد قال ﷺ: «(١) من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله»، وليس معنى يسر الدين - أن يعطى المرء نفسه ما تشتهى: مما حرم الله: من مأكول: أو مشروب. أو نحو ذلك، ويقول: غداً أتوب أو بعد غد: فالأجل المحدود - غير معلوم لصاحبه، فربما فارق الحياة قبل أن يتوب، وليس معنى يسر الدين - التهاون بالنوافل، وحرمان النفس من ثوابها: فقد قال ﷺ لصاحبه عبد الله ابن عمرو بن العاص: رضى الله عنهما: «(٢) يا عبد الله لا تكن مثل فلان: كان يقوم الليل، فترك قيام الليل».

والمنهاج السوى، الذى يلتزمه المسلم، فيفلح ويسلم: هو أن يفعل

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه عن نوفل بن معاوية (ض).
(٢) رواه البخارى ومسلم.

ما أمر الله به ، ويترك ما نهى الله عنه ، ويفعل نوافل العبادة ما تيسر له من غير إرهاق مستعيناً بوقت نشاطه « الذى يكون الجسم فيه مستريحاً حتى لا يعجز عن أداء ما كلف القيام به ، أو يقصر فيه ، فيتعرض للعقاب ، ويحرم الثواب ، فيكون كالمسافر الذى يرهق راحلته حتى تتلف ، وتنقطع عن السير : فلا هو بلغ الغاية التى يريدها ، ولا هو أبقى الدابة التى تحمله فى سفره : قال ﷺ : « (١) إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . فإن المنبت(٢) لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع » ، وفى ذلك المسلك المحمود - قال رسولنا خير هاد : « (٣) إن الدين يسر - سهل : لا مشقة فيه - ، ولن يشاد : - يغالب - الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا : - اتجهوا للسداد والصواب : من غير إهمال ، أو مبالغة - وقاربوا : - توسطوا . واقتصدوا والتزموا الاعتدال فى العبادة - ، وأبشروا : - وافرحوا بالثواب الذى تنتظرونه مطمئنين على العمل الدائم ، وإن قل - واستعينوا بالغدوة : - أول النهار : من الفجر إلى طلوع الشمس - ، والروحة : - آخر النهار - ، وشىء من الدلجة : - آخر الليل - » .

أى استعينوا أيها المسلمون على طاعة الله عز وجل بأدائها فى هذه الأوقات ، حيث نشاطكم ، وراحة أبدانكم ، وفراغ قلوبكم من شواغل الدنيا ، فتستلذونها ، ولا تسأمونها ، وبذلك تبلغون مقصودكم منها : من غير عجز وتعب : كما أن المسافر الحاذق - يسير فى هذه الأوقات : للنشاط : ببرد الهواء ، فيقطع فيها من المسافة ما لا يقطعه فى غيرها من الأوقات .

---

(١) رواه البزار عن جابر (ض) .
(٢) المنقطع فى سيره .
(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة (ض) .

ويستريح هو ودابتـــه في غيرها ، فيصل المقصود بلا تعب ، ولا ينقطع عنه .

أيها المسلمون :

لم يكلفكم الله بتكاليف شاقة : كما كلف بنى إسرائيل : بقتل الأنفس : للتوبة ، وقطع موضع النجاسة : للطهارة ، وبفرض خمسين صلاة في اليوم والليلة ، وصرف ربع المال : للزكاة .

وإنما كلفكم تبارك وتعالى بما تستطيعون ، رحمة وفضلا وإحساناً ، فأدوا ما كلفكم به : شكراً له تعالى وإحساناً إلى أنفسكم : منه حسن الجوار ، وأداء الحق لصاحبه ، ولا تقصروا فيه ، حتى لا تحرموا ثوابه ، ولا يحل عليكم غضبه تعالى وأليم عذابه ، ولا يغرن الشاب تلبيس إبليس عليه : بأن من يسر الدين تخفيف المسئولية عنه ، حتى يستمرىء المعصية ، ويجرؤ عليها ، ويضيع شبابه فيها ، وربما يدركه الموت من غير توبة ، فيخسر خسراناً مبيناً ، وليستيقظ إلى أن مدة الشباب - زمن تحصيله لمستقبله ، وقد دعا ﷺ : لاغتنام الشباب للهرم ، ولا تتركوا تطوع العبادات : كصلاة التسابيح ، والضحى ، وصوم يومى الاثنين والخميس ، وتقولوا إن الدين يسر ، فليس ترك تطوع العبادات يسراً بل هو تفريط بعد قوله ﷺ : «(١) إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله - صلاته ، فإن صلحت - فقد أفلح(٢) وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء - قال الرب : عز وجل : انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل به ما انتقص من الفريضة ؟ ثم تكون سائر أعماله على هذا) .

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة (ض) .
(٢) فاز وظفر بمطلوبه .

إنما اليسر - يا قوم - فى التوسط فى أداء التطوع : كأن نصوم بعض الأيام ، ونفطر بعضاً ، ونصلى من الليل وننام منه : اقتداء برسولنا صلى الله عليه وسلم .

أيها المسلمون :

لا تتركوا مأموراً به ، ولا تفعلوا منهيا عنه ، ولا تتركوا التطوع ، ولا تتشددوا فيه ، فتوسطوا وخذوا من الأعمال ما تطيقون الدوام عليه : ليدوم ثواب الله لكم . وفضله عليكم (واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

عن عائشة : رضى الله عنها - أن النبى صلى الله عليه وسلم - دخل عليها ، وعندها امرأة : قال : من هذه ؟ قالت : هذه فلانة(١) : تذكر(٢) من صلاتها ... فقال : مه(٣) ، عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل(٤) الله حتى تملوا ، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه ، رواه البخارى ومسلم ، وروى مسلم : عن ابن مسعود : رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون(٥) » : قالها(٦) ثلاثاً : أى تأكيدا فى النهى ،

---

(١) قال الخطيب : هى الحولاء بنت تويب بن حبيب بن أسد بن عبد العزى .

(٢) أى تذكر عائشة من صلاتها أى أنها كثيرة ، وفى مسند الحسن بن سفيان هذه فلانة . وهى أعبد أهل المدينة ، وفى مسند أحمد لا تنام . تصلى .

(٣) كلمة زجر بمعنى اكفف .

(٤) أى لا يقطع ثوابه عنكم ، وجزاء أعمالكم ، ويعاملكم معاملة المال « حتى تملوا » أى العمل ، فتتركوه .

(٥) المتعمقون ، المشددون فى غير موضع التشديد .

(٦) أى قال الجملة ثلاث مرات : هلك المتنطعون . هلك المتنطعون . هلك المتنطعون ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم عنه : روى ذلك البخارى .

عن التنطع ، وهو التشدد فى غير موضع التشدد : من يغلبه النوم ، فيغالبه ، ليصلى ، ويذاكر درسه ، فليس ذلك نافعاً بل ضاراً ، وأما التشديد أمام الهوى : ليترك الإنسان المعصية فهذا جهاد عظيم ، فلنتنبه لذلك جميعاً وبخاصة شبابنا والله ولى التوفيق .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو فى الدين . فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » : رواه الإمام أحمد فى مسنده . والنسائى ، وابن ماجه ، والحاكم فى مستدركه : عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

الحث على الحرص على رحمة الله تعالى

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، المعروف بالفضل والإحسان ، وقد افتتح سور القرآن الكريم :

بقوله : باسم الله الرحمن الرحيم ، ورحمته سبقت غضبه ، وحلمه سبق مؤاخذته ، وعفوه سبق عقوبته ، وهو الحكيم العليم .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، يحب الرحماء من عباده ، وقال رسوله : «(١) الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » أى الله العلى الأعلى ، القائل : (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل : « (٢) إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الرحماء المرحومين .

أما بعد : فيأيها الراغبون فى رحمة الله تعالى فى دنياه وأخراه :

من زوجاته صلى الله عليه وسلم ـ السيدة زينب بنت جحش : لامتلاء

---

(١) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو (ض) .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) وتتمته . (فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة ـ لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بالذى عند الله من العذاب ـ لم يأمن من النار) .

عليها برحمة غيرها : حرصاً على رحمة ربها لها ـ كانت تخيط الثياب ، ثم تبيعها وتشترى من ثمنها طعاماً ، ثم تدعو اليتامى ، فتغسل وجوههم . ورؤسهم . وأيديهم . وأقدامهم ، ثم تطعمهم ، وتطعم معهم ، حتى إذا شبعوا وهموا بالانصراف ـ نظرت إليهم ، فشاع فى وجهها بريق السرور .

فما أسعد الرحماء بشرح الصدور ، ورحمة الله القائل فى الحديث القدسى : « (١) إن كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى » .

عباد الله :

الرحمة رقة فى القلب : تقتضى التفضل والإحسان : ابتغاء وجه الله ، القائل (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

فليست الرحمة كلمة أسف ، ولا صوتاً من الشفاه ولا مظهر تأسف .

فما ذلك بمزيل للألم ، ولا مبلغ للأمل ، ولا معـــين على دفع شر ، ونيل خير .

وإنما تتبدد الهموم والأحزان ، وتمسح دموع الغم والأسى : بالإحسان وفعل الخير ، وإعانة أصحابها على إزالة أسبابها : « ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه » ، (والله يحب المحسنين) .

وإن فى مجاهدة النفس : لمواساة الضعيف والبائس : رحمة بهما ـ غرساً للرحمة فى النفس ، وعمارة للقلب بها ، ولذلك ـ قال رسول الله ﷺ لرجل جاءه يشكو قساوة قلبه : « أتحب أن يلين قلبك ، وتدرك حاجتك : ارحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك ـ يلن قلبك ، وتدرك حاجتك(٢) » .

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل عن أبى بكر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .

(٢) رواه الطبرانى .

فمن جاهد نفسه وعمل على أن يكون رحيما - فقد رحم نفسه : بالسعى إلى إدراك حاجته بعون الله الكريم ، القائل : (إن الله بالناس لرءوف رحيم) ، ومن رحمة الإنسان نفسه - طاعته لربه . كما فعل أبو مسعود البدرى : رضى الله عنه : كان يضرب غلاماً له ، فقال : ﷺ له : « اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر منك على الغلام » . فقال أبو مسعود : هو حر لوجه الله تعالى ، فقال : ﷺ : « (١) لو لم تفعل ذلك لمستك النار » .

فمن يرحم من معه فى سكنى أرض الله - يرحمه الله ، ذو الرحمة الشاملة لما وسعه علمه المحيط ، ومن دعاء حملة عرشه . والملائكة حول العرش : (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً) .

والعلم والرزق والصحة والعافية ، وكل خير تراه أو تسمع عنه : من آثار رحمة الله .

وصح أنه صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من الأسرى تأخذ ولدها وترضعه فى حنان ، فقال : أتظنون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قالوا : لا والله ، فقال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .

ومن رحمته تعالى - ياقوم - إدامة إحسانه للعبد مع عصيانه ، لعل العاصى يتوب ، ومغفرته للذنوب ، وتجاوزه عن خطايا البشر ، وتوبته على من تاب (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ، (وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) .

ومن رحمته تعالى توجيهه لغرس الرحمة فى النفوس .

---

(١) رواه مسلم .

ومن ذلك ـ رعاية أنبيائه للغنم : ليتعلموا الرحمة ، فما بعث الله نبياً إلا كان يرعى الغنم ، وكان صلى الله عليه وسلم يرعاها بقراريط لقريش .

ولقد بلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم ـ أن حاول المشركون فى أحد اغتياله ، وألجئوه إلى حفرة : ليقع فيها ، ونظر إلى صفوة من أصحابه ، وهم قتلى ، وقد شق خده ، وكسرت رباعيته : بين المفلجتين والناب ، فقيل له فى هذا الوقت العصيب : يا رسول الله : ادع الله على المشركين ، فلم يدع عليهم : رحمة منه ، وقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

وخلقه العظيم صلى الله عليه وسلم ، وسياسته قومه من رحمته تعالى قال : جل شأنه : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

ومن رحمته تعالى تعاليم دينه ، التى بها يتراحم الناس ، ويرحم الحيوان الأعجم ، الذى لا يعبر ـ بغير لسان الحال ـ عن الألم . فإنه لا يستطيع أن يتكلم : قال صلى الله عليه وسلم « (١) دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش(٢) الأرض » .

ومن رحمته تعالى حسن جزاء الرحماء (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) .

فيا طلاب الرحمة ممن بيده الرحمة : مفتاح خزائنها بأيديكم ، وسبيلها ممهد تحت أقدامكم :

ارحموا أولادكم بتربيتهم على مبادىء الدين الحنيف ، واطبعوهم بطابع

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر (ض) .
(٢) حشرات الأرض .

الخلق الكامل ، وارحموهم ، وارحموا أبويكم وأزواجكم وسائر أقاربكم . بحسن المعاشرة . والإحسان إليهم ، والعمل على ما يسعدهم ، وإعانتهم فى الملمات ، وتكميل سرورهم فى المسرات : قال صلى الله عليه وسلم « (١) خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلى » .

وارحموا أهل دينكم : بالعمل على عزتهم ، ودفع المذلة عنهم : مرشدين إلى ما فيه سعادتهم : ليسعد ، ويعز بالتراحم - مجتمعكم ، وتشمله رحمة ربكم ، فيكون النصر حليفكم (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

برحمة بعضنا لبعض - يعيش اليتامى والمساكين : فرحين : بحسن رعاية المحسنين .

ويكثر إنتاجنا ، ويتجلى حسن حالنا ، وتنورنا ، وتقدمنا : بالمعلمين المخلصين ، والتجار الأمناء الصادقين ، والصناع المهرة الأوفياء المتقنين ، والموظفين المراقبين فى أعمالهم رب العالمين .

وهل يكدر الحياة سوى المآسى : من القسوة والقساة : يسرقون ويسلبون ، وللسموم المهلكة : من الحشيش ونحوه يروجون ، وعلى القتل يتآزرون ، وعلى الغش والنفاق والاحتكار وغلاء الأسعار والاستغلال يحرصون ، وعلى الإثم والعدوان - يتعاونون ، وعلى إهمال النصح والإرشاد لخير الأهل والمواطنين يصرون ، وللخدم والمستضعفين : من الرجال والنساء يؤذون .

يا قوم :

رحم الله من رحم نفسه بالاستمساك بتعاليم الدين ، فرحم سواه :

(١) رواه الترمذى عن عائشة (ض) .

ببذل المال والطعام والكساء ، وبالمواساة بالكلمة الطيبة(١) ، وبالنصيحة ، والرفق بالحيوان والعفو عن المسيء وترك التكلم ، وفعل المعروف ، وقد قال رسولنا « (٢) كل معروف صدقة » .

ومن قسا قلبه آذى نفسه بالعصيان والقسوة على غيره ، فشقى : بقسوة الناس وغضب الله عليه ، وقد قال رسوله : « (٢) لا تنزع الرحمة إلا من شقى » .

أيها المسلم : اتق الله ، واشكر له تعالى : برحمة متألم لبلاء أصابه ، أو لحرمان من أمل : مغتبط وحامداً له تعالى أن رحمك ووقاك مما ابتلى به سواك ، وارحم أولادك ، وساعد أهلك بإرشادهم إلى الاستمساك بالدين ، والإحسان إليهم ، وأحسن إلى والديك (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

واحرص على رحمة الله : برحمة خلقه : كما تسعى لها بإقبالك عليه تعالى : بالإيمان وإخلاص عبادته . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « (٣) وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله عز وجل قلوب المؤمنين تعد إليه بالود والرحمة وكان الله عز وجل إليه بكل خير أسرع » .

أيها المسلمون :

اتقوا الله وارحموا الضعيف ، واحذروا القسوة عليه ، ونصب

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة (ض) .
(٣) جزء من حديث رواه الطبرانى فى معجمه الكبير والأوسط ، والبيهقى الزهد عن أبى الدرداء (ض) .

أعينكم ـ قول الحسن البصرى : « إن أخوف ما أخاف أن أسىء إلى من لا أجد له ناصراً إلا الله » ، ولتقم الرحمة بينكم ـ لخيركم وخير مجتمعكم ـ مقام القانون .

واقتدوا برسولكم وصحبه ، الذين قال فيهم الله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه الإمام أحمد والبخارى ، ومسلم والترمذى عن جرير رضى الله عنه .

على المؤمن أن يكون بين الخوف وبين الرجاء

الحمد لله : المرجو ثوابه ، المخوف عقابه ، وقال (ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : العزيز العلى . القائل فى الحديث القدسى : « (١) وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين : إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة . وإن خافنى فى الدنيا آمنته يوم القيامة » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : كان أشد الناس خوفاً من الله : لأنه أعلم الخلق بالله ، القوى الغنى ، القائل : فى الحديث القدسى : « (٢) من رجا غيرى لم يعرفنى . ومن لم يعرفنى لم يعبدنى . ومن لم يعبدنى ـ فقد استوجب سخطى ، ومن خاف غيرى ـ حلت به نقمتى » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين أطاعوا ربهم رغبة فى الخير ، ورهبة من الشر ، ففازوا فوزاً عظيما .

أما بعد : فيا عباد الله .

رأى داود الطائى امرأة تبكى ـ عند قبر ولدها ـ وهى تقول : يا ابناه أى خديك بدأ به الدود أولا ، فسقط داود مكانه مغشياً عليه : من شدة

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل .

(٢) مجموعة الأحاديث القدسية ـ لسيدى محى الدين بن العربى .

الخوف من ذلك مع أن أكل الدود فى القبر للبدن - بعض الأهوال ، ومعه وبعده من الأهوال - ما تسقط - لشدته - الجبال .

ولذلك - قال أحمد بن حنبل : سألت الله عز وجل - أن يفتح على باباً من الخوف : بالرؤية لبعض هذه الأهوال الثقال ، فاستجاب الله ، ففتح ، وأراه هولا من تلك الأهوال : كرؤية منكر ونكير ملكى السؤال : قال ابن حنبل : تخفت على عقلى ، فقلت : يا رب على قدر ما أطيق - خوفى - فسكن قلبى ، وهدأ . . . .

والواقع أن العبد - مع الانزعاج - لا يحسن العمل .

ولذلك - خالقنا : عز وجل لعبادته - يحملنا على إحسان العمل : بالخوف : مما يؤلم ويكره ، وبالرجاء والأمل فى المحبوب النافع السار : فى الحال والمستقبل .

وما يخاف منه ، وما يرجى ويؤمل فى الدنيا والآخرة : كلاهما بيد الله وحده القائل : (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) : كما قالت اليهود : منذ دخل محمد المدينة - نقصت ثمارها ، وغلت أسعارها : (قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) .

ولذلك لا يرجو ولا يخاف العاقل سوى الله ولسان حاله يقول :

لا نلت خيراً ما بقيت ولا عدانى الدهر ضر
إن كنت أعلم أن غير الله ينفع أو يضر

وحسب ذلك العاقل أن يعيش عزيزاً بالله ، الذى يخيف منه سواه : مهما كان عظيم الجاه فى دنياه ، ويسعد بحسن عقباه : تأملوه : دخل النبى :

ﷺ على شاب - وهو يجود بنفسه - فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله ، أرجو رحمته تعالى وثوابه ، وأخاف ذنوبي جزاء ذنوبي وسخطه تعالى وعذابه ، فقال ﷺ : «(١) الرجاء والخوف - لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف» .

وحضور الخوف من الله ، والرجاء في الله : في القلب عند الاحتضار والإشراف على الموت - لا يتأتى إلا لمن اعتادهما ، وراض قلبه عليهما في حياته : وهو المؤمن العامر القلب بذكر الله ، المعترف بربوبيته ، المقر بوحدانيته ، الذي لا يرتاب في قدرته تعالى وقوته ، ولا في قضائه العادل وحكمته : لذلك - يخشى عذابه تعالى ، ويرجو رحمته وثوابه . ويطمع في غفرانه تعالى للذنب : إذا زلت قدمه ، ومسه طائف من الشيطان ، ويستعظم الذنب - مهما صغر بالنسبة لمقام الله ، ويستقل الطاعة - مهما عظمت : بالنظر لحق الله ، الملك الحق المبين ، القائل (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) .

ذلكم المؤمن : يتجلى خوف قلبه : في أعمال أعضائه المرضية لربه ، فيرحم الأرملة ، واليتيم ، والمسكين ، ويحب الخير لغيره : كما يحبه لنفسه ، ويكف لسانه ويده وسائر أعضائه عن إساءة غيره ، ولا يرى عليه أثر حقد ولا غل ، ولا حسد ، ويخلص في عبادة الله وطاعته ، وإذا ملك خيراً شكر . وإذا ابتلي صبر .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه : وقال النووي : إسناده جيد .

فليست أمارة الخوف من الله حقاً ـ القول باللسان : إنى أخاف الله أو التظاهر بالخوف : مع عصيانه : سبحانه وتعالى : وإنما هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى : سراً وعلانية . حذراً من غضب الله : كما قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه .

ومن هنا ـ قال ابن آدم لأخيه : الذى أعلنه بالقتل (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) ،

وليست علامة الرجاء فى الله صدقاً ـ الطمع فى رضا الله ونعيمه : مع مخالفته ، فذلك اغترار بالله ، القائل : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) .

فالرجاء فى الله حقاً ، والخوف منه صدقاً ـ جناحان يطيران : يطير بهما الطائرون المقربون إلى كل مقام محمود ، ووسيلتان إلى السلامة من الضر الآن ، ويوم الحساب .

ومن سار فى حياته ، وهو يخاف عذاب الله ، ويرجو إحسانه جل علاه : بإيمان صادق ، ويقين حق ـ لم يفعل إلا خيراً ، وأراده الله وأحبه ولم يرد له إلا خيراً : كزيد الخيل ، الذى سماه ﷺ زيد الخير : لحبه للخير وأهله والله تعالى يقول : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) .

قال للنبى ﷺ : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ؟ فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شىء منه سارعت إليه ، وأيقنت بثوابه ، وإذا فاتنى شىء

منه - حزنت عليه ، وحنت إليه ، فقال : ﷺ : هذه علامة الله فيمن يريد ويحب ، ولو أرادك للأخرى - وعدم الخير ، والحرمان من محبته تعالى هيأك لهائم لا يبالى فى أى أوديتها هلكت ، فما يريد سبحانه ، ويحب إلا راجى رحمته وثوابه ، وخائف نعمته وعذابه ، وعنوان ذلك - فعل الخير وحبه وحب أهله .

وقد قال تعالى : (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) .

فيا حريصاً على سعادة الدارين : اتق الله ، وتصور خوف الله ورجاءه كما صورهما سيدنا على : حتى تزيد من حسناتك مهما كثرت ، ولا تيأس من غفران ذنوبك - مهما عظمت : قال رضى الله عنه : يا بنى خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض - لم يتقبلها منك - أى كمقابل لفضله وإنعامه ، فذلك لا يتأتى أبداً . وغاية طاعتنا إقرارمنا بذلك وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض - غفرها لك .

وقال سيدنا عمر فى تصوير عظم رجائه فى الله وخوفه منه : لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحداً - لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحداً لخشيت أن أكون ذلك الرجل .

يا قوم :

كيف لا تخاف الله ، والموت من ورائنا والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله موقفنا . ولا يأس من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) .

أيها المسلم :

قال أبو القاسم الحكيم : « من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه » .

فاتق الله ، وتب إليه ، وخفه سراً وجهراً حتى لا تقول إلا طيباً ، ولا تعمل إلا حسناً ، حتى تزداد من ذلك ما استطعت ، ولا يصل بك الرجاء فيه تعالى إلى التهاون فى أوامره ، والاستهانة بنواهيه ، ولا يذهب بك الخوف من الله إلى اليأس من رحمته (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خاف أدلج(١) ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة » رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « يابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

---

(١) أى ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من العوائق والقواطع .

بسم الله الرحمن الرحيم

من وصاياه : صلى الله عليه وسلم

الحمد لله : سبيله الهدى ، وبه وله - أرسل رسوله ، وقال : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : أقسم أن كل إنسان خاسر إلا من تكمل بالحق ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، وكمل غيره بالتوصية بذلك ، والصبر عليه : قال : جل شأنه : (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من وصى بالخير سواه ، وأمر بطاعة مولاه ، وذكر وأرشد بما فيه رضا الله ، الذى أنزل عليه قوله : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله . وصحبه ، شيعة رسوله الله المكرمين .

أما بعد : فيا عباد الله :

لما تزوج الحارث بن عمر الكندى ابنة عوف بن محلم الشيباني ، وأرادوا أن يحملوها إلى زوجها - أوصتها أمها بما يجعلها فى راحة وهناء ، وبدأت وصيتها بقولها : « أى بنية . إن الوصية لو تركت : لفضل أدب

تركت : لذلك : منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، فالوصية . أو الأمر بالخير ، أو التذكير والإرشاد إليه — شيء جميل نافع ؛ به صلاح الدنيا والآخرة ، ولذلك يحرص العقلاء على الانتفاع بها ، والحكماء على قولها وتبليغها .

وسيد الحكماء . خير الأنبياء ، رسولنا : ﷺ - من وصاياه - ست وصايا : هي من أصول الخير ، وجماع الفضائل ، ومكارم الأخلاق .

وجهها : ﷺ إلى صاحبه أبي ذر الغفاري : رضي الله عنه ؛ ليعمل بها ، ويبلغها سواه ، فهي وصايا له ولكل مسلم .

ولقد كان رضي الله عنه — ميالا إلى درجة المغالاة في الزهد ، فقد حرم ادخار المال الزائد عن حد الضرورة أو الحاجة ، واعتبره من المال المكنوز ، ولو أدى صاحبه زكاته ، وذلك خلاف ما صح عن رسول الله : ﷺ ، وما عليه إجماع الصحابة أو جمهورهم ، وهذا هو السر في اختلافه ، مع معاوية رضي الله عنه بالشام ، ومع عثمان : رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين بالمدينة ، فأشار عليه أن يختار له مكاناً ، خارج المدينة : مخافة الفتنة ، فاختار الربذة - وهو حر بعد ذلك في نشر رأيه . والجهر بالدعوة إليه ، حتى مات بها ، وكان يحمل لسيدنا عثمان كل احترام ، وكان عثمان يبادله هذا الاحترام إلى آخر لحظة من حياته : كل مجتهد في رأيه ، ولو أخطأ ، واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية .

وقد قال أبو ذر : رضي الله عنه في ذكر وصاياه : ﷺ ، التي وجهها إليه : «(١) أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير : أوصاني ألا أنظر إلى

---

(١) رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه .

من هو فوقى . وأنظر إلى من هو دونى ، وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت ، وأوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق . وإن كان مراً . وأوصانى أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله . فإنها كنز من كنوز الجنة » .

أيها المسلم :

اتق الله ، ونفذ وصايا رسوله ، واكسب رضا ربك واعلم أن سيد الصوفية الجنيد سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل ؟ فقال : « ليس مدح الغنى بالوجود ، ولا قدح الفقير بالعدم ، وإنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما » .

وجماع ذلك : الشكر من الغنى ، والصبر من الفقير ولذلك — قال ﷺ : « (١) الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » .

فلا يحتقر غنى فقيراً حتى لا يكون شاكراً ، ولا يحسد فقير غنياً حتى لا يكون صابراً ، وإنما الجنة . ورضا الله فى دنياه وآخرته للشاكر والصابر ، ومدح تعالى خليله إبراهيم لشكره ، ورسوله أيوب لصبره . (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

قال رسول الله ﷺ : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » : رواه البخارى عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

وسائل نيل المرام

الحمد لله الشكور الصبور ، الذى لا يخيب من قصده .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يعين من تصبر ، ويجعله صابراً مأجوراً ، ويكفى من توكل عليه ما أهمه حتى يغدو فرحاً مسروراً .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وسيد المتوكلين على الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الصابرين الشاكرين .

أما بعد : فيأيها المؤمنون :

تكلم رجل فى زين العابدين ، بن الحسين : رضى الله عنهما، وافترى عليه .

وزين العابدين : رضى الله عنه - بشر : له إحساس البشر ، فتألم من كلام الرجل وافترائه ولكنه بصر بقول جد أبيه ، رسول الله ﷺ : «(1) ومن يتصبر يصبره الله » ، فتصبر ، فمنحه الله الصبر ، وفى ضوئه عفا عن الرجل ، ولم يعاقبه بما يناسب ، وصدر منه : رضى الله عنه ما فيه خير له وللرجل ، وفى ذلك رضا الله ، الذى يحرص عليه ، والذى فيه سعادة الدنيا والآخرة .

قال رضى الله عنه للرجل : إن كنت كما قلت - فأستغفر الله ، وإن لم أكن كما قلت - فغفر الله تعالى لك ، فقام إليه الرجل معتذراً ، وقبل رأسه ، وقال: جعلت فداك . لست كما قلت . فاستغفر لى، فأعاد زين العابدين ما سبق أن قاله لنفسه : غفر الله لك : إجابة لطلبه ، فأثنى الرجل عليه

---

(1) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى (ض)

معترفاً له بأنه من بيت النبوة والرسالة وهكذا كسبت نفس زين العابدين ثمرة الصبر النافعة فى الدارين .

والله تعالى يقول : (كل نفس بما كسبت رهينة) .

وأنتم تعلمون أن النفس راغبة فى متع الحياة ، ميالة إلى الرياضة والجاه : لا يقفها عند حد الاعتدال إلا رغبة فى الثواب ، أو رهبة من العقاب .

ويملؤها بتلك الرغبة ، وهذه الرهبة — اتباع العقل السليم ، والاهتداء بهداية الرسل الكرام ، والكتب السماوية ، التى جمع الله كل هداها فى القرآن الكريم ، الذى قال فيه منزله العليم (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . وقال : جل شأنه : (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) .

وأما النفس الأمارة بالسوء ، التى لا تبالى بالثواب ولا بالعقاب — فقد تجاوزت حدود الله ، وخالفت هداه ، وحينئذ — تضل وتشقى (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) ، (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) .

فالإنسان فى دنياه بين عمل صالح تطيب به الحياة ، وبين عمل سيء يتعبه ويهلكه فى عقباه : زينه له الشيطان حتى اشتهاه .

والقوة التى بها يفوز ، ويسلم من تزيين الشيطان ووسوسته — هو صبره على الاستمساك بهدى الله ، والعمل الصالح ، واجتناب العمل السيء ، فمن صبر ظفر :

وقل من جد فى شيء يحاوله فاستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وكما ابتلى الله الإنسان . وامتحنه بالطاعة والعمل الصالح ، ووعده على ذلك خيراً ، وبالمعصية والعمل السيء وأوعده على ذلك شراً — ابتلاه . وامتحنه بعوارض تحب : كالصحة . والمال . وبعوارض تكره : كالفقر والمرض فمن أحسن إلى نفسه وصبر على فعل ما يرضى الله ، وشكر لله عند العوارض المحبوبة ، وصبر على المكروهات — نجح فى امتحان الحياة، وكان على الدوام معه الله (والله يحب الصابرين) .

فمن كان معه الله — تيسرت له القوة على كل شيء ، ولن تكون تلك القوة إلا من الله : فقد يعمل الإنسان جاهداً : لتحصيل الخير ، فلا يصل إليه ، وللبعد عن الشر ، والنجاة منه ، فيقع فيه ، ويلحقه اليأس ، والهم ، ويوسوس إليه الشيطان بما يحير ويغم ، وما ذلك إلا بسبب اعتماده على نفسه . وقوته . ونسيان التوكل على الله ، الذى لا يقع فى ملكه إلا ما يريد : (إن الله يفعل ما يريد) .

ولذلك — بعد بذل العبد ما فى وسعه : لتحصيل الخير ، والبعد عن الشر : فى كل ما يقول ويفعل — يجب أن يصبر على ما بذل ، ويعتمد على الله : عز وجل وهو وحده الذى يبلغ الأمل (إنه عليم قدير) .

فيا عبد الله :

بعد أخذك بالأسباب : لنيل المرام — توكل على الله ، واستعن بالصبر والصلاة : قال تعالى : (فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) وقال : جل علاه : (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) .

وحسبنا : لإقناع النفس ، وتصديقها كل الصدق : بالتوكل على الله —

وتوكلها عليه تعالى — قوله : صلى الله عليه وسلم : « (١) لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله — لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً — جياعاً — وتروح بطاناً » .

أما الصبر — فإن التجارب — دلت على أنه مفتاح الفرج ، وقد أمرنا الله تعالى به ، فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم : كما أمر الأنبياء والمرسلين : قال تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ، وقد قال ﷺ : « (٢) واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً » .

ألا وإن مرارة الصبر حلاوة عند من آمن بعظيم أجره (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

ولا عجب أن يكون أجر الصبر كذلك ، وهو — كما قال القائل :

ما يحسم العقل والدنيا تساس به ما يحسم الصبر فى الأحداث والنوب

وقال على بن الحسين : زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين يا بنى آدم فيقولون إلى الجنة ، فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا : نعم . قالوا ومن أنتم ؟ قالوا نحن الصابرون قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله : قالوا : أنتم كما قلتم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين » .

---

(١) رواه الترمذى . والحاكم ، وصححاه — عن عمر : رضى الله عنه .

(٢) جزء من حديث رواه عبد بن حميد عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

وانتبه - أيها العاقل - :

فمن أنواع الصبر - صبرك على طاعة الله ، ودوام عبادته التى خلقت من أجلها . والله غنى عنها ، وأنت فى حاجة إليها : وهى عنوان خضوعك وتذللك له وهو العزيز الذى بها يعزك ، ويهذبك ، فلا تبطرك النعمة ، ولا تجزعك النقمة ، وقد قال جل شأنه : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) ، ومن أنواع الصبر - صبرك عن المعاصى فلا تقربها ، مهما زينها لك الشيطان ، فهى - مهما عظمت لذتها - مقرونة بغضب الديان .

وقال عمر بن الخطاب : رضى الله عنـــه فى رسالته ، إلى أبى موسى الأشعرى : رضى الله عنه : (عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران : أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن . وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى ، وقال ﷺ : « (١) إن الصبر على المكاره - يكتب به للعبد ثلثمائة درجة ، وإن الصبر على الطاعة يكتب له ستمائة درجة ، وإن الصبر على المعاصى يكتب له به تسعمائة درجة .

فمن أنواع الصبر - صبرك يا عبد الله على المكاره : ذاكراً قوله تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

وقال تعالى : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا عن على رضى الله عنه .

وقال عمر : رضى الله عنه : « نعم العدلان . ونعمت العلاوة يعنى بالعدلين أى المثلين . الصلوات والرحمة ، ـ فصلوات الله أى رحماته ، والمراد بالرحمة بعـــدها ـ : ثناؤه تعالى فمع صلوات الله ورحماته على الصابرين : بالعطايا : يمنحونها : فعلا ـ رحمته تعالى : بالثناء عليهم : قولا .

ويعنى عمر : رضى الله عنه بالعلاوة ـ اهتداءهم إلى ما فيه خيرهم، واعلم أنه ليس من الصبر أن تقف مكتوف اليدين أمام عدوك ، الذى يقاتلك فى الدين أو الوطن ، حتى ينال منك : فرداً كان أو جماعة ، بل من الصبر أن تصبر على إعداد ما استطعت له : من قوة : لتدفع عن دينك ونفسك وعرضك ومالك وولدك وأهلك ، وما وجب عليك أن تحميه ، والله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

فكالصبر ، ومصابرة الأعداء ، وعدم الاستسلام لهم . والضعف أمامهم ، وكتقوى الله ـ يثمر الفلاح ـ الرباط فى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ـ يا عبد الله ـ ما دام ذلك لا يعطل جهادك فى سبيل العيش ومطالب الحياة .

وكذلك الرباط فى الحدود والإقامة فيها : ـ لحفظها ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى بلاد المسلمين ، وقد قال : صلى الله عليه وسلم : « (١) رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » ، وقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى : رضى الله عنه .

« (١) كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر » .

ومر سلمان الفارسى بشرحبيل بن السمط ، وهو فى مرابطة له ، وقد شق عليه وعلى أصحابه ، فقال : ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول الله : صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى : قال : سمعت رسول الله : صلى الله عليه وسلم يقول : « (٢) رباط يوم فى سبيل الله أفضل ، أو قال : خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات فيه — وقى فتنة القبر ، ونمى له له عمله إلى يوم القيامة » .

فلا يشق على مرابط مرابطته فى سبيل الله ، فإنه - مهما عاش - يفارق الحياة ، فما أسعده أن يفارقها بفضل المرابطة وأجرها العظيم .

وليصبر من قام بحق ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر على الأذى ، حتى يفوز بما فاز أولو العزم ، والاستعانة بالله والرجوع إلى الله تعالى . والله تعالى يقول : (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)

---

(١) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود والترمذى عن فضالة بن عبيد : رضى الله عنه .

(٢) رواه الترمذى ، فما أسعد المقيمين الآن بالقنال لصيانة البلاد وحمايتها من الأعداء : إسرائيل الباغية ، وأعدائها الطغاة واليوم الذى كتب فيه هذا : الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧ هـ ، الموافق التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٦٧ م .

ولا يضعف صبر مؤمن أمام عدو ، وليزدد صبراً على إعداد العدة ، ومقاومة العدو ، وليعلم المؤمن أن الكرب إذا اشتد هان ، وأن العاقبة لأولى الإيمان : يمنحهم الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة (وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً .

وبالصلاة تبرد حرارة المصيبة ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حزنه أمر صلى ، وبلغ ابن عباس : رضى الله عنه وفاة ابنة له وهو مسافر فاسترجع وقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وقال عورة سترها الله تعالى . ومؤنة كفاها الله . وأجر قد ساقه الله ثم نزل - عن دابته - فصلى ركعتين ، وقال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى : قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

والمحافظة على الصلاة والمداومة عليها - تمكن الصبر في النفس ، وتقيمه ثابت الدعائم : لا يتطرق إليه ضعف - مهما اشتدت الأزمات - كما تبعث النفس على الشكر عند وجوه الخيرات : قال تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) .

فيأيها المسلمون :

اتقوه تعالى ، وتوكلوا عليه لنيل ما تحبون ويرضى الله تعالى واسألوه أن يمنحكم حسن اليقين به تعالى وبفضله ونعيمه وقدرته وعلمه وسائر كالاته : لتصبروا وتشكروا له على الدوام - فتغنموا ، واسعوا لذلك بتدبر قرآنه .

واصبروا دائماً على الطاعة : وعن المعصية ، وعلى الشدائد والملمات .

واعلموا أنكم - بذلك - ممتحنون ، وهو سبحانه يجزى الناجحين فى هذا الامتحان الصابرين نصراً مبيناً ، وجنة : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واسألوا الله النصر وانتظروه، وقولوا قول الصابرين كل آت قريب ، واسمعوا قول الله القوى العزيز علام الغيوب (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء - أى الفقر والأمراض والمصائب - وزلزلوا - أى خوفوا من الأعداء ، وامتحنوا امتحاناً عظيما - حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) .

قال صلى الله عليه وسلم : « عجب ربك من قنوط عباده . وقرب غيثه ، فينظر إليهم قنطين ، فيظل يضحك : أن يعلم فرجهم قريب » : رواه أبو رزين .

وقال صلى الله عليه وسلم : « احمد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير » : رواه الترمذى ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

وقال صلى الله عليه وسلم يدعو الله « أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا » : رواه الترمذى والنسائى والحاكم ، عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله من فضله . فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج) رواه الترمذى عن ابن مسعود : رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر(١) الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء – أى نور قوى تنكشف به الكربات وتبدد به الظلمات ، والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها » رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى : رضى الله عنه .

(١) نصف .

١ - فضل القرآن الكريم والحث على تلاوته

والعمل به وحفظه

الحمد لله الذى من علينا بالقرآن ، وقال : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وأشهد أن لا إله إلا الله (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أرسله بالقرآن هادياً (ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، الذى كان خلقه القرآن ، وعلى آله وصحبه ، سادة بنى الإنسان .

أما بعد : فيا عباد الله :

القرآن : كلام الله الكريم ، الذى أنزله على حبيبه محمد ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، وأول ما نزل من آياته : (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) ، وآخر ما نزل قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

ولا يستطيع أحد أن يصف القرآن بأحسن مما وصفه به رب القرآن قال تعالى : (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) .

وذلك الكلام الذى هو فوق وصف كل أحد - دون فوائده - سائر

الفوائد ويكسب فوائده من عمل به ، وقد اعتبر بعبره ، ووعى تعاليمه ، ولذلك أمر سبحانه بالاستماع ، والإنصات عند تلاوة كلامه : لأن الاستماع وحده ـ لا يؤدى إلى المقصود ، ولا يأتى بمطلوب الفوائد : فقد يستمع الإنسان بأذنه ، وقلبه فى غفلة عما يسمع ، ولسانه يخوض فى حديث غيره : ينهش فى الأعراض ويأكل بالغيبة لحوم الناس أو ينصرف بذهنه إلى نغمات القارىء ، فيكون مستمعاً لها لا للقرآن ، ويؤدى ذلك إلى ضياع ما يجب من الاحترام : فى مجلس يتلى فيه آيات الله ، وترفع الأصوات : استحساناً للنغمات ، وينصرف الناس عن العظات البالغات إلى التمييز بين الحسن وبين غيره من الأصوات .

وماهكذا يكون المؤمنون : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) .

وقد وصف الله العلماء الذين تأثروا بمواعظ القرآن كما ازدادوا علماً ويقيناً به ، فقال : (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) .

وقد وبخ العزيز الجبار جل علاه الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن : لقساوة قلبه ، وقلة تدبره بهذا القول الكريم:قال: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

أيها المسلمون :

يسر الله القرآن للاعتبار ، فأنزله بلسان عربى مبين ، لا بلسان أعجمى ،

ولا بلغة غير لغتنا : يصعب علينا فهمها ، وقال تعالى: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

ومن وصاياه ﷺ لأبي ذر : « (١)عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء » .

ويسعد القارىء السامع بذلك النور ، ويفوز بهذا الذخر : بالتفكر والتدبر لآيات القرآن : ليعمل ، فتشرق روحه ، وتصفو نفسه وقد قال جل شأنه : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) .

وما أنزل القرآن إلا للعلم والعمل بما جاء به ، ومعرفة نعم الله ، وفضله على خلقه ، وتذكر الأمم السابقة ، وما أصابها بسبب عصيانها وطغيانها والتفكر فيما خلق الله في السموات والأرض ، وما أودع من أسرار في الكائنات : إلى غير ذلك : من معلومات ، وعبر وعظات : حواها خير الكتب الذي قال فيه محكم آياته سبحانه : (مافرطنا في الكتاب من شيء) .

عباد الله :

أنزل الله القرآن : لنحفظه في صدورنا وقلوبنا ، ونعمل به بجوارحنا وأعضائنا : لا لنحمله فقط في جيوبنا : ليحفظنا من أعدائنا ، وماذا يفيد حمل القرآن - من كان مخالفاً لما فيه ، وعاصياً لربه الديان ، القائل في أمثاله: ممن علموا التوراة ، وكلفوا العمل بها قبل نسخها بالقرآن ، فلم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فيها : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) .

---

(١) رواه ابن حبان .

ويا عبد الله :

أما تستحي من الله ؟ يأتيك كتاب من مخلوق مثلك ، فتقرؤه بإمعان وتدبر لما فيه ، وقد تعيده المرة تلو المرة : لتقف على مراميه ، وأمامك كتاب الله : في المنزل وفي الطريق ، وفي المساجد وفي الإذاعات ، وقد فصل تعالى لك فيه كل ما تحتاج إليه : من خيري الدنيا والآخرة : لتسمعه ، وتنصت إليه ، فتعرض عنه ، فهل الله أهون عليك من بني جنسك ؟

ما كان سلفك كذلك : وقد أنكر الله على المشركين في إعراضهم عن القرآن وتلهيهم عنه فقال : (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) : أي معرضون غافلون : متلهون عنه بالغناء .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، واعلموا أن رسولكم سيدنا محمداً رحمة العالمين بالقرآن الكريم ، وأنكم - لا تزالون برحمته تعالى - مغمورين ما دمتم بكتاب الله وسنة رسوله مستمسكين ، وداوموا على تلاوة القرآن متدبرين .

قال رسول الله ﷺ : قال الله تبارك وتعالى : « من شغله القرآن عن ذكري أو مسألتي - أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) رواه الترمذي . وقال ﷺ : (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، فقيل يا رسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن . وذكر الموت) رواه البيهقي في شعب الإيمان : من ابن عمر رضي الله عنهما .

٢ - فضل القرآن الكريم والحث على تلاوته

والعمل به وحفظه

الحمد لله : انزل القرآن : إحياء للقلوب - بالروح التى تفوق الشمس ضياء ، والبدر نوراً ، وقال : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يسر القرآن للذكر والاعتبار ، فكان البدوى راعى الغنم إذا سمع القرآن - خر له ساجداً : لما فيه من حلاوة ، ولما عليه من طلاوة ، ويغدو بمداومة تلاوته : متدبراً - عالماً عارفاً بالله . القائل : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير هاد إلى خير دين بخير كتاب ، المنزل عليه قول ربه العزيز الوهاب ، الغفور التواب (يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، حملة القرآن الثقاة ، والأئمة الدعاة إليه الهداة .

أما بعد : فيا عباد الله

صعصعة عم الفرزدق ، الشاعر العربى المشهور جاء رسول ﷺ ليتعلم القرآن الكريم ، وقد قال ﷺ : «(١) خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ،

---

(١) رواه البخارى من عثمان رضى الله عنه .

فأقرأه الرسول سورة (إذا زلزلت الأرض زلزالها) حتى فرغ منها ، فانتهى إلى قوله عز وجل : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، فقال صعصعة : يكفي هذا : حسبي لا أبالي ألا أسمع غيرها : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً : ثم انصرف فقال ﷺ : « (١) انصرف الرجل وهو فقيه ، « أفلح الرويجل . أفلح الرويجل » .

لقد استمع صعصعة منصتاً متدبراً القرآن من رسول الله ﷺ ، الذي قال : وهو الصادق المصدوق : (٢) والله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية) فقال رضى الله عنه ما قال : دالا على اتعاظه بما سمع ، وأنه يهديه في حياته إلى حسن سيره وسلوكه ، وبذلك شهد له الرسول ﷺ بالفقه والفلاح .

فيأيها المسلم :

القرآن الكريم كلام الله العزيز الحكيم ، الذي أنزله على قلب رسولنا مصطفاه ، فعلمنا كيف نعبده تبارك وتعالى ، ونحمده ونشكر له ، وكيف نعامله متقين ، وكيف نتعامل فيما بيننا ، ونعامل غيرنا بالحسنى ، وكيف نتزاور ونتراحم ونتعاون ونتجاور محسنين ، وكيف نحكم عادلين ، وقص علينا من قصص السابقين ، ماضيا به متعظين ، معتبرين .. بل القرآن الكريم هداية الحياة كلها بحياته ، ألم يقل : «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) : (وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) : إلى غير ذلك من توجيهات وتعاليم قويمة حكيمة (إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي في الكبير وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عمر (ض) .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً) .

وأصول القرآن الاجتماعية وتوجيهاته العمرانية ، وأسراره التي ينكشف منها بقدر الأنوار القلبية : إلى غير ذلك من مزايا وخصائص لا فتات لقوله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) : ومن هنا - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله .

ولا عجب أن يحوى القرآن كل شيء (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) .

وقد حفظه الله تعالى من كيد الكافرين إلى يوم الدين (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

لا . بل سيبقى القرآن في العالم الآخر يتلوه أهله فيه كما يتلونه الآن في الدنيا : قال صلى الله عليه وسلم «(١)يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق(٢) ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها » .

وقد اختص الله ذلك الكتاب العزيز بالحفظ والخلود ، وحصنه من التحريف ، إذ جعله معجزة خاتم النبيين رسول الإسلام ديننا الحنيف ، وفي مدح آيات القرآن ، وأثرها في النجاة من المعاصي ، وفي الاستقامة باتباعها ، وفي العدل : للحكم بها - قال البوصيري في بردته المشهورة بالبردة :

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) أي في درج الجنة بقدر ما حفظته من آي القرآن .

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم
لها معان كموج البحر فى مدد ... وفى جوهره فى الحسن والقيم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به ... من العصاة وقد جاءوه كالحمم (١)
وكالصراط وكالميزان معدلة ... فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم

ومن ذا الذى يحرم نفسه بعد من الفوز بآثار القرآن وكسب فوائده ، وهو عاقل رشيد ؟

فيأيها العاقل الرشيد :

لتفوز بتلك الآثار ، وتكسب هذه الفوائد ـ اقرأ القرآن ما استطعت بترتيل وتدبر ، وخشوع ، وأنت متوضىء إذ كنت تمس المصحف ، وتذكر تقصيرك فى العمل به وأنت تقرأ ، وازدجر بآيات التهديد والوعيد وتشبه بأرباب القلوب الصافية الذين كانوا يبكون عندها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «(٢) اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » ، واعزم إذا مررت بآية رحمة على أن تكون من أهلها : بالعمل لها وكن كرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءتك : «(٣) كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ . ولا بآية تنزيه إلا سبح » ، ولا تراء ـ يا عبدالله ـ بقراءتك ـ أحداً ، واخش الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : «(٤) تعوذوا بالله من جب الحزن : قيل : وما جب الحزن ؟ قال : واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله للقراء المرائين) .

---

(١) كالفحم فى السواد .
(٢) رواه ابن ماجه عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .
(٣) رواه مسلم عن حذيفة رضى الله عنه .
(٤) رواه البيهقى فى البعث عن على رضى الله عنه .

واعلم أن تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت وفق فن تجويد القرآن سنة . قال ﷺ «(١) زينوا القرآن بأصواتكم» .

ولتفوز بآثار القرآن : وتكسب فوائده استمع بإنصات لآيات القرآن ولا تشغل عنها بتفكير في سواها ، فالله تعالى يقول : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) .

أيها المسلمون :

تعظيم القرآن مطلوب من القارىء والسامع ، فلا يليق أن يقرأ القارىء والسامع متشاغل عن قراءته ، ولا يليق أن يسمع السامع والقارىء لا يحسن القراءة ، ويخل بأحكام تجويد القرآن ، مهما كان حسن الصوت ، وما أحسن القراءة من ذى الصوت الحسن ، المحافظ على حسن الأداء وفق التجويد شرعاً : فهى مؤثرة : روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضى الله عنها ، فأبطأت عليه ، فقال : ما حبسك ؟ قالت : يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ، فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلا ، ثم رجع ، فقال : هذا سالم مولى أبى حذيفة : الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله(٢)) .

القراءة من الأتقياء ، الذين يخافون الله - أشد تأثيراً : قال ﷺ : «(٣) لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى» .

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن البراء ابن عازب (ض) .

(٢) رواه ابن ماجه ورجال إسناده ثقات .

(٣) رواه الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقى فى كتاب فضائل القرآن .

فيأيها المسلمون :

اتقوا الله واحفظوا من القرآن ما استطعتم ونزهوا مجالسه عن اللغو والضحك ومايشغل عن استماعه والإنصات له ، واتلوه ما استطعتم مؤمنين به ، متدبرين لآياته ، متأدبين بآدابه ، موقنين بأجركم ، فقد قال رسولنا ﷺ : «(١)الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به ـ أى مجيد للفظه على ما ينبغى: بحيث لايتشابه ، ولايقف فى قراءته ـ مع السفرة الكرام البررة ـ أى مع الملائكة الرسل إلى الرسل : صلوات الله وسلامه عليهم ، الموصوفين بالكرم والبر ـ والذى يقرأ القرآن ، ويتتعتع فيه ـ أى يتردد عليه فى قراءته وهو عليه شاق له أجران » ، واعملوا بالقرآن حتى تتأثروا بتلاوته وتؤثروا بتلاوته ، ويحسن حالكم ومالكم (والله ذو فضل عظيم) .

قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » . رواه مسلم عن أبى أمامة رضى الله عنه .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن ـ أى لايحفظ شيئاً منه ـ كالبيت الخرب » رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة : ريحها طيب . وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة : ريحها طيب . وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

(فائدة) الأترج : نوع من الفاكهة : مركب من قشر ولحم وحمض وبذر : لكل من هذه الأشياء - مزايا خاصة : بسطت في كتب المفردات الطبية ، وهو حسن المنظر ، لين الملمس ، لذيذ الأكل يطيب نكهة الفم ، وتصلح رائحته فساد الهواء ، ويذكر أن بعض الأكاسرة - غضب على قوم من الأطباء ، فأمر بحبسهم ، وخيرهم أدماً لا يزيد لهم عليه ، فاختاروا الأترج ، فقيل لهم لم اخترتموه على غيره ؟ فقالوا : لأنه في العاجل ريحان، ومنظره مفرح ، وقشره طيب الرائحة ، ولحمه فاكهة ، وحمضه أدم وحبه ترياق ، وفيه دهن ..

ويقال : إن رائحة الريحان - تقتل الجراثيم الجوية . ويضرب المثل بمرارة الحنظل .

وفي هذا الحديث الشريف - مثل صلى الله عليه وسلم لأربعة أصناف من الناس لهم صلة بالقرآن : باعتباره كتاباً ينتمون إليه ، ويؤمنون به ولو إيماناً ظاهراً : ليسعى المسلم العاقل ليكون من الصنف الأفضل فيفوز فوزاً عظيماً .

من توجيهات الإسلام إلى المعانى السامية

الحمد لله : جعل الإسلام غذاء للروح : لتبق ، وضياء لها لتسير على هدى ، وقال : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : نفحَ الدنيا بدين الإسلام : رحمة منه وهو الرحمن الرحيم .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : التطبيق الحى لما حواه القرآن من معان وأخلاق ، والمظهر العملى لما تضمنه من توجيهات ووصيات .

ولا عجب أن يكون مبلغ الدين أول العاملين به ، وقد أمره سبحانه فقال : (قل إنى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه المخلصين ، وتلاميذه الصالحين ، وخلفائه الراشدين الذين شرحوا بأعمالهم وأحوالهم - ما دعوا إليه : من تعاليم الدين : بأقوالهم « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

أما بعد :

فعبد الواحد بن يزيد من سلفنا الصالح : رأى رضى الله عنه رجلا أعمى مقطوع اليدين والرجلين ، والدمامل ملء بدنه ، والزنابير تنهشه ، وهو - مع ذلك - يحمد الله تعالى فتعجب منه ، فقال الرجل : أكل النعم ما ترانى

فقدتها ألم يجعل لى لساناً يذكره . وقلباً يعرفه ويشكره ، ثم ذكر النعمة التى ملكت عليه أمره ، ودونها عنده كل نعمة ، فقال .

حمدت الله ربى إذ هـــدانى   إلى الإســـلام والشرع الحنيف
يمجده لسانى كل وقت   ويعرفه فـــؤادى باللطيف

وحقاً : كان هذا الأعمى بالحق بصيراً .

فبتعاليم الإسلام وشريعته(١) - حياة المرء الطيبة فى دنياه وآخرته : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ومن تلك التعاليم ، وهذه الشريعة - التوجيهات إلى المعانى السامية والمقاصد الحميدة ، المسعدة المنجية ، فاسمعوا وعوا . وانتفعوا : وجه الله المسلمين فى صلاتهم إلى بيت المقدس ، ثم ردهم إلى البيت الحرام - الكعبة المشرفة ، فطعن فى استقبالها اليهود : زاعمين أن البر والخير ، وطاعة الله - هو التوجيه إلى جهة المغرب ، حيث بيت المقدس ، فرد الله عليهم بقوله : « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صرط مستقيم » ووجه تعالى إلى أن البر والخير وطاعته : جل شأنه - هو الإستمساك بما أمر به : من عقيدة صحيحة ، هى الإيمان(٢) بالله واليوم الآخر والملائكة

---

(١) الشريعة فى الأصل : ما يرده الناس من المياه والأنهار - وجمعها شرائع ، واستعيرت للدين ، لأن العباد بأخذهم به - تحيا نفوسهم كما يحيا العطاش بالماء .

(٢) من علامات الإيمان ما تضمنه قوله ﷺ : أن سرتك حسنتك ، وساءتك سيئتك : رواه الإمام أحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، والطبرانى فى معجمه الكبير ، والحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى شعب الإيمان والضياء : عن أبى أمامة (ص) .

والقرآن والنبيين وخلق فاضل : كالوفاء بالعهد والصبر ، وعمل صالح مثمر مفيد : كبذل المال لمستحقيه مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن هذا الاتجاه إلى الكعبة : تنويها بالعرب : ليحقق المسلمون باجتماعهم عليها وحدة اتجاههم الحسىّ : كما يحققون : باجتماعهم على توحيده ، وامتثال شرعه وحدة اتجاههم القلبى والروحى : قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن[1] السبيل والسائلين وفى[2] الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء[3] والضراء[4] وحين البأس[5] أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فالتدين الصادق فى امتثال أمره تعالى ، وذلك هو ما يقرب إليه تعالى لا سواه ، وهو تقواه . بين سبحانه ذلك حين بين أن إتيان أهل الجاهلية البيوت من ظهورها ، دون أبوابها - إذا أحرموا بالحج أو العمرة - ليس ببر وخير وطاعة له تعالى ، فقال (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها .

ومن توجيهات الإسلام - اجتناب ما يؤدى إلى إثم ، وإن لم يكن فى

---

(١) هو المسافر المنقطع عن أهله ووطنه .

(٢) فى تخليصها من الاسترقاق أو الأسر .

(٣) ما يصيب الناس فى الأموال : كالفقر .

(٤) ما يصيب الناس فى الأنفس : كالمرض .

(٥) وقت القتال فى سبيل الله .

ذاته إثماً : كسب الصنم أو الصليب ونحوهما مما يحمل على سب ما يجب أن نعظمه فى ديننا : قال تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً(١) بغير علم) .

ومن توجيهات الإسلام ـ عدم التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم : ومن ذلك لبس المرأة المسلمة : الثوب يكشف عورتها ، وكل بدنها عورة إلا وجهها وكفيها بشرط عدم التبرج : قال: ﷺ(٢) « من تشبه بقوم فهو منهم » ومن ذلك تحيتهم : (كسعيدة : وبون جور) .

فليتنبه المسلم لذلك ولا يترك تحية الإسلام : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) وكان المؤمنون إذا حدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون له : « راعنا (٣) : يريدون : « تأن بنا حتى نفهم كلامك . ونحفظه ، وكانت هذه اللفظة بلغة اليهود شيئاً(٤) قبيحاً ، فلما سمعوها من المسلمين — خاطبوه صلى الله عليه وسلم بها : قاصدين سبه ، فنهى الله العليم الخبير المؤمنين عن مخاطبته صلى الله عليه وسلم بها : قطعاً لألسنة اليهود ، حتى لا يتخذوها ذريعة إلى سبه ﷺ وإيذائه ، وأمرهم أن يقولوا ما فى معناها : مما لا يمكن التذرع به إلى ذلك ، وهو : انظرنا أى انتظرنا وتأن بنا ، أو انظر إلينا قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا

---

(١) عدوانا وتجاوزا عن الحق إلى الباطل .

(٢) رواه أبو داود عن ابن عمر (ض) .

(٣) من المراعاة وهى المبالغة فى الرعى وهو حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه .

(٤) : بمعنى يا أحمق : من الرعونة وهى الحماقة والخفة .

لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) ومن توجيهات الإسلام - أن عبادة الله تعالى تشمل الإصلاح بين المتخاصمين ، ونحوه : من كل عمل صالح نعمله : خضوعا لله أو تقربا إليه : وكالتفكر فيما خلق قال ﷺ : « (١) ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى يا رسول الله : قال : إصلاح ذات البين : فإن فساد ذات البين هي الحالقة) ويروى(٢) عن النبي ﷺ أنه قال : « هي الحالقة لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » .

وقد مدح الله تعالى المؤمنين المتفكرين في خلقه : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض) ، وذم سبحانه من لا يعتبر بمخلوقاته ، الدالة على ذاته وصفاته قال : (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وقال عمر بن عبد العزيز (الكلام بذكر الله : عز وجل حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة) .

وكان المعروف المشهور في معنى القوى الشديد أنه القوى البدن لذا يغلب الناس بقوة عضله وهو الذى يدعى الصرعة فوجه الإسلام إلى أنه هو الذى يكظم غيظه ، ويحلم عند باعث الغضب ، وفي ذلك خير كثير ووقاية من كثير الشرور .

: قال ﷺ : « (٣) ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن أبي الدرداء ،
(٢) قال ذلك الترمذى (ص) .
(٣) رواه الإمام أحمد البخارى ومسلم عن أبي هريرة (ص) .

عند الغضب ، وتفسير الإسلام لبعض الألفاظ بغير المتعارف بين الناس ـ توجيه اكتساب الشرف : بالاتصاف بهـــا ، وذلك بتحقيق هذه المعانى الإسلامية فى النفس : ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « (١) المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » وقوله : « (٢) والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وقوله : عليه الصلاة والسلا : « (٣) المجاهد من جاهد نفسه فى الله » .

ومن توجيهات — الإسلام — النهى عن تسمية العنب الذى هو أصل الخمر كرما : حتى لا يكون فى نفس المسلم شعور بإكرام الخمر ، وتعظيمها ، ولو من بعد : طلباً للسلامة منها : بالبعد كل البعد عنها : كما نهى عن ذم الدهر والزمان : لما يقع فيه : من أحداث ووقائع مؤلمة ، فإن ذلك الذى يقع هو صنع الله الحكيم العليم ، الذى يحمد ولا يذم أبداً : قال صلى الله عليه وسلم : « (٤) لا تسموا العنب الكرم — : فإن الكرم الرجل المسلم » وقال : « (٥) لا تسموا العنب(٦) الكرم ولا تقولوا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر : أى المتصرف فيه ، المحدث حوادثه » .

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى . والنسائى . والحاكم . وابن حبان عن أبى هريرة (ض) . والطبرانى فى الكبير عن واثلة (ض) .

(٢) روى البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمرو (ض) أنه صلى الله عليه وسلم قال « المسلم من سلم المسلمون والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

(٣) رواه الترمذى وابن حبان عن فضالة بن عبيد (ض)

(٤) و (٥) رواهما البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة (ض)

(٦) فى رواية فإنما الكرم قلب المؤمن .

وبين الإسلام الإفلاس الحقيق : لنتوقاه ، فننجو من الشر ، ونسعد بالخير : قال موجهنا الرحيم ، رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضى الله عنهم : «(١) أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى : من يأتى يوم القيامة بصلاة ، وصيام ، وزكاة ، ويأتى : وقد شتم وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته ، قبل أن يقضى ماعليه ـ أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » .

ووجه الإسلام إلى حرية الرأى : للنفع لا للضر : قال تعالى : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ فإنه لا تكون مشاورة إلا مع حرية الرأى ، وقال صلى الله عليه وسلم : «(٢) لا تكونوا إمعة ـ والإمعة : من لا رأى له ـ تقولون : إن أحسن الناس ـ أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » .

قيل حرية فأرخوا عنان الـ	ـنفس ثم جنوا جنونا
حسبوها الخروج عن كل قيد	أو خروجاً حتى على المرسلينا

فمن الناس باسم هذه الحرية ـ يدعو إلى الإباحية ، وإشاعة الفحشاء .

وباسم هذه الحرية ـ تنشر الصور العارية المثيرة ، وتحتكر : لوقت ارتفاع السعر ـ الأطعمة والملابس والأدوية ، ونحوها : من الضروريات ،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة (ص)

(٢) رواه الترمذى عن حذيفة : رضى الله عنه .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « (١) المحتكر ملعون » .

وباسم هذه الحرية - يتحلل ذوو الهوى من القوانين الوضعية والسماوية - فلا يبالون بالبيع (٢) فرق التسعيرة ، ولا يرحمون عباد الله : ليرحمهم الله ، ويتكبر الموظف على الجمهور ، ويخون الله ، ولا يؤدى وظيفته ، ويعتقدون ما شاء لهم الهوى الملعون ، والله تعالى يقول : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

ألا وإن الحرية الحقة هى فى اتباع شرع الله ، حيث حق كل أحد - مكفول بهذا الشرع - له : من سواه .

فمن اتبع شرع الله - نال حق نفسه - وأدى ما عليه لغيره : من غير تجاوز للحدود ، فعاش حراً حميداً ، ولقى الله سعيداً .

أيها المسلمون :

باتجاهنا إلى ما وجهنا ديننا - يكون مجتمعنا المجتمع الآمن العزيز السعيد ، الذى لا تتعب فيه الأعصاب ، ولا تضج فيه النفوس من المكروب حتى تتمنى الموت ، وتغبط الموتى : كما قال ﷺ « (٣) لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتنى مكانه » .

فاتقوا الله ، واتجهوا إلى ما وجهنا الدين إليه ، واستمسكوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، واعملوا بسنة نبيكم ، وتوسلوا بذلك لنصركم : (إن

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عمر (ض) .
(٢) ما زاد من الثمن على التسعيرة : اغتصاب عند من يقول بها .
(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) .

تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، (وأطيعوا الله والرسول ، لعلكم ترحمون) .

قال رسول الله ﷺ : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله ، وسنة رسوله » رواه البخارى ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفية السمحة ، ومن خالف سنتى فليس منى » : رواه الخطيب فى التاريخ : عن جابر رضى الله عنه .

اختيار الصديق المؤمن التقى

الحمد لله : حث على مصاحبة الأخيار ، ونهى عن مصاحبة الأشرار ، وقال : فى كتابه المبين : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يحب المتحابين المتصادقين من أجله ، وقد قال : ((١)حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتحابون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتباذلون من أجلى ، وحقت محبتى للذين يتناصرون من أجلى) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا إلى اختيار الصديق ، ومحبة الصالح ، وقال : «(٢)المرء على دين خليله . فلينظر أحدكم من يخالل» ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الأخلاء المتقين ، والأصدقاء الصالحين : (أولئك هم خير البرية) .

أما بعد :

فقد تصادق ـ من سلفنا الصالح ـ مسروق . وخيثمة ، وتحابا فى الله ، وجمعتهما معاً تقوى الله ، فكان على كل منهما دين لآخر ، فسعى كل منهما وقضاه ، ولا يعلم أحدهما أن صاحبه أدى عنه دينه ، إلا حين يسر الله له ،

---

(١) روى الإمام أحمد والحاكم عن عمرو بن عبسة ، وعن عبادة بن الصامت : رضى الله عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله تعالى ـ يقول : حقت محبتى » الخ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى والحاكم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وذهب لتأديته ، فقال له دائنه : قد أدى عنك فلان : يعنى صاحبه ، وقال سيدنا على رضى الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

يا قوم :

الإنسان فى حياته ـ فى حاجة إلى الصديق فى الله ، لا لغرض من أغراض الدنيا : كالمال والجاه

إنه يكون معه مثل اليدين : تغسل إحداهما الأخرى . فكل منهما يجد أخاه عوناً له فى السراء والضراء : كما يأتنس به فى الجنة دار الهناء ، التى قال تعالى فى أهلها : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين) .

[illegible] ذلك العون . وهذا الائتناس ـ يقول أهل النار ، الذين لم يتصادقوا فى الله : (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) .

ولا شك أن أثر الصديق فى صديقه ـ عميق ، فإن كان ممن يتقى الله ، ويعين على أداء الواجب . وحفظ الحقوق ، ويحجز عن السوء والحرام ـ كان قرين خير ، وقاد صديقه إلى النجاح فى الدنيا ، والفلاح فى الأخرى ولذلك قال الرسول ﷺ : «(١) لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقى» .

ولا خلاف فى أن الطبع يسرق من الطبع ، وما أسرع أن يسير الإنسان فى الاتجاه ، الذى يهواه صاحبه ، ولذلك ـ قيل :

(١) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن حبان ، والحاكم عن أبى سعيد الخدرى : رضى الله عنه .

عن المرء لا تسأل وسـل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى
وصاحب خيار النـاس واهجر لئامهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وعدوى السيئات أشد سرياناً من عدوى الحسنات ، فكثيراً ما تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى من لم يصب بها ، ويندر أن يقع العكس ولذلك ـ قال الرسول ﷺ : «(١) إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك . وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » .

وإذا كان هذا ـ يا عبد الله ـ أثر الجليس ، الذى قد تجتمع به فى لقاء عابر ، فى ساعة يسيرة من ليل أو نهار ـ فكيف الأثر من صديق [illegible] الذى يخالطك ويجالسك فى كثير من الأوقات ، وفى مختلف الحالات .

ولذلك ـ قال سيدنا على رضى الله عنه :

فلا تصـحب أخا الجهل	وإيـاك وإيـاه
فكم من جاهـل أردى	حليماً حـين آخاه
يقـاس المرء بالمرء	إذا ما المرء ماشـاه
وللشىء من الشىء	مقـاييس وأشـباه
وللقلب على القلـب	دليل حين يلقـاه

وإن صداقة المؤمنين الأتقياء ـ عون فى الشدة والرخاء . والصديق

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

المؤمن التقي - هو المقصود في القول المأثور : « من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم - فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » .

والصديق المؤمن التقي - يقضي حاجة صديقه كذلك ، ولا يحمله هم مكافأتها : قضى ابن شهرمة حاجة عظيمة لصديق له ، فجاءه بهدية من أجلها ، فقال له ما هذا ؟ قال : لما أسديته إلى من معروف ، فقال ابن شهرمة : خذ مالك . عافاك الله . إذا سألت أخاك حاجة - لا تغضب الله - فلم يجهد نفسه في قضائها - فتوضأ للصلاة ، وكبر عليه أربع تكبيرات ، وعده في الموتى .

وكان الواحد من السلف الصالح - يتردد إلى دار أخيه : من حيث لا يعرفه أخوه ، ويقول : هل لكم حاجة ، وكان منهم من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة : يقوم بحاجتهم ، ويتردد كل يوم إليهم ، ويمونهم من ماله : ابتغاء وجه الله ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا شخصه ، بل كانوا يرون منه خيراً لم يروه من أبيهم ، وقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : «(١) خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه - وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

والصديق المؤمن التقي - يزور صديقه لله ، لا لغرض سواه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « (٢) من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه مناد من السماء : طبت ، وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا » .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذي والحاكم ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد استحب رسول الله : ﷺ تبادل الهدايا ، من غير تكليف بين الأصدقاء ، فقـــال : «(١) تهادوا تحابوا » ، وكان ﷺ - يقبل الهدية ، ويثيب عليها .

والصديق المؤمن التقى - لا يكشف سر صديقه للناس ، ويطلعه سرآ ، وبرفق - على العيوب ، التى يراها منه ، وقد قال رسول الله ﷺ : «(٢) المؤمن مرآة المؤمن » . أى يقفه على عيوب نفسه المستورة ، كما تقفه المرآة على عيوب صورته الظاهرة ، وقد قال الإمام الشافعى : رضى عنه : « من وعظ أخاه سرآ فقد نصحه وزانه . ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » .

وحسب المتصادقين فى الله ، مع طيب الحياة - أنهما يكونان فى ظل ظليل يوم لقاء الله : قال رسول الله ﷺ «(٣) إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » .

وقال تعالى فى القرآن الكريم : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) . فيجىء يوم القيامة المتصاحبان فى الهرطان على الهوى والعصيان خصمين ، وعدوين لدودين ، ويقول أحدهما للآخر ، متمنياً البعد عنه ، إذا ما وقفا بين يدى أحكم الحاكمين ، (يوم يقوم الناس لرب العالمين) : (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) .

ولكن لن ينال ذلك المتمنى ما تمناه ، ويلقى به مع صاحبه فى النار . والله تعالى يقول : (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) .

---

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) رواه أبو داود ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

فيأيها المسلمون :

وحدة الإنسان خـــير   من جليس السوء عنده
وجليس الخـــير خير   من جلوس المرء وحده

فاتقوا الله ، وصاحبوا الأخيار ، أحباء الله : بتقواه ، وابعدوا عن جلساء الخير ، واغشوا مجالسهم : مجالس الذكر والعلم والقرآن ، وتجنبوا الأشرار، الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله مصرين عليها، واحذروا اجتماعاتهم ، التي تروج فيها الغيبة ، والقمار ، والكذب ، وغير ذلك مما يغضب الله ، طلباً لسلامة أنفسكم ، إذ لم يستجيبوا لنصحكم ، وطوبى لمن استيقظ ، واتعظ ، واستمع لقول ربه (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) .

قال رسول الله ﷺ : « خير الأصحاب ـ صاحب إذا ذكرت الله ـ أعانك ، وإذا نسيت ـ ذكرك » رواه ابن أبي الدنيا ، في كتاب الإخوان ، عن الحسن البصري ، مرسلا ، أي سقط من سند الحديث الصحابي ، الذي رواه عن رسول الله ﷺ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – الحث على فضيلة الصبر

الحمد لله يجزل أجر الصابرين ، ويقول يوم الدين : (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، القائل : (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير الصابرين ، وقد أنزل عليه قوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه الصابرين .

أما بعد : فيا عباد الله :

عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى : أتاه فى يوم واحد – هذه الأنباء التى تسوء : مقتل ابنه : زياد ، وهزيمة جيشه ، ودخول عامل لابن الزبير فى فلسطين ، وقيام ثورة فى دمشق : عاصمة ملكه ، وسير ملك الروم إلى الشام ، فتصبر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «(١) ومن يتصبر يصبره الله » . وقال : «(٢) والصبر ضياء » .

فالصابر – يستطيع أن يفكر فيما يحقق المرام ، وينجى من الغم ولذلك – عبد الملك بن مروان : بالصبر – أسفر تفكيره : فى هذه الأمور

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : من حديث .

(٢) رواه مسلم من حديث أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى رضى الله عنه .

التى ألمت به مرة واحدة : عن السلامة من سوء عاقبتها ، فاحتسب ابنه ، وادخر ثواب الصبر على فقده : عند الله تعالى ، ووجه جيشاً إلى فلسطين ، واستردها ، وشغل ملك الروم بمال يؤديه إليه : عن السير إلى الشام ، وتوجه إلى ثورة دمشق ، فأطفأ نارها .

وهكذا بالصبر ـ جفف عبد الملك عن نفسه الألم ، ودفع عن نفسه الضر الذى ألم ، ولو لم يصبر ، وجزع ـ لأغضب الله ، وأضاع ملكه ، وأهلك نفسه ، وساءت عقباه ، وخسر دنياه وأخراه .

ولذلك ـ قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) ، وقال صلى الله عليه وسلم : «(١) وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » .

والإنسان فى الحياة ـ عرضة للأحداث والنوائب ، فهو فى حاجة للتذرع بالصبر : تحصناً من ألمها ، والاكتواء بنارها ، والسلامة من سوء مصيرها .

وحظ المؤمن من ذلك الخير عظيم ، فهو بملاقاته بالصبر ـ المصاب : فى نفسه وبدنه أو ماله . أو ولده ، ونحو ذلك مما يؤلم مصابه ـ لا يسخط الله ، ويؤجر على ما به ابتلاه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «(٢) ما من عبد أصيب بمصيبة فقال : كما أمره الله : (إنا لله وإنا إليه راجعون) : اللهم أوجرنى فى مصيبتى وأعطنى خيراً منها . إلا فعل الله به ذلك » .

فالمؤمن ـ ينظر إلى باطن المصاب ، وثمرته التى يثمرها الصبر وهى

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث عن أبى سعيد الخدرى (ض) .
(٢) رواه مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها .

عظيم الأجر ، فيرى أنه نعمة ورحمة . ولا ينظر إلى ظاهره ، وألمه الحس ، حتى لا يرى أنه نقمة : ونصب عينيه - قوله صلى الله عليه وسلم : «(١) من يرد الله به خيراً يصب منه» .

وهو بنظره إلى رضا الله عمن صبر على المصاب به - يتجرع مرارة الصبر ، مستسلماً مطمئناً من غير شكوى : راضياً بقضاء الله وقدره ، معتقداً حكمة الله فيما فعل مستيقناً أن الخير فيما قضى . وقال صلى الله عليه وسلم : «(٢) أعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» .

وإن المؤمن ليرى الشدائد والمحن لنفسه مزكية : كحرارة الشمس والهواء للشجر منمية ، أو كالنار للذهب مصفية - ونصب عينيه قوله صلى الله عليه وسلم : «(٣) ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» . لذلك يصبر المؤمن على البلايا تصيبه كالرياح الهوج وكالشمس المحرقة : يظل معها ثابت الإيمان : ولا يقول إلا ما يرضى ربه المقدر الديان .

فالمؤمن لا يجزع عند النوازل - مهما اشتدت . حتى يلقى ربه راضياً مرضياً ، وما أروع صورة فضيلة الصبر الجميل : في إطار هذا الخيال :

بنى الله للأحباب بيتاً سماؤه
همـوم وأحزان وحيطانه الضر

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (ض) .
(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس (ض)
(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة (ض) .

وأسكنهم فيه وأغلق بابه
وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

وكيف يجزع ، فيقول أو يفعل ما يسخط الله : من نحو لطم الخد ، وقول : يا سيمى ـ مؤمن متيقن بأن ذلك الذى أصابه قدر الله ، وأن فى الصبر عليه رضاه جل علاه ، والخير كل الخير فى رضاه تعالى .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يدعو ربه : «(١) أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا » .

إن المؤمن كذلك يحرص على ثواب الصبر . فحين يصدم بالمصيبة ـ يلقاها صابراً ، ولا يكون كامرأة : مر عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى على صبى لها عند قبر فقال : اتقى الله واصبرى ، فقالت : إليك عنى ، فإنك لم تصب بمصيبتى . ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبى ﷺ . فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت : لم أعرفك فقال : «(٢) إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر فى القرآن على ثلاث مقامات ـ أى أحوال ـ : صبر على أداء الفرائض وله ثلثمائة درجة . وصبر على محارم الله تعالى : وله ستمائة درجة . وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى : وله تسعمائة درجة .

فالمؤمن الذى يصبر حين يفاجأ بموت عزيز أو ضياع مال أو بمرض ونحو ذلك من أنواع البلايا له درجات عند الله تعالى عاليات . ويليه المؤمن

---

(١) رواه الترمذى والنسائى والحاكم عن ابن عمر (ض) .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس (ض) .

الصابر على محارم الله تعالى الذى لا يعصى الله ولا يراه حيث نهاه ، ثم المؤمن الصابر على أداء الفرائض والطاعات كذلك من ذوى الدرجات عند الله تعالى (والله ذو فضل عظيم) .

فالحاجة إذاً ـ يا قوم ـ إلى الصبر ـ عامة : فى جميع الأحوال ، ولا بد عنه فى كل الأعمال . فهو الأساس الذى تقوم عليه الناحية العملية من الدين ، وتتحقق به طاعة الكبير المتعال ، ويكون به إتقان العمل ، وإحسانه .

ومن هنا ـ كان الصبر عنوان كل فضيلة وأصل الفضائل ، وجماع خصال الإيمان . الذى به السلامة والسعادة فى الدارين .

فالصبر على أداء ما فرض الله وما يرضيه ـ طاعة ، وفى الحروب : لحماية الحق والوطن والكرامة ـ شجاعة ، وعن شهوة البطن والفرج ـ عفة وقناعة ، وعن سائر المحرمات ـ شرف ، والصبر بكظم الغيظ عند الغضب حلم ، وبالصفح عند المقدرة عن الانتقام — عفو ، وعلى البذل — جود وسماحة وكرم .

ولذلك — سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فقال : « (١)هو الصبر » .

فمن تذرع بالصبر وتجمل به فى كل عمل وحال ابتغاء مرضاة الله كان مؤمناً .

وليمن المسلم بذلك ويكون صابراً صبراً جميلا ـ ذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعاً وحسبنا قوله تعالى : (والله يحب الصابرين) .

ولتيقن امرأة فتح الموصلى ذلك الحق المبين ـ لما عثرت فانقطع ظفرها

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن يزيد الرقاشى .

حتى سال الدم ، فضحكت . فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ قالت : حلاوة الثواب أنستنى مرارة المصاب .

أيها المسلمون : وأنتم على حسن الحال فى الدارين حريصون . اتقوا الله تعالى واسعوا لحسن حالكم فى دنياكم وآخرتكم بالصبر على أداء طاعة الله تعالى واجتناب معاصيه ، واصبروا على بلائه(١) سبحانه : راجين لرحمته فى دفعه ، والوقاية منه ، والنصر على عدوكم وعدوه : منتهين لندائه تعالى : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس (ض) .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة » رواه القضاعى فى مسند الشهاب عن ابن عمرو وابن عباس (ض) .

---

(١) بلاء الله سبحانه للعبد يكون عقاباً له عجل له فى الدنيا ، وقد يكون وسيلة لرفعة درجته ، ولا بأس أن يسأل العبد ربه الوقاية منه ، والتفضل عليه بالمغفرة ورفع الدرجة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن عظم الجزاء من عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى عن أنس (ض) .

٢ – الحث على فضيلة الصبر

الحمد لله يحب الصابرين . ويوم القيامة - يقول تعالى : (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا وأنهم هم الفائزون) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، القائل : (وبشر الصابرين) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من صبر . وقد أنزل عليه قوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الصابرين الفائزين .

أما بعد :

فأبو يزيد البسطامى الصوفى الكبير - كان سائراً فى الطريق ، فصادف إلقاء ماء قذر من منزل : تلوثت به ثيابه ، فصبر ، وكان معه بعض تلاميذه فثاروا ، وبقوة صبره - هدأهم ، وقال : ما أصابنى - جاء بالمصادفة ، وإنى لعصيانى - أستحق النار المحرقة المهلكة ، فبدلنى الله بها ماء قذراً لا يحرق ولا يهلك .

وهكذا أهل الصبر : حكماء عقلاء : يتهمون أنفسهم ، ولا يتهمون القضاء (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) .

فيا عبد الله :

كن عن همومك معرضاً ... واصبر إذا نزل القضا
فلرب أمر نازل ... لك فى عواقبه الرضا

والنتيجة :

أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن فضل الأنصار ، أهل المدينة المنورة ، ويوجه النفوس إلى الاقتداء بهم ، فقال لهم : أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا وهم يفكرون فى سبب هذا السؤال : لأن إيمانهم ـ لا يخفى ، فقال عمر رضى الله عنه : نعم يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : فما علامة إيمانكم ؟ فقالوا ـ وقد ذهب تعجبهم من السؤال . نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مؤمنون ورب الكعبة » .

عباد الله :

كل إنسان فى الحياة فى حاجة إلى عدد يستعين بها على مطالبه والسلامة من الضرر .

والعدة الأولى : لذلك : هى الصبر .

ولذلك ـ قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « (١) وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « أفضل العدة ـ الصبر عند الشدة » ، وصدق من قال :

ما يحسم العقل والدنيا تساس به ما يحسم الصبر فى الأحداث والنوب

وليس الصبر الذى يجزل الله ثوابه : أن يكون الإنسان قوى الجسد : على الكد والتعب : لأن هذا يشاركه فيه الحيوان الأعجم ، ولا أن يستسلم

---

(١) جزء من حديث فى الصحيحين .

للمكروه والأذى والظلم : فذلك ضعف لا يليق بالمسلم ، والله تعالى يقول : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) .

وإنما الصبر العظيم الأجر : هو أن يكون الإنسان غالباً لنفسه : عند الشهوة ، فلا يعصى الله ، وأن يكون مالكا لنفسه عند الغضب ، فلا يؤذى أحداً من خلق الله ، وأن يكون حمولا للخطوب ، فلا يجزع عند المصيبة ـ مهما عظمت .

ويعين الإنسان على ذلك إيمانه بأن الله عليم بما فيه خير لعباده ، لطيف يحوط قضاءه باللطف ، حكيم لا يخطىء ، كريم لا يضن على خلقه : بدفع الخطوب . وعلى الإنسان أن يجتهد فى دفع البلايا : بالوسائل المشروعة الممكنة ، ومنها الدعاء ، فقد دعا أيوب ربه ـ أن يكشف عنه ضره ، فكشفه قال تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) ، وبصبره وكثرة رجوعه عليه السلام إليه تعالى ـ مدحه سبحانه ، فقال : (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) .

ومن الصبر أن يجاهد المرء نفسه ، ويروضها على طاعة الله ورسوله ، حتى تألفها ، فيفوز بحسن العاقبة ، كما صبرت رابعة العدوية على قيام الليل فى عبادة الله وكانت تقول فى آخر ليلتها : إن شكر قيام هذه الليلة أن أصوم غداً .

والسبيل إلى الصبر : التمرن على تحمل الشدائد ، وتعويد النفس التجرع لمرارة الألم والمشقة : كتجرع الداء المر : طلباً للشفاء ، فمن كان منه ذلك ـ وهو واثق بالله : أن يعينه عليه ـ جعل سبحانه الصبر له نوراً يهتدى به إلى ما فيه خيره وراحة نفسه ، ولذلك ـ قال تعالى : (واصبر وماصبرك

إلا بالله) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «(١) ومن يتصبر يصبره الله) .

ومن الصبر — معاملة الشركاء فى العمل ونحوه ، والعفو عنهم ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان ، والصفح عن أذاهم ، والله تعالى يقول : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً) .

والإنسان فى حياته — عرضة للبلاء ، يصيبه : فى بدنه . أو ماله . أو عياله ، ونحو ذلك : مما يعتز به الإنسان ، ولا نجاة ولا نجاح عند ذلك إلا بالصبر ، ولذلك - قال صلوات الله وسلامه عليه : «(٢) الصبر معول المسلم » .

وكم من بواعث على الغضب فى المكتب ، والطريق ، والمنزل ، ونحو ذلك .

ولولا الصبر لساءت العاقبة ، وكانت النتيجة شراً : جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب ليشكو إليه زوجته ، فسمع خلف الباب صوت زوجة عمر مرتفعاً ، فرجع ، فأدركه عمر ، وسأله عن سبب رجوعه ، فقال له : جئتك أشكو زوجتى ، فوجدت حالك من حالى ، فقال عمر : وهو المؤمن الصابر : إن زوجتى طباخة لطعامى . غسالة لثيابى . مربية لأولادى ، ويستريح بها قلبى عن الحرام ، أفلا أتحملها لذلك ؟ فقال الرجل : وزوجتى كذلك كزوجتك ، فقال له عمر : كن إذاً مثلى .

---

(١) جزء من حديث فى الصحيحين .
(٢) رواه أحمد عن عائشة رضى الله عنها .

وقد حثنا الله على عظيم الصبر : بحث الأهل على الصلاة : لصلاح البيت قال تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) .

والصبر — يا قوم — يجعل المر حلواً ، والألم لذة . وهو على مرارته نهايته شهد الجنة .

ولذلك — قال عمر : خير عيش أدركناه بالصبر : ولما عثرت امرأة فتح الموصلي ، فانقطع ظفرها حتى ســال الدم — ضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ قالت : حلاوة الثواب — أنستنى مرارة المصاب .

وقال صابر على بلواه :

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى
وأصــبر حتى يأذن الله فى أمرى
وأصبر حتى يعلم الصــبر أننى
صبرت على شىء أمر من الصبر

عباد الله :

لقد تجلى لكم أن الصبر ملاك الخير كله . ألا وإنه الخلق الذى ذكر فى القرآن أكثر من سبعين موضعاً ، وقد عرفتم الطريق للحصول عليه .

فاتقوا الله ، وحققوه فى أنفسكم ، واصبروا على طاعة الله : مديمين لها ، وعن المعصية : بعيدين عنها ، وعلى البلاء : راجين لرحمة الله تعالى : فى دفعه واستمعوا لندائه : جل شأنه : (يأيهـــا الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) رواه الديلمى فى مسند الفردوس .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد لتكون له المنزلة عند الله ، فما يبلغها بعمل ، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها » . رواه أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء

فقه يريح النفس ويفتح باب الرجاء

الحمد لله . الرحيم الكريم : عمر قلوب أحبائه برجائه ، وقال : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يرضى عمن يرضى بقضائه وفيما أوحاه تعالى إلى داود : عليه السلام : (أنت تريد وأنا أريد ، فإن سلمت ما تريد لما أريد — كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم ما تريد لما أريد — أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من أعطى فشكر ، وابتلى فصبر ، ودعا إلى الرضا بقضاء الله .

اللهم صل وسلم على هـــذا الرسول الكريم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين لم يقنطوا أبداً من رحمة ربهم ، فعاشوا نشطاء فى طاعته مجاهدين فى سبيل آمالهم : لإعلاء كلمة الله تعالى .

أما بعد :

فقد مر عيسى عليه السلام برجل أعمى أبرص مقعد مصاب الجنبين بالشلل ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه ، فقال له عيسى : يا هذا أى شىء من البلاء أراه مصروفاً عنك ؟ فقال : يا روح الله . أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه — ما جعل فى قلبى : من معرفته . فقال له : صدقت ، وصافحه : مهنئاً له بنعمة الرضا من ربه ، وفى ذلك — رضا الله عنه ، فإذاً : ذلك الرجل

أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام ، وتبعه ، ومضى معه .

عبد الله

يرضى العاقل على الدوام بما يفعله سيده الحكيم العليم ، الذى أفعاله كلها حكمة ، ونصب عينيه — قول من قال :

كن راضياً بالقضاء واستجل حكمته
والعبد يرضى بما يرضاه سيده
والدار دار ابتلاء لا صفاء بها
أما الصفاء — فدار الخلد موعده

فلو اطلع المبتلى على الغيب — لاختار الواقع ، ويشهد لذلك — ما جاء فى القرآن الكريم : فى انطلاق موسى مع الخضر : عليهما السلام : من أن الخضر — خرق السفينة ، التى ركباها ، وقتل غلاماً لقياه فى طريقهما ، وأقام جداراً كان آيلا للسقوط : بقرية بخل أهلها عليهما : فقد اعتبر موسى : عليه السلام — تلك الأفعال كلها — منكراً ، حتى انكشف له الغيب ، فرآها مصالح ومعروفاً : يجب فعله ، وإن من آمن بذلك — يا قوم — تلقى القضاء بالرضا وفى ذلك — راحة النفس .

ألا وإن من حكمة البلاء — تطهير الذنوب : قال رسول الله ﷺ : «(١) المصائب . والأمراض . والأحزان فى الدنيا — جزاء» ، وقال ﷺ : «(٢) ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة : فى نفسه . وولده . وماله :

---

(١) رواه سعيد بن منصور فى سننه ، وأبو نعيم فى الحلية ، عن مسروق مرسلا : أى سقط من سنده الصحابى .

(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة (ض) .

حتى يلقى الله تعالى . وما عليه خطيئة » ، وأخبرنا صلى الله عليه وسلم — أن البلاء — للمستقيم — رفعة ، فقال : « (١) إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة ، فما يبلغها بعمل ، فما يزال يبتليه بما يكره ، حتى يبلغه إياها » ، وقال : صلوات الله وسلامه عليه : « (٢) المصيبة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه » .

لذلك كان سلفنا الصالح — يرون البلاء كنزاً عظيماً ، ولكن لا يخزن في الخزائن ، ولا يوضع في أكياس النقود : بل ، في الأجسام ، ومنها — جسم عمران بن حصين ، صاحب رسول الله : صلى الله عليه وسلم : قد استسقى بطنه ، فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة : لا يقوم ولا يقعد ، ونقب له في سرير من جريد : كان عليه — موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه أخوه ، فجعل يبكى لحاله فقال له : لا تبك يا أخى ، فإن أحب شيء إلى الله تعالى — أحبه إلى ، ثم قال : أحدثك شيئاً لعل الله — أن ينفعك به ، واكتم على حتى أموت : إن الملائكة تزورنى ، فآنس بها ، وتسلم على فأسمع تسليمها ، فاعلم بذلك — أن هذا البلاء — ليس بعقوبة : إذ هو سبب هذه النعمة العظيمة ، فالمؤمن بالله ، الذى يرضى بقضائه ، ويأجره الصبر على بلائه — لا يجزع ، ولا يشك في حسن عاقبته فيرضى عن ربه ، ولذلك — لما قطعت رجل عروة بن الزبير من أكلة : كانت بها : قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة . والله لئن كنت قد أخذت فقد أبقيت . ولئن كنت قد ابتليت لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده من طاعة الله تلك الليلة . ولا لوم عليه : إذا سأل الله العافية والشفاء ، ولسان حاله يقول:

---

(١) رواه أبو يعلى عن أبى هريرة (ض) .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس (ض) .

يا رب إن كان تمريضى يقربنى
إليك زلفى — فباب العفو أوسع لى

وقد دعا الرسول ، وإخوانه المرسلون بزوال البلاء ، مع أنهم فى أعلى مقامات الرضا .

والمؤمن مستيقن أن دوام الحال من المحال ، فلا تيأس من الانتقال من حال إلى حال ، وأن كل شىء فى الحياة بقضاء وقدر ، وأن الدنيا مزيج من الخير والشر ، وأن لكل منهما — وقتاً محدداً ، وأن رحمة الله وسعت كل شىء لا تحدها العقول وأنه سبحانه قدير : يغير ولا يتغير ، ويحول ولا يتحول ، ويخلق العجائب . والغرائب ، وكم له سبحانه فى كل لحة ونفس من فرج قريب وقاصده لا يخيب : قال ابن مسعود : رضى الله عنه : « والذى لا إله غيره لا يحسن عبد الظن إلا أعطاه الله ظنه ، وذلك بأن الخير فى يده » . وكم من تلميذ رسب عاماً ، فنجح بتفوق فى آخر ، وكم من مريض بعد أن استعصى الداء ، وعز الدواء ، ويئس من شفائه محبوه والأطباء — شفى فى أقرب من لمح البصر وعاش صحيحاً سليماً .

فلم الانتحار : على أن الانتحار لا راحة به ، فبعد الموت حياة : إما فى نعيم : للمستقيم ، وإما فى عذاب أليم : للأثيم ، والمنتحر أثيم ، ويكرر قتل نفسه بالطريقة التى قتلها بها : قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : «(١) الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار ، والذى يطعن نفسه يطعن نفسه فى النار ، والذى يقتحم — يقتحم فى النار» : فمن انتحر بدخول النار فى الدنيا - دخل نار الآخرة - (وما ربك بظلام للعبيد) .

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة (ض) .

ومما هو واضح ، ولا شك فيه - أن الإنسان فى هذه الحياة عرضة الشدائد تنزل به ، والذى أنزلها : جل شأنه - لا ريب فى أنه يقدر على زوالها ، فكيف ييأس العبد المؤمن بذلك الحق ، مهما اشتدت نازلته : إنه - ولا شك - يستيقظ لقول ناصحه :

تصبر أيها العبد اللبيب ... لعلك بعد حين لا تخيب
وكل الحادثات إذا تناهت ... فموصول بها فرج قريب

وقد حكم الحجاج على رجل بالإعدام يوماً ، فاستمهله للغد ، فقال له : وماذا يغنى الغد ؟ فقال :

عسى فرج يأتى به الله : إنه ... له كل يوم فى خليقته أمر

فانتبه الحجاج إلى قوله تعالى : (كل يوم هو فى شأن) : فمن شأنه ، أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً . ويضع آخرين ، فعفا عن الرجل ، وتحقق الفرج بأسرع مما كان يظن الرجل ، والله رحيم قدير .

وحقاً : من نظر إلى غده : بنور الإيمان الكامل - هانت عليه بلايا الدنيا ، بل رآها خيراً لا شراً ، ومنحاً لا محناً ، ووجد فيها لذة وحلاوة ، وامتلأت نفسه زيادة رضاً عن الله ، الذى جعل الآخرة دار الجزاء ، وهى دائمة لا تبيد .

ويروى عن السيدة نفيسة أن الأطباء أشاروا عليها فى مرضها : فى رمضان : بالفطر : لتقوى ، فقالت: ثلاثين سنة أطلب من الله أن يتوفانى وأنا صائمة ، فما أعجب ما تقولون وشرعت تقرأ سورة الأنعام ، فقبضت روحها عند قوله تعالى : (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) .

أيها المسلم :

بنى الله للأحباب بيتاً سماؤه	هموم وأحزان وحيطانه الضر
وأسكنهم فيـــه وأغلق بابه	وقال لهم : مفتاح بابكم الصبر

فاتق الله . واصبر على ما أصابك ، وارض بما قضاه الله لك ، واعلم أن الكرب إذا اشتد هان ، وأن أفضل العبادة - انتظار الفرج ، والاستسلام إلى القادر : تعالى بتضرع وافتقار ، وأن العيش الذى يسعى إليه هو عيش الآخرة (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) .

فيا عبد الله :

إذا ابتليت فثق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته	ما لامرىء حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً لصاحبه	لا تيأسن فإن الصانع الله
والله مالك غير الله من أحد	فقـــل بقلب سليم حسبى الله

قال رسول الله ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم : فمن رضى فله الرضا . ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى . وابن ماجه : عن أنس : رضى الله عنه .

الحث على شكر الله تعالى

الحمد لله : قرن الذكر بالشكر فى كتابه : لنــذكره بشكره ، ونشكره بذكره ، فقال جل شأنه : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : قال حبيبه ومصطفاه : «(١) عجبت للمسلم إذا أصابته مصيبة احتسب وصبر ، وإذا أصابه خير - حمد الله . وشكر ، إن المسلم يؤجر فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فيه » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل : «(٢) أول من يدعى إلى الجنة الحمادون » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الحامدين الشاكرين :

أما بعد : فيا عباد الله :

قبيلة سبإ أنعم الله عليهم ، فقد كان مسكنهم أرض مأرب باليمن - نقى الجو ، طيب الهواء ، لا تعيش فيه الحشرات ، حتى أن من جاءه من الخارج يحملها - ماتت فيه ، وقد كان عامراً بالبساتين المثمرة ، عن يمين المار ويساره ، لدرجة أن المرأة - كانت تمشى تحت الأشجار ، وعلى رأسها الوعاء ، فتتساقط فيه الفواكه ، حتى يمتلىء من غير قطف ، ولا تعلم :

---

(١) رواه الطيالسى ، والبيهقى فى الشعب ، عن سعد : رضى الله عنه .
(٢) رواه البيهقى فى الشعب عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

لكثرتها ونضجها ، وقد كان بينهم وبين الشام ، حيث كانوا يسافرون لقضاء مصالحهم — قرى ظاهرة . عامرة . متقاربة : فيها يبيتون ، ويقضون حاجاتهم ، فما كانوا يحتاجون فى سفرهم إلى زاد . بل حيث نزلوا يجدون ما يريدون ، فكانوا فى أسفارهم آمنين مستريحين ، فلم يقابلوا تلك النعم على عظمها بالشكر ، ولم يديموها بالطاعة ، بل جحدوها ظالمين لأنفسهم بمعصية الله ، فسلبوها ، وبدلهم الله بحلو الثمار - من النبات ، وما لا ثمر له ، وقليلا من النبق : ليتحسروا به على ما حرموا من الكثير منه ، ومن أمثاله : من طيب الثمار ، وفرقهم فى مختلف البلاد ، وأذاقهم عناء السفر ، وجعل أمرهم عبرة للناس : ليستمسك العاقل بالصبر عن معصية الله ، والصبر على طاعته : شكراً له على ما أعطاه ، وقد قص الله قصصهم فى القرآن الكريم ، وفى ختامه - قال : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

أيها المسلم :

إذا كنت ذا نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النقم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

وإذا كان من قدم لك جميلا ، أو صنع معك معروفاً - تشكر له : من أجل ما فعل ، وتثنى عليه بما صنع ، فإن رب العالمين ، رب الإنس والجن لا تحصى جمائله ، وصنائع معروفه (وما بكم من نعمة فمن الله) .

فكيف لا نشكره تعالى ، مع شكرنا لسواه (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم) .

ونعمه تعالى قد غمرتنا فى الصغر والكبر ، ويسبغها سبحانه علينا من

المهد إلى اللحد ، وهى محيطة بنا . من بين أيدينا ومن خلفنا . ومن فوقنا ومن تحت أرجلنا ، وفى سمائه وأرضه ، وفى أنفسنا وأهلينا ، وفى الظاهر والباطن ، ومنها ما نعلم وما لا نعلم ، ومنها الجليل : كالإيمان . والعقل . والسمع والبصر ، ومنها الدقيق : كزيادة الإيمان . ووفور العقل ، ووحدة السمع والبصر ، وقد قال جل شأنه : (وإن تعـدوا نعمة الله لا تحصوها) فكيف نحصى ثناء عليه ، والأمر كما قال رسولنا ﷺ : «(١) أعوذ بعفوك من عقابك . وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقد أثنى تعالى على نفسه ، فى فاتحة كتابه ، وفى مواضع كثيرة منه ، وألهم أهل الجنة يثنون عليه ، وسجل ذلك بقوله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) وبقوله سبحانه : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، وأرشدنا رسولنا ﷺ : إلى ما يثنى عليه تعالى به ، فقال : «(٢) إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله . والحمد لله . ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإذا قال العبد : سبحان الله ـ كتبت له عشرون حسنة ، وتحط عنه عشرون سيئة ، ومثل ذلك فى باقى الكلمات » ، وقد زكى ﷺ : كلمة الثناء : الحمد لله ، «(٣) والحمد لله تملأ

---

(١) رواه مسلم عن عائشة : رضى الله عنها .

(٢) رواه النسائى ، والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد إلا أنهما قالا : عن ثواب الحمد لله : « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » .

(٣) رواه مسلم عن الحارث بن عاصم الأشعرى من حديث نبوى شريف .

الميزان » ، وقد وصف الله نوحاً بأنه شكور : لكثرة شكره لله تعالى .

والشكر لله تعالى : قولا كان أو عملا . ذكراً . أو تسبيحاً أو صلاة أو صدقة ـ لا يعود على الله منه شيء ـ كما لا تضره المعصية .

وإنما فائدة الشكر للعبد الشاكر : قال تعالى في الحديث القدسي «(١) يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني . ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

والمعنى الجامع للشكر ـ أنه استعمال نعمه تعالى فيما خلقها له : تقرباً ـ وإجلالا ، وتعظيماً له تعالى ، فلا ينفق العبد ماله ، ولا يستعمل عقله ـ وسمعه وبصره ويده . ورجله ، ولسانه ـ إلا فيما يرضى الله : هكذا هو الشكر الحقيقي ، لا أن نقول كلمات بألسنتنا ليس لها دليل بأفعالنا ، والله تعالى يقول : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون .

وسأل رجل أبا حازم ، الواعظ الأشهر : من كبار سلفنا الصالح : قال له : ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيراً ـ أعلنته : وإذا رأيت بهما شراً سترته . قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيراً

---

(١) بعض حديث قدسي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن ربه عز وجل .

وعيته وإذا سمعت بهما شراً دفنته . قال : فما شكر اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقاً هو لله فيهما ، قال : فما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله صبراً ، وأعلاه علماً .

ومعنى ذلك أن يصبر المرء عن أكل الحرام ، ويملئ بقاياه ما يهدى إلى الحق - قال : فاشكر الفرج ؟ قال : كما قال الله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) ، قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئاً غبطته - أى استحسنته أو أحببته استعملتهما فيه ، وأن رأيت شيئاً مقته - أى أبغضته - كففتهما عن عمله ، فإن أنت فعلته فأنت الشاكر حقاً .

وعلى كل عضو من أعضاء الإنسان - صدقة عند كل صباح : شكراً لله تعالى ، الذى من بسلامتها ، وقد قال ﷺ : «(١) كل معروف صدقة » ، ويجزىء عن ذلك صلاة الضحى ، التى وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى الزوال ، الذى يعقبه وقت الظهر : قال رسول الله ﷺ : «(٢) على كل سلامى أو على كل عضو من بنى آدم فى كل يوم صدقة ويجزىء من ذلك كله ركعتا الضحى » ، وقال ﷺ : «(٣) يصبح على كل سلامى أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة - صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، ويجزى من ذلك ركعتا الضحى ، يركعهما » ، أى حيث يكون الإنسان بتلك الصلاة

---

(١) رواه البخارى ، عن جابر ، ومسلم عن حذيفة : رضى الله عنهما .
(٢) رواه الطبرانى ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .
(٣) رواه مسلم ، عن أبى ذر : رضى الله عنه .

ذاكراً لله ، فى الوقت الذى يكون أكثر الناس فيه فى شغل بشئون الحياة وقال ﷺ : «(١) إن فى الجنة باباً يقال له الضحى ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين كانوا يديمون على صلاة الضحى : هذا بابكم . فادخلوه برحمة الله» .

عباد الله :

شكر المنعم - اعتراف بفضله ، وتقدير لإحسانه ، وزيادة فى حبه ، ووسيلة لزيادة إنعامه : قال سبحانه : (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) .

وقال رسولنا صلى الله عليه وسلم : «(٢) الإيمان نصفان ، فنصف فى الصبر — أى عما كره الله فعله ، ونصف فى الشكر — أى على ما يحب الله فعله» .

فاتقوا الله ، وافعلوا ما يحب فعله ، واتركوا ما يحب تركه ، واحرصوا على طاعته على الدوام ، وانظروا إلى عظيم طاعة المطيعين ، لا إلى عظمة ثروة المثرين — تكونوا شاكرين ، سالمين غانمين : قال تعالى : (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» رواه الترمذى ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

---

(١) رواه الطبرانى ، فى الأوسط ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .
(٢) رواه البيهقى فى الشعب ، عن أنس : رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه . ونظر فى الدين إلى من هو فوقه — كتبه الله صابراً وشاكراً ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه ، وفى الدين إلى من هو دونه — لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً » : رواه الترمذى ، عن عبد الله بن عمرو : رضى الله عنهما .

الحث على الصبر على المرض

وعيادة المريض

الحمد لله العزيز الكافي ، المبتلى المعافي ، القائل حكاية عن خليله إبراهيم : (وإذا مرضت فهو يشفين) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : سبحانه : لا نحصي ثناء عليه : هو كما أثنى على نفسه .

يبتلى بالصحة . وبالمرض ، فمن يشكر ، ويصبر - نال أجراً ، وارتفع قدراً : قال تعالى : (وسيجزى الله الشاكرين) وقال : (إن الله مع الصابرين) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من شكر لنعمة ربه . وصبر على مصابه ، ورغب في ثواب الشكر والصبر ، وبلغ قول الله : (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقوله تعالى : (وبشر الصابرين) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الذين اقتدوا به ، ففازوا فوزاً عظيماً .

أما بعد : فيأيها المسلمون :

حبس الشبلى : رحمه الله تعالى وقتاً في المارستان(1) فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك - جاءوك زائرين ، فأخذ يرميهم

---

(1) دار المرضى .

بالحجارة : اختباراً لمحبتهم له ، فأخذوا يهربون منه ، فقال لهم : لو كنتم أحبائى — لصبرتم على بلائى ، أى كما صبر هو : حباً لله تعالى على بلائه : بالسجن فى المارستان ، ونسبته إلى الجنون ، وليس بمجنون .

ومن هنا : من حب الله تعالى — يصبر المؤمن المريض على ألم المرض ، فما يعجب المحبوب محبوب ، ومن كان كذلك — يرضى الله ، ولا يسخطه : بالقول ، ولا بالعمل ، ويقول : الحمد لله على كل حال ، ويكون قدوة حسنة لمن يصاب ، فيضاعف الله له الثواب ، ويكتب له مثل ما كان يعمل من صالحات فى أيام صحبته : فضلا منه تعالى وكرماً : قال ﷺ : «(١) إذا ابتلى الله عز وجل : العبد المسلم ببلاء فى جسده — قال الله : عز وجل الملك : اكتب له صالح عمله ، الذى كان يعمل ، وإن شفاه غسله ، وطهره ، وإن قبضه — غفر له ، ورحمه » .

---

(١) رواه أحمد ، ورواته ثقات : عن أنس بن مالك : رضى الله عنه ، وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « عجب المؤمن وجزعه من السقم ، ولو كان يعلم ما له من السقم — أحب أن يكون سقيما الدهر ، ثم إن رسول الله ﷺ رفع رأسه إلى السماء ، فضحك ، فقيل . يا رسول الله ، مم رفعت رأسك إلى السماء ، فضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : عجبت من ملكين كانا يلتمسان عبداً فى مصلى كان يصلى فيه فلم يجداه ، فرجعا ، فقالا : يا ربنا عبدك فلان كنا نكتب له فى يومه وليلته عمله الذى كان يعمل ، فوجدناه حبسته فى حبالك : قال الله تبارك وتعالى : اكتبوا لعبدى عمله الذى كان يعمل فى يومه وليلته ، ولا تنقصوا منه شيئاً ، وعلى أجره ما حبسته ، وله أجر ما كان يعمل » رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى رضى الله عنهما .

فالله : تبارك وتعالى ، وهو الرحمن الرحيم — يصيب بالبلايا — ومنها المرض — فى دنياه : امتحاناً ، ليظهر الصادق فى حبه تعالى ، الذى يكون عبد الله حقاً .

ألا : وهو الصابر ، الذى أعظم ما يكون منه من تألم — أن يقول :

يا رب إن كان تمريضى يقربنى   إليك زلفى — فباب العفو أوسع لى

ويصيب تعالى المؤمن بالمرض : ليكفر ذنبه ، ويعافيه من عقابه ، أو ليأجره عليه ، ويزيد رصيد ثوابه : تقديراً له : لما سبق : فى صحته : من صالح عمله ، الذى لم يمنعه منه إلا مرضه لذلك — يقال للمريض بعد شفائه : أجر وعافية : قال ﷺ : «(١) ما يصيب المؤمن من نصب(٢) ولا وصب(٣) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه» .

ويمتحن الله تعالى بمرض الأطفال آباءهم وأمهاتهم : أيصبرون على آلامهم ، والسعى إلى علاجهم : فيجزوا خيراً ، أم لا : فيجزوا شراً (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً) .

ومن حكمته تعالى فى المرض — تحسين الجسد : لمن حمد الله فى مرضه ولم يقل ما يسخط الله عليه : قال ﷺ : «(٤) إذا مرض العبد - بعث الله إليه ملكين ، فقال : انظروا ما يقول لعواده : فإن هو : إذا جاءوه - حمد

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة (رض) .

(٢) تعب .   (٣) مرض .

(٤) رواه مالك عن عطاء بن يسار : مرسلا أى سقط من سنده الصحابى .

الله ، وأثنى عليه - رفعا ذلك إلى الله - وهو أعلم - فيقول : لعبدى على إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأغفر له » .

والله تبارك وتعالى الرقيب على عباده - لم يعف عبده المريض من الصلاة : ما لم يكن مجنوناً ، أو مغمى عليه ، فعلى المريض أن يصلى وفق استطاعته ، ولو بالإشارة بالرأس إلى ركوعه وسجوده ، وليذكر الله فى مرضه راجياً رحمته وثوابه ، خائفاً نقمته وعذابه ، فيتوب إليه تعالى ، ويعمل ما استطاع لسداد دينه ، ورضا المسلمين عنه ، وكما يسعى المريض إلى الدواء المادى - يسعى إلى الدواء الروحى : عن عثمان بن أبى العباس رضى الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ : وجعاً يجده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ : ضع يدك على الذى تألم من جسدك ، وقل بسم الله ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله ، وقدرته من شر ما أجد ، وأحاذر(١) » ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «(٢) من اشتكى منكم شيئاً ، أو اشتكاه أخ له - فليقل : ربنا الله . الذى فى السماء : تقدس اسمك ، وأمرك فى السماء والأرض : كما رحمتك فى السماء - فاجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك . وشفاء من شفائك على هذا الوجع : فيبرأ » .

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وعند مالك : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد . قال : ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بى ، فلم أزل آمر بها أهلى وغيرهن : والمهم أن المريض يقول بلسانه معتقداً بقلبه الحاضر عند قوله ...

فالله تعالى : فى الحقيقة - هو الشافى وقد جعل لكل شىء سبباً ، ومن ذلك ما يتوسل به المريض إلى شفائه الذى يتفضل به الله جل علاه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «(١) إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يابن آدم مرضت ، فلم تعدنى : قال : يارب كيف أعودك - وأنت رب العالمين - ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً - مرض ، فلم تعده أو ما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنـــده يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى : قال : يارب كيف أطعمك - وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان ، فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته - لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم استسقيتك ، فلم تسقنى : قال : يارب : وكيف أسقيك - وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان ، فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته - وجدت ذلك عندى » .

فيأيها المسلمون :

اصبروا عند المرض وما ابتليتم به ، واعملوا بقول الرسول ﷺ : «(٢) عودوا المرضى ، واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة » .

وبقوله ﷺ : «(٣) إذا دخلت على مريض - فمره يدعو لك : فإن دعاءه كدعاء الملائكة » أى مقبول .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) رواه ابن ماجه ، ورواته ثقات مشهورون عن عمر بن الخطاب (ض) إلا أن ميمون بن مهران لم يسمع من عمر .

واعملوا على شرح صدر المريض : برجاء شفائه ، والدعاء بالشفاء له .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ قال : «(١) من عاد مريضاً لم يحضر أجله ، فقال : عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم - أن يشفيك : إلا عافاه الله من ذلك المرض » .

وليذكر المريض : متدبراً - هذا القول الكريم : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » : قال رسول الله ﷺ : «(٢) لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين : أيما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة ، فمات فى مرضه ذلك - أعطى أجر شهيد ، وإن برأ برأ - وقد غفر - له جميع ذنوبه » .

ألا وإن الصحة والمرض من العوارض لكل ذى حياة فليرض المسلم فيهما مولاه تعالى ، وليعد المسلم أخاه المريض : ليقوى ضعفه ، ويخرجه من ذل المرض بعز عيادته ويحيى فى نفسه بتدفق عواطفه عليه وبالدعاء له الأمل فى الشفاء .

(فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا) : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر - كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً » : رواه البخارى وأبو داود عن أبى موسى : رضى الله عنه .

وقال : صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً — لم يزل يخوض فى الرحمة ، حتى يجلس ، فإذا جلس اغتمس منها » .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى .
(٢) رواه الحاكم عن سعد بن مالك (ض) .

رواه مالك بلاغاً ، وأحمد ، ورواته رواة الصحيح ، والبزار وابن حبان فى صحيحه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً ناداه منادٍ من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » رواه ابن ماجه واللفظ له ، والترمذى وحسنه : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

صلاح القلوب

الحمد لله : أسعد ـ برحمته ورضاه ـ من آمن به . وأطاعه ، فنور قلبه وزكاه ، وأشقى فى دنياه وأخراه ـ من أظلم قلبه بالمعصية وأخفاه ، ولذلك قال حبيبه ومصطفاه : «(1) لا نعلم شيئاً خيراً من مائة مثله إلا الرجل المؤمن» .

وأشهد أن لا إله إلا الله : عنده لأرباب القلوب العارفة به ـ الدرجات العلية ، وقال جل شأنه : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أزكى الناس قلباً ، وأعلمهم به تعالى وخير من تقرب إلى الله ، وسعى إليه ، وأخبر عنه ، واطلع على عجيب صنعه تعالى : فى تقلب القلوب وتحولها ، فكان يحلف به سبحانه ، ويقول: «(2) لا ومقلب القلوب» ، وكان يدعو ،ويقول : «(3) اللهم مصرف القلوب

---

(1) رواه أحمد ، عن ابن عمر : رضى الله عنهما ، وروى الطبرانى عن سلمان : رضى الله عنه :عنه: ﷺ قال : «ليس شىء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان» .

(2) رواه البخارى عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

(3) روى مسلم ، عن عبد الله بن عمرو : رضى الله عنهما : قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل : كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب .. الخ »

مصرف قلوبنا على طاعتك » ، ويقول : «(١) اللهم اعطنى نوراً . وزدنى نوراً . واجعل فى قلبى نوراً ، وفى قبرى نوراً . وفى سمعى نوراً . وفى بصرى نوراً » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ذوى القلوب النيرة والسرائر الطاهرة .

أما بعد :

فيا أولى الألباب :

من سلفنا الصالح ، المقتدى به : للفوز بفضل الله وحبه - الحسن البصرى ، العالم التابعى الأشهر : قال رضى الله عنه ، فى شرح أساس سيره فى الحياة : ما ضربت ببصرى ، ولا نطقت بلسانى ، ولا بطشت بيدى ، ولا نهضت على قدمى ، حتى أنظر بقلبى : أعلى طاعة . أو على معصية ؟ فإن كانت طاعة - تقدمت ، وإن كانت معصية - تأخرت : ذلك لأن العز فى الحياتين — بالطاعة لا بالمعصية ، وقد قال تعالى: (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) .

ولا شك أن ذلك القلب المطاع فى السلوك فى الحياة : لإرضاء الله — هو القلب المعد لنظر الله إليه ، وعنايته ، ورعايته به ، العامر بنور: وهو عبارة عن لطيفة ربانية . روحانية ، متعلقة بالقلب الجسمانى ، تدرك : كالكهرباء : بآثارها ، وحرارتها . وأنوارها ، لا بحقيقتها ، التى استأثر بعلمها الله ، الذى أحاط بكل شىء علماً (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما ، وفيه قال رسول الله ﷺ : « وفى شعرى ، وفى بشرى وفى لحمى ودمى ، وعظامى » .

وما أجدرنا بإعداد قلوبنا لنظر ربنا إليها: بأن نذكره بها كثيراً، فينورها، ويهديها لطاعته، ويزيدها له ذكراً، ففي الأثر - أن الله تعالى - يقول: «أيما عبد اطلعت على قلبه، فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري - توليت سياسته، وكنت جليسه، ومحادثه، وأنيسه»، وفي القرآن الكريم: (فاذكروني أذكركم).

فيا عجباً ممن يهتم بوجهه، الذي هو موضع نظر الخلق، فيغسله ويزينه، ما استطاع حتى لا يرى إلا وضيئاً زينا، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر الخالق، رب العالمين، الذي اتخذ قلوب عباده المؤمنين - أواني محبته وأنوار هدايته، وقال نبيه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «(١) إن لله آنية من أهل الأرض. وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين».

وما أشد غفلة ذلك الغافل، فالخالق هو الذي أولى بالعناية بموضع نظره - القلب - لو شاء: سبحانه - لكشف مستوره، ولو اطلع الخلق على ذلك المستور في القلب: من شهوات، وأحقاد، ونيات فاسدات - لهجروه وقاطعوه، وخاصموه، وأهلكوه.

ألا انتباهاً — أيها العاقل: لصلاح قلبك: بذكر الله وتقواه، وقصد الصالحات لله، وتنقيته من إضمار السوء. وكل ما يسخط الله.

ومن صلح قلبه كذلك — كان بالإيمان — أبيض، نقياً، مضيئاً تقياً سليماً من السواد، والانتكاس. ومن غطاء عليه، يمنع دخول النور والخير فيه.

وإن ذلك الغطاء — لداء أي داء، وأي داء أفظع من داء النفاق؟

---

(١) رواه الطبراني، عن أبي عتبة الخولاني: رضي الله عنه.

لا يكون من صـــاحبه إلا الشر والإيذاء ، وفيه يقول من بيده الداء والدواء : جل شأنه : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعـون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم — أى المنافقين — مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

وقد قال ﷺ : «(١) القلوب أربعة : قلب أجرد : فيه سراج يزهر . فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس . فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه : — غطائه — فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق » .

وإن من صلح قلبه — لا يتجه بعضو من أعضائه إلا لله ، وفى طاعة الله .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «(٢) ألا وإن فى الجسـد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب » .

فكما أن صلاح الأمة : بزعيمها الصالح ، والجيش : بقائده الماهر ، والجماعة والأسرة تؤدى رسالة الخير — برائدها الخير — يكون الإنسان صالحاً ، إذا صلح قلبه .

فالقلب ملك الأعضاء ، وبقية الأعضاء - جنوده : يطيعونه ، وينفذون أمره ، ولا يخالفون نهيه ، فإن كان ذلك الملك صالحاً - كانت هذه الجنود

---

(١) رواه أحمد ، والطبرانى فى معجمه الصغير ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) جزء من حديث : رواه البخارى ومسلم ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما ، والمضغة : قطعة لحم قدر ما يمضغ شبه بها القلب .

صالحة مثله : يأمرها بالمعروف ، وينهاها عن المنكر ، فلا يكون منها إلا ما يرضى الله .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يدعو ، فيقول : «(١) اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى » .

وذلك القلب الصالح ، الذى رحمه الله ، وتفضل عليه بهداه — هو القلب السليم ، الذى لا ينفع عند الله سواه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

ولذلك قال تعالى فى وصف عمار المساجد بعبادته : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) : تضطرب من شدة الهول : إذا لم تكن سليمة بطاعة الله فى دنياه .

وإن القلب السليم ، السالم من الآفات ، والأدواء المفسدة المكروهة ، المبعدة عنه تعالى — لا يضطرب يوم الهول الشديد : لاطمئنانه برضا ربه الذى لم يغفل عن ذكره فى حياته ، وقد قال تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

ذلك هو القلب التقى . النقى . لا إثم فيه . ولا بغى . ولا غل . ولا حسد هو القلب المستقيم : ليس فيه سوى معرفته تعالى . وعظمته ، ومحبته . وخشيته . ومهابته ورجائه . والتوكل عليه .

---

(١) رواه الترمذى ، والطبرانى ، والبيهقى فى الدعوات ، عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وهو — بذلك — يشرق فيه نور العقل ، الذى يمنع عن العصيان ، ويدعو إلى الخير والإحسان .

ولا شك أن القلب — بذلك الوصف — يكون عامراً بالإيمان ، والله تعالى يقول : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) .

فلا يكون من أعضاء جســد ذلك القلب — سوى شعارات هذا الإيمان وعلاماته : من طاعة الله ، والاهتداء بهدى رسوله ، وقد قال تعالى : (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وشعائر الله ـ أحكام دينه وتعاليمه، وقال ﷺ : «(١) لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه» .

واستقامة القلب وسائر الأعضاء ـ سر نجاح العبد ، وأساس فلاحه ، وسبب أمنه . ووقايته من الضر ، فى الدارين : قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ويستقيم قلبك — يا عبد الله — بكل ما يذكرك بالله ، ويجعلك دائماً تذكر الله ، فيستقيم قلبك بالنظر فى آيات الله : فى كونه . ومخلوقاته ، الدالة على علمه . وحكمته وقدرته : (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

ويستقيم قلبك بقراءة القرآن واستماعه ، وبالمحافظة على استماع العظات وتعلم العلم ، الذى يهدى إلى صراط مستقيم ، وبالمداومة على الطاعة ، والبعد عن كل ما يقذف فى قلبك الميل إلى المعصية ، ويلسيك ربك . وقد قال ﷺ : «(٢) العلم حياة الإسلام ، وعماد الدين الإيمان ، ومن علم علماً أنمى

(١) رواه الإمام أحمد ، عن أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه أبو الشيخ ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

الله له أجره ، ومن تعلم ، فعمل — علمه الله ما لم يعلم » .

أيها المسلمون :

من استقام قلبه ، وقوى نور عقله — لم يكن للشيطان قوة عليه : قال تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

لذلك مستقيم القلب - لا يبخل .

وكيف لا يجود ، ولا يكون كريماً سخياً ، ولسان حاله — يعبر عما انطوى عليه قلبه ، فيقول :

إذا ملكت كفى منالا . ولم أنل
فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته
فلا متلفى بذلى . ولا مسعدى بخلى
أرونى بخيلا طال عمراً ببخله
وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

وهكذا — مستقيم القلب على الدوام ، إذا خطر له خاطر الهوى ، فدعاه إلى الشر ، وانبعثت النفس بشهوتها إلى نصرته ، واندفع الشيطان بكل قوته يوسوس له به — وقف العقل لتلك الجبهة المغوية المؤذية ، ودفعها بقوة الإيمان ، وأيده الله بملك كريم : قال رسولنا ﷺ : «(١) فى القلب لمتان — : خاطران يخطران به ، وقصدان يتجاذبانه — لمة من الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك — فليعلم أنه من الله سبحانه . وليحمد الله ، ولمة من العدو - : الشيطان - : إيعاد بالشر ،

(١) رواه الترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وتكذيب بالحق، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك — فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » . ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

والجهاد العقل — كان ذا مكانة عنده تعالى : قال ﷺ : «(١) ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » .

أيها المسلم :

قال رسول الله ﷺ : «(٢) مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة » ، وقال صلى الله عليه وسلم : «(٣) مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً » ، وقال صلوات الله وسلامه عليه : «(٤) مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن » ، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو ، فيقول : «(٥) يا مثبت القلوب ثبت قلبى على دينك » ، وقال : عليه الصلاة والسلام : «(٦) ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن: إن شاء أقامه . وإن شاء أزاغه » .

---

(١) رواه الترمذى الحكيم ، فى نوادر الأصول .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى الشعب ، عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه .

(٣) رواه أحمد والحاكم ، عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه .

(٤) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير ، والبيهقى فى الشعب عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٥) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

(٦) رواه النسائى فى السنن الكبرى ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن النواس ابن سمعان رضى الله عنه .

وها أنت ذا تعلم أن الشيطان : المتسبب فى تقليب قلبك — بالمرصاد ، والفتن كثيرة ، والقلب كالإناء ، إذا امتلأ بشيء — فإنه لا يسع غيره .

وإذا امتلأ القلب خيراً — نضح خيراً ، وينضح شراً إذا امتلأ شراً ، فكل إناء بالذى فيه ينضح .

وإن القلب كما يوزع الدم على الأعضاء — يوزع عليها ما امتلأ به : مما صمم عليه من خير أو شر .

ولذلك — لا يعد ما صدر من عضو من الأعضاء عملا مجزياً عليه إلا ما انطوى عليه القلب ونواه . قال رسول الله ﷺ : «(١)إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وإذا فقد الإنسان حركة عضو من أعضائه — فإنه لا يفقد الأمل فى حياته ، إلا إذا سكن نبض قلبه ، وانقطعت حركته تماماً .

فمن فقد القلب — فقد الحياة ، وانتقل من عالم الأحياء إلى عالم الأموات .

فحركة الجسم بحركة القلب .

فما أسعدك — أيها المسلم — أن يتحرك قلبك ، ويحرك جسمك ، وسائر أعضائك بما يرضى الله .

فاتق الله ، واحرص على أن تملأ قلبك دائماً بحب الله ، وتعظيمه ، حتى لا يكون للشيطان مكان فيه : لتحيا حياة طيبة ، وتفوز بحسن العاقبة ، وتسلم من سيطرة الشيطان على قلبك وجوارحك ، وقيادتها إلى إغضاب

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، من حديث ، عن عمر بن الخطاب : رضى الله عنه .

ربك : بصغير الذنوب وكبيرها ، وربما كثرت الذنوب ، فسودت القلوب ، وأعمتها ، والله تعالى يقول : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وعميان القلوب فى الدنيا ، لا عميان الأبصار فيها — هم عميان الآخرة فلا يرون فيها النجاة (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) .

اتقوا الله — عباد الله — وأصلحوا قلوبكم ، واعمروها بنور ذكر ربكم — تصلح أجسامكم ، وتقبل أعمالكم ، وتروا بنور القلوب ما لا تراه أبصاركم : قال : صلى الله عليه وسلم : «(١) اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى» .

وقد وقف شاب نصرانى — وهو متنكر — على حلقة درس إمام الصوفية الجنيد ، وسأله عن معنى هذا الحديث فى الفراسة ، فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه ، وقال له : أسلم ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الشاب مؤمناً بالله العزيز الوهاب ومن لم يكن له من قلبه واعظ — لم تنفعه المواعظ ومن كان له من قلبه واعظ — كان عليه من الله حافظ .

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم — أى يرحمكم — وملائكته — أى يدعون لكم — ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً) .

قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : «إذا أراد الله بعبده خيراً —

---

(١) رواه الترمذى ، عن أبى سعيد رضى الله عنه .

جعل له واعظاً من قلبه » : رواه أبو منصور الديلمي ، في مسند الفردوس ، عن أم سلمة : رضى الله عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم — لنظروا إلى ملكوت السماء) : رواه الإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه .

الزهد سبيل رضاه تعالى

الحمد لله : يحب الزاهدين فى الدنيا ، الذين لم تغرهم بزخارفها ، ولم تشغلهم عن إرضاء ربهم بزينتها ، وفى الحديث النبوى الشريف «(١) ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس» .

وأشهد أن لا إله إلا الله : أعد لمن زهد فى الدنيا نعيماً مقيماً ، وأراح باله فى الحياة . ولذلك قال رسولنا : صلى الله عليه وسلم : «(٢) إذا أراد الله بعبد خيراً ـ فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره عيوبه» .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الزاهدين ، القائل من اشتاق إلى الجنة ـ سارع إلى الخيرات . ومن خاف من النار ـ لها عن الشهوات ، ومن ترقب الموت ـ ترك اللذات ، ومن زهد فى الدنيا ـ هانت عليه المصيبات» .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، العارفين بربهم ، الزاهدين ، المتقين.

أما بعد فيا عباد الله :

عندما زار سيدنا عمر بن الخطاب : رضى الله عنه مدينة حمص ـ جاءه أهلها يشكون إليه واليهم : سعيد بن عامر ، الذى اشتهر بالزهد ، وقد

---

(١) رواه ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدى .

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، عن أنس : رضى الله عنه .

عابوا عليه أربع خصال : لا يخرج إليهم ، حتى يضحى(١) ، ويتعالى(٢) النهار ، ولا يجيب أحداً بالليل ، ويعتزل الناس يوماً كل شهر ، ويأتيه إغماء بين حين وحين ، فسأله عمر فأجابه الوالى :

إنه يعجن كل صباح خبزه بنفسه . ثم يخرج . . ، وجعل نهاره للناس وليله لله تعالى : يعبده فيه ، ويغسل ثيابه مرة فى الشهر ؛ تلك التى على جسده ، وليس عنده غيرها ، فينتظر ، حتى تجف .

أما عن الإغماء : فقد قال سعيد : كنت مشركاً بمكة ، وشهدت مصرع خبيب الأنصارى ، وقد قطعت قريش لحمه : رضى الله عنه ، ثم حملوه على جذع ، وقالوا له : أتحب أن يكون محمد مكانك ، فقال : لا والله ، ما أحب أن أكون معافى فى نفسى وأهلى وولدى ، وأن محمداً يشاك بشوكة ، ثم نادى : يا محمد : فما ذكرت ذلك اليوم وتركى نصرة خبيب . وأنا مشرك ، لا أومن بالله ـ إلا ظننت أن الله لا يغفر لى فيصيبنى ما يصيبنى : من إغماء ، يا أمير المؤمنين .

عباد الله :

إن المؤمن الحق ، الذى يعلم أنه مخلوق للحق ، وأنه راجع إلى الحق ـ لا يصرفه عنه باطل الدنيا وزخرفها ، وصدق من قال :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

وقال ناصح أمين :

هى الدنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشى وفتكى

---

(١) يصل إلى الضحاء : عند ارتفاع النهار الأعلى . (٢) يرتفع .

فلا يغرركم منى ابتسام　　فقولى مضحك والفعل مبكى

عرف السابقون من بنى الإسلام — هذه الحقيقة الواضحة ، فى تلك الأقوال الصادقة ، وأن نعيم الدنيا وبؤسها — يتلاشيان أمام نعيم الآخرة وبؤسها ولا يذكران ، ، فزهدوا فى الدنيا وأقبلوا إلى طاعة الله : لا يلهيهم عنها نعيم الدنيا ولا بؤسها ، ونصب أعينهم — قوله ﷺ : «(١) يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال : يا بن آدم . هل رأيت خيراً قط . هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا . والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً(٢) فى الدنيا من أهل الجنه ، فيصبغ صبغة فى الجنة ، فيقال(٣) له : يابن آدم . هل رأيت بؤساً . هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله . ما مر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

نعم أعرض سلفنا الصالح عن الدنيا ، وعاشوا فيها ضيوفاً ، واتخذوها مطية الآخرة ، وولوا وجوههم نحو نعيم الآخرة الدائم ، ولم يشغلهم عن تقوى الله شاغل ، ولم يكن لهم مطلب سوى الحظوة بحب الله ورضاه ، وفيهم — قيل :

إن لله عباداً فطنا　　طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

---

(١) رواه مسلم ، عن أنس : رضى الله عنه .　　(٢) شدة .

(٣) أى عقب إذاقته لأول ما يلقاه : من النعيم ، الذى هو جزء يسير مما أعد له : من النعيم ، وسميت تلك الإذاقة بالصبغ صبغة : لظهور أثرها عليهم ظهور أثر المصبوغ ، والأصل فى الصبغ ، الغمس فى سائل مادة ذات لون . . !

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

أولئك الفطناء – زهدوا فى الدنيا : لا بترك الحلال المباح ، ولا بلبس الخشن . الرث من الثياب ، قال رسولنا ﷺ : «(١) كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة – أى عجب – ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده .

وزهدوا كذلك لا بالتشديد على النفس بالطاعة حتى تملها ، وقد قال رسولنا ﷺ : «(٢) إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحـــد إلا غلبه فسددوا(٣) . وقاربوا(٤) وأبشروا . واستعينوا بالغدوة(٥) . والروحة(٦) . وشيء من الدلجة(٧) القصد . القصد تبلغوا ، والمعنى استعينوا على طاعة الله عز وجل – بالأعمال فى وقت نشاطكم ، وفراغ قلوبكم ، بحيث تستلذون العبادة ، ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم كما أن المسافر الحاذق – يسير فى هذه الأوقات ، ويستريح هو ودابته فى غيرها ، فيصل المقصود بغير تعب .

إذاً – يا قوم – ما هو الزهد فى الدنيا ؟

---

(١) رواه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : رضى الله عنهم .
(٢) رواه البخارى . والنسائى ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه .
(٣) أى الزموا السداد : أى التوسط من غير إفراط ولا تفريط .
(٤) أى إن لم تستطيعوا العمل بالأكمل – فاعملوا ما يقرب منه .
(٥) سير أول النهار . (٦) سير آخر النهار .
(٧) آخر الليل .

هو ألا يملك متاع الدنيا قلب الإنسان ، وإن كان كله فى يده حلالا ، فلا يشغله عن ذكر الله وعبادته ، التى — لأجلها — خلقه الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، وقال رسولنا ﷺ : «(١) الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها : إلا ما ابتغى به وجه الله : عز وجل» .

ومن هنا — تمتع المسلمون الأولون بمباح الشهوات ، وتناولوا الحلال من اللذات ، إرضاء لله تعالى ، وتقوّيًا على تقواه ، فكانت هذه اللذات ، وتلك الشهوات — طاعات لهم ، يثيبهم عليها الله : جل علاه : قال الصحابة ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : «(٢) أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر» ، وكان الصحابى معاذ بن جبل : رضى الله عنه — يدخر ثواب نومه — كما يدخر ثواب قيامه لله مصليا . ومطيعاً : لأنه كان ينوى — بالنوم — التقوى على هذا القيام ، ويقول : إنى لأحتسب نومتى — كما أحتسب قومتى .

وأساس هذا الزهد — يا عباد الله — الإيمان بالله ، الذى جعل الدنيا دار عمل . وفناء ، والآخرة دار ثواب وبقاء ، وقال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) ، وقال : «(٣) نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ، حتى يرضى ربه ، وبئست الدار لمن صدته عن آخرته ، وقصرت به عن رضا ربه ، وإذا قال العبد : قبح الله الدنيا — قالت الدنيا : قبح الله أعصانا لربه .

---

(١) رواه الطبرانى ، فى معجمه الكبير ، عن أبى الدرداء : (ض) .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه — من حديث — عن أبى ذر : (ض) .
(٣) رواه الحاكم . عن طارق : (ض) .

فمن آمن بالله - عرفه دنياه - فلم يفتتن بها ، مع سعيه فيها ، وكان أوثق - بما في يده - بما في يد الله الذي يتيقن أنه المالك لكل شيء ، ومنه وحده كل شيء ، وقد قال تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) ، وجاهد في سبيل الله ، ووجه قوله وعمله وكل ما يقصد له تعالى ، وقرر في نفسه - أنه لا يليق الاغترار بمال ولا جاه ، ولا شيء من نعم الحياة ، فلم يتطاول على أحد بما أعطاه الله ، وقنع بما تيسر له في دنياه ، ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله من فضله ، وامتثل قول رسول الله ﷺ : « (١) انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

وفي ذلك راحة باله ، وشكره لربه على ما تفضل به عليه ، وأنعم ، والشكر قيد النعم ، وحصنها ، وسبيل نموها وزيادتها : وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) .

والطمع في مال الدنيا وجاهها ، يجلب المشقة ، ويشغل عن طاعة الله تعالى : كالصلاة ونحوها ، ويحمل على البخل والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله ، لعدم الثقة بما في يد الله ، وإخلاف الله لما ينفق ، وقد مدح الله التوسط في الإنفاق ، وذم الإسراف والبخل ، فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) ، وخير الأمور الوسط ، وقد قال تعالى : (وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً) ، وقال : جل شأنه (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) .

ووجه ﷺ : إلى القناعة ، وذم الطمع ، فقال : « (١) لو كان لابن آدم واد من مال — لابتغى إليـــه ثانياً ، ولو كان له واديان — لابتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

أيها المسلمون :

قال الإمام أحمد : رضى الله عنه : « الزهد فى الدنيا — قصر الأمل » ومن قصر أمله — هانت عليه الحياة ، فجاهد فى سبيل الله ، وقال الإمام أبو الحسن الشاذلى ، العارف بالله المشهور ، رضى الله عنه : فى بيان طريق الزهد : « ليس هذا الطريق بالرهبانية — أى الانقطاع للعبادة ، وترك كسب المعيشة ، ولا بأكل الشعير والنخالة ، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين فى الهداية : قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ، (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) (وجاهدوا فى الله حق جهاده) ، واحرصوا على الموت فى سبيل الله توهب لكم الحياة ، واصبروا على الطاعات وعن السيئات وعلى البليات ، ولا تعصوه تعالى أبداً ، واقنعوا بما قسم لكم ، ولا تطمعوا فى التمتع بما قسم لغيركم : من زوج ، أو مال ، أو جاه ، أو نحو ذلك : من متع الدنيا - تكونوا من الذاهبين الذين لم تفتنهم الدنيا ، ولم تبعدهم عما يرضى الله

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس رضى الله عنه .

تعالى القائل : (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً فى الدنيا ، وقلة منطق — فاقتربوا منه ، فإنه يلقى الحكمة » : رواه ابن ماجه ، وأبو نعيم ، فى الحلية ، والبيهقى ، فى شعب الإيمان ، عن أبى خلاد : رضى الله عنه .

ومن معانى الحكمة — أنها الإصابة فى الأقوال والأفعال .

وقال رسول الله ﷺ : « الزهادة فى الدنيا ليست(١) بتحريم الحلال ولا إضاعة(٢) المال . ولكن الزهادة فى الدنيا ألا تكون بما فى يديك أوثق مما فى يد الله ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها — أرغب فيها لو أنها بقيت لك » : رواه الترمذى . وابن ماجه ، عن أبى ذر : رضى الله عنه .

---

(١) كمن لا يأكل الطيبات من الرزق زاعماً أنه زاهد .

(٢) كمن لا يحافظ على ماله ، ويعرضه للسرقة مثلا ، أو يبدده بالإنفاق فيما لا ينبغى .

المظلة الواقية يوم الغاشية

الحمد لله ، (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يجزى كل نفس بما تسعى كما قال فى كتابه : (إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من بشر وأنذر ، وقال : « (١) إن الله تعالى يعجب من سائل يسأل غير الجنة . ومن معط يعطى لغير الله ومن متعوذ يتعوذ من غير النار » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله ، وصحبه الوعاة ، الذين حرصوا على إسعاد الله لهم فى دنياه وأخراه .

أما بعد : فيا عباد الله :

حب الإنسان لنفسه ، وحرصه على منفعتها كما يدفعانه إلى الوقاية من برد الشتاء ، والبحث عن التدفئة — يدفعانه إلى الوقاية من حر الصيف . والسعى إلى التهوية ، وهو — لذلك — يعد الملابس المناسبة للجو ، قبل حلول فصله ، فيهيء الملابس الخفيفة ، قبل حلول فصل الصيف . وقد

---

(١) رواه الخطيب فى التاريخ ، عن عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنهما .

يسعى لاستئجار منزل على أحد شواطىء البحار ، ولو تعرض فيه لمعصية القهار ، وفتنة الاختلاط والسفور .

فهل فكرت — أيها المسلم — وأنت لا شك — محب لنفسك ، حريص على منفعتها — فى حر يوم كان مقداره خمسين ألف سنة : فيه يجتمع لقضاء(١) الله وحكمه وتوفية كل ذى حق حقه أهل السموات والأرض : ملك،وشيطان ، وجن . وإنس ، ووحش ، وطير ، وكل دابة : قال تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) .

وفى الحشر — أشرق عليهم الشمس ، وقد تضاعف حرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين : ليذوقوا من حرها ما لم يذوقوه من قبل ، وقد كان بينهم وبينها فى الدنيا مسيرة خمسمائة عام .

فى ذلك اليوم — يشتد الكرب والغم ، ويتدافع الخلائق لشدة الزحام ويجتمع حر الشمس . وحر الأنفاس ، واحتراق القلوب بنار الحياء . والخوف ، ويفيض العرق من مسام الأبدان حتى يسيل على أرض القيامة ثم يرتفع إلى الأبدان ، على قدر مراتب الناس ، عند الله بحسب أعمالهم فى الحياة : قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : «(٢) تدنو الشمس يوم

---

(١) فى القرآن الكريم : (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) ، والقضاء بين الملائكة بالحق : بإقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم .

(٢) رواه مسلم عن المقداد : رضى الله عنه .

القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل(١) ، فيكون الناس على قدر أعمالهم : فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه — خصريه(٢) — ومنهم من يلجمهم العرق إلجاماً : وأشار رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بيده إلى فيه : فمه » .

أفلا يتصور كل منا ذلك ، ويعمل مقارنة بين حر الدنيا وبين حر الآخرة فاعتبر ، وقال لنفسه : أين حر الدنيا وعرقه ، ومضايقته : من الحر والعرق يوم المحشر ، فتاب ، وأناب ، وعمل صالحاً ، وأرضى غفار الذنوب ، صاحب الملك وحده .

يا قوم :

من الناس — من ينادى ربه فى لهفة يوم المحشر ، مما يعانى : من حره ، وكرب عرقه ، فيقول : « يا رب ارحمنى من هـذا الكرب والانتظار ، ولو إلى النار » .

يا للهول : تبلغ شدة الكرب بالإنسان، فى يوم القيامة ، يوم يلجمه العرق أن يسأل الله الراحة من هذه الحال ، ولو بالذهاب إلى النار : كأنما أهون مما يقاسيه ، وأين منها ماهو فيه (قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون)، وقد صور رسول الله صلى الله عليه وسلم شدتها ، فقال : «(٣) ناركم هذه

---

(١) قال سليم بن عامر : والله ما أدرى : ما يعنى بالميل : مسافة الأرض ، أو الميل الذى تكحل العين .

(٢) الخصر: وسط الإنسان ، فالمراد بخصريه : جانباً وسط الإنسان.

(٣) رواه الترمذى ، عن أبى سعيد (رض) .

جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم لكل جزء منها حرها) .

عبد الله :

ماذا أعددت لهذا الهول ؟ أأعددت جهاز تكييف الهواء ، وجهاز بارد الماء ؟ والظل الظليل ، والسفينة : للنجاة .

لا . لا : إنك تجيء يوم القيامة : لا شيء معك : مما تفضل به عليك مولاك فى الدنيا : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولنا كم وراء ظهوركم) .

فى ذلك اليوم الشديد ـ لا ظل إلا ظل عرشه ، ولا حماية إلا حمايته .

وممن يظلهم الله فى ذلك اليوم الأصناف السبعة فى قوله : صلى الله عليه وسلم : «(٢) سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، — ذلكم الحاكم العادل فى حكمه ، ورب البيت العادل فى أسرته — وشاب نشأ فى عبادة الله : عز وجل : جاهد نفسه من صغره ، حتى استقرت على طاعة الله ـ ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله : اجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه — : أى لا للدنيا . ولا المال . ولا الجاه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة ، فأخفاها . حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ـ : فهو إذاً — لا يجرح بتصدقه إحساس من تصدق عليه — ورجل ذكر الله خالياً ، ففاضت عيناه) : أى ذكر الله ، وجلاله ، وأنه لم يقم بحقه ،

---

(١) من التخويل ، وهو التمليك .

(٢) رواه مالك وأحمد . والبخارى . ومسلم . والترمذى . والنسائى ، =

. . . .

= على أبي هريرة : رضى الله عنه ، وفى هذا الحديث النبوى الشريف — قال الإمام ، أبو محمد ، عبد الله بن أسعد ، اليافعى ، اليمنى ، نزيل الحرمين الشريفين : تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته — قصيدته المسماة — معالى الرفعة — فى حديث السبعة : وهى هذه :

رويناحديثاًفىالصحيحين: سبعة   يظلهم المولى بخير ظلال
يظلهم فى ظله الله يوم لا   سوى ظله ظل فهاك مقالى
إمام له عدل ومن فى عبادة   نشا بالتقى لله . لا بضلال
ومن قلبه يهوى المساجد دائماً   تعلقه فيها بغير زوال
وشخصان فى الله الكريم تحابيا   بحال افتراق منهما ووصال
وإنى أخاف الله من قال عندما   دعت ذات عالى منصب وجمال
ومصدق أخفى التصدق لم يكن   بما أنفقت يمناه علم شمال
ومن ذكر الرب المهيمن خالياً   ففاضت بعيناه : خوف نكال
وخوف القلى والهجر بعد وصاله   وشوقاً إلى رؤيا جمال جلال
فأكرم بهم من سبعة طيبى الثنا   وأكرم بها فى القوم سبع خصال
وأكرم به فخراً سما كل مفخر   ومجد فعال فوق كل فعال
بمقعد صدق تحت عرش مليكهم   تجلى لهم باهى جمال كمال
تراهم ملوكاً فوق نجب من البها   وغرفات در كالنجوم عوالى
على سرر الياقوت فى فرش سندس   وحور من النور المضىء غوالى
وما تشتهيه النفس من كل لذة   ومن زينة والكل ليس ببال
وما لا ترى عين وتسمع أذن ذى   سماع ويخطر الأنام ببال
هنيئاً لهم طوبى لهم تم سعدهم   أنيلوا نوالا خير كل نوال=

فيبكى : خوفاً ، وحياء منه ، وشوقاً إلى رؤية وجهه الكريم فى دار النعيم ، يوم القيامة : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

عبد الله :

إن الأمر — جد . لا هزل ، ويوم القيامة — لا ينفع فيه حسرة . ولا ندامة ، وإنما النافع — ما قدمته الآن ، وأنت قادر على طاعة الديان ، فن أراد النجاة فيه . والظل من حره — فليحاسب نفسه ، وليس فى الطريق ، الذى يسأل الله أن يوفقه للسير فيه على الدوام ، وهو يقرأ فاتحة الكتاب : تالياً قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

عباد الله :

اتقوا الله ، وأعدوا من اليوم — المظلات الواقية ، يوم الغاشية : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يلق ابن آدم شيئاً منذ خلقه الله عز وجل أشد عليه من الموت . ثم إن الموت أهون مما بعده ، وإنهم — أى الخلق — ليلقون من هول ذلك اليوم شدة ، حتى يلجمهم ، العرق حتى أن السفن لو أجريت فيه لجرت » رواه الإمام أحمد ، والطبرانى فى الأوسط ، عن أنس : رضى الله عنه .

= وليس ببال أى ليس كالقميص البالى ، الذى أصبح خلقاً ، والبال من : ويخطر للأنام ببال هو القلب ، فليس فى القصيدة إذاً عيب التكرار للفظ واحد بالقافية ، المسمى — الإيطاء .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم رب جبريل(١) . وميكائيل ، ورب إسرافيل أعوذ بك من حر النار ، ومن عذاب القبر » رواه النسائى ، عن عائشة رضى الله عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم رب جبريل . وميكائيل . وإسرافيل ، ومحمد ـ نعوذ بك من النار » : رواه الطبرانى ، فى معجمه الكبير ، والحاكم فى مستدركه ، عن والد أبى المليح رضى الله عنه .

---

(١) هو سيد الملائكة ، وأمين الوحى بين الله تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام ، وقد قال تعالى : (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) ، وميكال هو ميكائيل ، وجاء هذا اللفظ أيضاً فى قراءة أخرى ، وهو الموكل بأرزاق العالم وتدل الآية الشريفة على فضل ميكائيل أيضاً ، كما يدل الحديث الشريف المذكور على فضل إسرافيل أيضاً : بإضافة لفظ رب إليه ، وقال الإمام القرطبى فى التذكرة قال علماؤنا : والأمم مجمعون على أن الذى ينفخ فى الصور — إسرافيل عليه السلام .

١ – الاستعداد لسؤال الله يوم اللقاء الأعظم

الحمد لله : يجزى كل امرىء بما فعل : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، يسأل يوم القيامة عما كثر وقل من الأعمال، وقد قال : (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من أمضى عمره فى طاعة الله ونبه للاستعداد ليوم الحساب وسؤال الله ، وقال : «(١) ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله : ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أيسر منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه ، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الذين عملوا ليوم الحساب ، فكانوا – كما قالوا : (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) .

أما بعد :

فأحد كبار أسلافنا الصالحين ، بشر بن الحارث – اشتد به الجوع يوماً ، فقال لأخته : جوفى . وخواصرى - تضرب على ، فقالت له أخته: أتأذن لى ، حتى أصلح لك قليل حساء - مرق - بمقدار كف دقيق عندى : تتحساه : تشربه : يرم جوفك . فقال لها : ويحك - يا رحمة الله - أخاف

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه .

أن يقول الله لى ، من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى إيش أقول له ؟

قال عمر بن أخته : فبكت أمى ، وبكى معها بشر خالى ، وبكيت معهما .

ولما رأت أمى ما به من شدة الجوع ، وهو يتنفس نفساً ضعيفاً - قالت له من شدة تأثرها : يا أخى . ليت أمى لم تلدنى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك ، فنظر إليها ، وحساب الله وسؤاله - قد ملكا عليه نفسه ، حتى كان يود ألا يكون قد وجد ، وألا يكون قد بلغ حد المسئولية ، فقال لها : وأنا فليت أمى لم تلدنى ، وإذ ولدتنى - لم يدر ثديها على وكانت أخته أم عمر تبكى عليه الليل والنهار : لإتعابه نفسه من شدة محاسبتها : تقديراً منه لعظم سؤال الله له يوم الحساب .

ألا نلتبه — يا قوم — فوالله : إن سؤال الله لعباده — جد لا هزل قال الله عز وجل : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) .

وإن أحدنا إذا حدد له ميقات يوم معلوم : ليقف أمام حاكم ، يسأله عن شىء أو يحاسبه عليه - فكر طويلا فى هذا الأمر ، كيف يقابله ، وماهى الأسئلة التى سيسألها ، وكيف يجيب عليها - بما فيه خير له ، وهل سيوفق أو يخذل ، وربما استشار أهل الذكر بمثل موقفه ، وأعد للموقف عدته : ليخلص من همه الذى أزعجه ، وأسهر ليله . وشغل نهاره ، وأقبل إلى الله ، متضرعاً : لينصره : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) :

هذا حال العبد فى تقدير موقفه : للسؤال بين يدى مخلوق مثله ، قد تنطلى عليه الحيلة ، ويجوز عليه الغش والخداع ، ويفيد معه الجدل والمراء .

فكيف يكون تقدير موقفه بين يدى مذل الجبابرة ، ومهلك القياصرة ، مالك

الملوك ، وسيد كل مالك ومملوك ، العزيز الجبار ، الواحد القهار ، القوى المتين ، أحكم الحاكمين : (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (يعلم السر وأخفى) (لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) .

أحصى جميع أعمال العبد ، وسجلها فى كتاب ، ويقول له يوم سؤاله : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) ، فيقرؤه خائفاً وجلا ، فيجده لكل ما قدم حافلا : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

وحينئذ يسأل الله العبد عما قدمت يداه : ليتجلى عدل الله وفضله عليه باعترافه وإقراره ، بلا أدنى اشتباه ، كما وصف نفسه ، فقال : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) .

ومما يسأل عنه العبد ـ أربع خصال ، ائتمنه الله عليها فى دنياه . فمن قام فيها بما يجب ـ كان حافظاً لجميع الأمانات التى طلب منه حفظها وسيسأل عنها تفصيلا ، ومن لم يقم بما يجب كان مضيعاً لكل ما اؤتمن عليه .

ولن يغادر الموقف بين يديه تعالى ـ إلى الجنة ، أو إلى النار ، حتى يسأل عن هذه الخصال الأربع ، أو تلك الأمانات .

فمن كان قد حفظها من الضياع ـ فاز وأفلح ، وكانت الجنة مثواه ، وإلا ـ خاب وخسر ، وكانت النار مأواه : قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : «(١) لن تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى تسأل عن أربع خصال عن عمره ،

---

(١) رواه البزار والطبرانى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

عُمُرِه فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله : من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه وعن علمه : ماذا عمل فيه ؟

واعلم — يا عبد الله — أن جزاء تضييع هذه الأمانات ، أو تبديدها وتعدى حد الله فيها ـ ليس رد الأمانات إلى أهلها ، أو الحبس أياماً معدودة فى سجن : فيه المستساغ من المآكل والمشرب ، بل الجزاء — سجن جهنم ، الذى طعامه الضريع(١) والزقوم(٢)، وشرابه الغساق(٣) والحميم(٤)، وسجانوه (ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

قال تعالى: (إن جهنم كانت مرصاداً(٥) للطاغين(٦) مآباً(٧) لابثين(٨) فيها أحقاباً(٩) لا يذوقون فيها برداً(١٠) ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً جزاءاً وفاقاً(١١) إنهم كانوا لا يرجون(١٢) حساباً) .

---

(١) نوع من الشوك لا ترعاه دابة لخبثه .
(٢) من أخبث الشجر المر بتهامة . ينبته الله فى الجحيم .
(٣) هو صديد أهل النار .
(٤) هو ماء شديد الحرارة .
(٥) ترصد وتراقب الكفار ، ومثلهم العصاة .
(٦) المتجاوزين حدود الله تعالى .
(٧) مرجعاً .
(٨) مقيمين .
(٩) دهوراً طويلة ، ولا نهاية بالنسبة للكافرين .
(١٠) راحة أو نوماً .
(١١) موافقاً لقبح أعمالهم .
(١٢) فما كانوا يخافونه .

فاحذر - يا عبد الله - أن تكون مثل هؤلاء الطغاة الذين تجاوزوا حدود الله ، إذ لم يخافوا حسابه ، ولم يقدروا سؤاله لهم ، فكانت جهنم مقامهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «(١) إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله ألا يعيدها فيها» ، وقال صلى الله عليه وسلم : «(٢) لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون، ثم تنفس رجل من أهل النار لأحرقهم» .

فاستمع إذاً : لتجاهد نفسك : السلامة منها ، ومن غضب الله على العصاة : إن عمر الإنسان الذى حدده الله - هو رأس ماله فى الحياة ، فليحترز عليه من الإنفاق وتمضيته فى غير ما يرضى الله : لخير دنياه وأخراه .

أيها المسلم :

دقات قلب المرء - قائلة له	إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها	فالذكر للإنسان عمر ثانى

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام : «واجعل لى لسان صدق فى الآخرين» أى ذكراً حسناً ، وقد استجاب الله له ، وأعان أن كل من أحسن العمل - يمنحه عز وجل - ذلك الذكر الحسن ، الذى يثمر الدعاء لصاحبه، والاقتداء به ، بحيث يكون له مثل أجر من به اقتدى : قال سبحانه وتعالى : (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين) .

فاعمر أوقات عمرك ، التى تمر سراعاً ، من غير أن تعمر - بطاعة الله : ليحسن ذكرك ، الذى به يطول عمرك ، مهما قصرت مدته ، فالأعمار

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه .
(٢) رواه البزار فى مسنده ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

لا يقاس طولها بكثرة الأيام والليالى ، ولكن بجلائل الأعمال ، التى ترضى الكبير المتعال ، ولذلك ـ قال صلى الله عليه وسلم : «(١) خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله » ، واعلم أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه بما يعود عليك ، وعلى المجتمع الذى تعيش فيه ـ بالفائدة ـ قطعك ، وقربك من أجلك ، وأبعدك عن أملك ، واحذر أن تشغلك الدنيا عن الآخرة ، منتبهاً على الدوام — لقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) . ولا تقل غداً أتوب ، أو أصلى الضحى ، أو أرضى من ظلمته ، أو أنصر المظلوم ، أو أفعل كذا وكذا من الصالحات ، فإنك لا تملك الغد ، ولذلك قال لقمان لابنه : « يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة » ، وقد قال تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، أى عن قرب عهد بالخطيئة : بأن يندموا عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يتبعونها بها ، قبل أن يتراكم غطاء الخطيئة على القلب ، فلا يقبل المحو : لرسوخه ، فيشتد الخطر ، وتسوء العاقبة : بلقاء الله بالخطيئة عكس من تابوا من قريب ففازوا (فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً) .

فلا تؤخر إلى الغد ما تستطيع أن تفعله اليوم ، واعمل ولسان حالك يقول :

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل   إلى غد ان يوم العاجزين غد

والشباب من العمر هو مدة القوة فيه ، والقدرة على الطاعة . والعمل . والكسب والإنتاج .

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم ، عن أبى بكرة رضى الله عنه .

فلا تضيعها - أيها الشاب - فى الملاهى وغير مفيد ، ولا تبددها فى ارتكاب المحرمات ، وانتهزها فرصة ، وأمضها فى الجد والطاعة . وفعل الخيرات : لتكون الشاب الذى نشأ فى عبادة ربه ، الذى لا صبوة له ، ولا ميل له إلى فسق ، وقد أثنى عليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « (١) يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » ، وقد بشره(٢) صلى الله عليه وسلم برعاية الله ، وإظلاله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن أمضى شبابه فى طاعة الله — انتفع بذلك فى غده ، وزمن شيبته ، وهرمه : روى الترمذى ، عن عثمان بن عفان : رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : « إذا بلغ عبدى(٣) أربعين سنة - عافيته من البلايا الثلاث : من الجنون ، والجذام(٤) ، والبرص(٥) ، وإذا بلغ خمسين سنة - حاسبته حساباً يسيراً ، وإذا بلغ ستين سنة حببت إليه الإنابة ، وإذا بلغ سبعين سنة - أحبته الملائكة ، وإذا بلغ ثمانين - كتبت حسناته وألقيت سيئاته ، وإذا بلغ تسعين - قالت الملائكة : أسير الله فى أرضه ، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفع ، فإذا بلغ أرذل العمر(٦) كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير ، وإن عمل سيئة لم تكتب .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والطبرانى ، عن عقبة بن عامر : رضى الله عنه .
(٢) هذا التبشير فى الصحيحين .
(٣) أى الصالح التقى .
(٤) هو علة رديئة تنتشر فى البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها .
(٥) هو بياض يظهر فى ظاهر البدن . يشوه هيئة الإنسان .
(٦) أى الهرم وهو سن الخرف .

وقد جعل الله المال لتدبير شئون الحياة ، وقضاء الحاجات بها ، ووضع لكسبه وإنفاقه نظاماً ، من خالفه كان عاصياً ومرتكباً للحـــرام ، وعقباه جهنم .

فليكسب العاقل المـال من الطرق المشروعة كالتجارة والوظيفة الحكومية ، وليحذر كسبه من طريق حرام : كالسرقة ، والاغتصاب ، والربا ، والرشوة ، وأكل مال اليتيم . وأجر الأجير ، وحق الفقير ، وليحذر إنفاقه فى الحرام : مشروباً أو مأكولا ، أو ملبوساً ، أو شهوة ، وليعلم أن إنفاقه فى سبيل الله : لخير الفرد والجماعة - يقيه ويحصنه ، ويدفع السوء ويكسب مغفرة الذنوب ، وقد قال تعالى : (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) .

والعلم فضيلة : قال تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) ، وقد قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « (١) طلب العلم فريضة على كل مســـلم » ، فوجب تعلم العلم الدينى الذى - بالعمل به - تحسن علاقة العامل بالخلق والخالق ، وتصلح الأحوال ، ويحسن المآل .

ومن لم يعمل بمـا علم منه — حرم تلك الآثار ، ولا يرضى حرمانها عاقل .

وهل انتبه — لذلك من يسمع المواعظ ، فلم يعمل بما علمه منها . ولم

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، عن أنس بن مالك : رضى الله عنه ورواه غيره .

يتعظ ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «(١) أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه ، فإنها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر - أي رضي الله عنه - وإلا كانت حجة من الله عليه : ليزداد بها إثماً ، ويزداد الله عليه بها سخطاً » .

فيأيها المسلم :

اتق الله وتصور أنك فارقت الحياة ، وأن القيامة قد قامت ، وأنك أمام الله ، الذي هو أكبر من أن يقاس به سواه : يسألك عن عمرك فيم أفنيته ، وعن شبابك فيم أبليته . وعن مالك : من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته وعن علمك ماذا عملت فيه .

وتأمل أجوبتك حينئذ عن الأسئلة من عملك في الحياة ، فإن كان عملا صالحاً — فاحمد الله ، واستمر على صلاحك ، وازدد طاعة لمن بيده أمرك ، وسله تعالى توفيقاً على الدوام ، وإن كان عملا سيئاً — فتب إليه تعالى ، من فورك ، واستحى من محاسبك ، (العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) .

يا عباد الله :

جدوا في طاعة الله : استعداداً لسؤاله يوم لقائه الأعظم : لتفوزوا بجنته . والسلامة من ناره ، وتكونوا كبعض الصالحين الذى كان بالليل على سور المدينة التى كان بها — ينادى : الرحيل .. الرحيل — أى اذكروا ذلك — فلما توفى — فقد صوته أمير المدينة ، فسأل عنه ، فقيل : إنه مات ، فقال :

---

(١) رواه ابن عساكر ، عن عطية بن قيس رضى الله عنه .

ماذال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظاً ، متشمراً ذا أهبة لم تلهه الآمال

قال عبد الله بن عمر : رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كان يوم القيامة — دعا الله بعبد من عباده فيقفه بين يديه ، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله » رواه الطبرانى .

الحث على قتال إسرائيل إذا قاتلوا المسلمين

الحمد لله ، الذى شرف بنى الإسلام — بجهاد قتلة الأنبياء الصهاينة أشرار الأنام ، وقال : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) وقال : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد(١)) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : كتب الذلة والمسكنة على اليهود ، قساة القلوب والأكباد ، وقال : (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : قاتل اليهود ، وطردهم وأذلهم ، وقتلهم ، بعد توالى شواهد غدرهم وخياناتهم ، وأن الحياة غير ممكنة معهم ، وقال : «(٢) من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة — وجبت له نافة» ، وقد أنزل الله

---

(١) المراد بهم من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس : من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

(٢) روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال « مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة : فأعجبته . فقال لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب . ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ : قال : لا تفعل . فإن مقام أحدكم فى سبيل الله — أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً . ألا تحبون أن =

تعالى عليه قوله : (لتجدن أشـــد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد سيد المجاهدين ، وعلى آله وصحبه ، أسود القتال ، وغيوث الندى وبلوغ الآمال .

أما بعد : فيابنى الإسلام ، ويا أتباع خير الأنام :

دبر اليهود لقتل نبيكم فأنجاه الله ، ونقضوا - بعد غزوة بدر - ما عاهدوا المسلمين عليه ، وتعدى يهودى تعدياً معيباً على امرأة من العرب : كانت تشترى فى سوق يهود بنى قينقاع ، فاستغاثت ، فأغاثها مسلم ، وقتل اليهودى ، فقتله أولئك اليهود .

وبذلك - وقع الشر بينهم وبين المسلمين ولما حذرهم ﷺ عاقبة البغى ونقض العهد - قال رؤساؤهم فى غرور مهونين من شأن النصر ببدر .

يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

فخرج إليهم رسول الله بجيش المسلمين وجند الله المؤمنين ، فدخل الجبناء ديارهم ، كما تدخل الحشرات جحورها : من الخوف ، فحاصرهم ﷺ خمس عشر ليـــلة : فى آخرها نزلوا على حكمه - أذلاء صاغرين ،

= يغفر الله لكم ، ويدخلكم الجنة . اغزوا فى سبيل الله من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة — وجبت له الجنة » . والشعب : بكسر الشين هو الطريق فى الجبل ، وعيينة : تصغير عين ، وعذبة أى سائغة الشراب ، وفواق ناقة أى قدر زمن فواق ناقة ، وهو ما بين الحلبتين .

فأجلاهم عن المدينة ، فخرجوا منها إلى أذرعات موضع بالشام ، تنسب إليه الخمر ، وما أشبههم بها فى القذر والضرر .

وما زال اليهود غير هؤلاء - بالمدينة وما جاورها - يضمرون الحقد على النبى والمسلمين تظهره طائفة منهم تلو أخرى ، وحكم الله ورسوله - كالسيف القاطع - مسلط عليهم : بالطرد تارة ، والقتل أخرى ، حتى طهرت منهم تماماً شبه الجزيرة العربية على يد والى المسلمين الملهم ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولقد كشف القرآن الكريم حقيقتهم ، كما كشف حقيقة المستعمرين أنصارهم ، حتى لا يغتر بهم عاقل ، ولا يرهبهم عزيز .

فاسمعوا . وعوا . وانتفعوا : قال تعالى فى اليهود : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) ، وقال : جل شأنه فى المستعمرين الظالمين : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) فما فرقة من العداوة والبغضاء بينهم ، بل اسمعوا وصف جبنهم ، وضعف قلوبهم : مدوياً فى قول من يغلب ولا يغلب : (ومن أصدق من الله قيلا) : (لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

فليكن فى وزننا لإمكانياتهم لقلوبهم الخائرة الضعيفة - على ضوء هذا القول الحق المبين : لمن دون قوته كل قوة ، وما القوة إلا منه وحده (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

فيا أتباع سيد الوجود ، وأتباعه الأسود : قال تعالى (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت(١) ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

فاتقوا الله ، وكونوا - كأسلافكم - فى قتال عدوكم الباغى المعتدى: إسرائيل والمستعمرين ، كونوا رجالا ثابتين كالجبال : الإيمان ملء قلوبكم ، والسلاح بشجاعتكم - نار على العدو - فى أيديكم ، وتقوى الله زادكم ، ولباسكم .

ومن تقوى الله — جهادكم عدوكم — بمالكم ، وبأنفسكم ، وبألسنتكم موجهة لضره وداعيـــة وذاكره الله تعالى كذلك ، وبأيديكم ضاربة له . وبأولادكم : ليزقوه ويقضوا عليه .

وثقوا حينئذ - أن الله معكم - كما كان مع أسلافكم ، ومن كان معه الله ، كان معه كل شىء : (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

لقد تلاقى جيش الفرس : المجوس : عبدة النار ، وجيش العرب المسلمين : عبدة الواحد القهار ، فى القادسية : بلدة قرب الكوفة : بالعراق واستمرت المعركة أياماً وليالى ، ولم يكن أشد على المسلمين من الفيلة : لنفار خيل العرب منها ، حتى عرفوا ممن أسلموا من الفرس ، قبيل الحرب

(١) الشيطان .

- أن الانتصار على الفيلة - بضرب عيونها وخراطيمها ، ففرت الفيلة بذلك .

وبعد لقاء فى النهار - نهض الجيشان من أذان العشاء إلى وقت الظهيرة ، وترك المسلمون الكلام فى المعركة ، فما كان يسمع إلا صوت الحديد : من السيوف المتلاقية : كأنما ساحة القتال سوق الحدادين .

وانتهى الأمر بهزيمة جيش الفرس ، الذى كان يفوق جيش المسلمين ، عدداً وعدداً ، وقتل رستم : القائد ، الذى بلغ من شهرته - أن سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه - كتب - حين بلغه توليته قيادة جيش الفرس ، إلى قائد جيش المسلمين ، سعد بن أبى وقاص : يقول له : « لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله ، وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا : من أهل المنظرة ، والرأى : يدعونه : « أى رستم - إلى الإسلام » ، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم : « لرستم . وجيشه » وفلجاً « ظفراً . وفوزاً » عليهم .

وهكذا — لم تغن الفرس كثرة الرجال ، ولا الأفيال ، ولا عظم الإمكانيات .

وانتصر أسلافكم ، من شملتهم عناية ناصر الحق ، الملك الحق ، القائل (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، وقال تعالى (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) .

عن عبد الله بن أبى أوفى : رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ : فى بعض أيامه : التى لقى فيها العدو — انتظر ، حتى مالت الشمس — ثم

تفاؤلا بانتقال الحال من الكرب إلى الفرج — ثم قام الناس — لحذر من الإعجاب بالنفس، والاتكال عليها، والاغترار بقوتها: فالسلامة من البغى(١) فعلى الباغى تدور الدوائر، ولتوقى قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره، فليس ذلك من الحزم، والسعى إلى النصر — فمن كان عدوه نملة — فلا ينم له — فقال صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. فإذا لقيتموهم — فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم منزل الكتاب. ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب. اهزمهم، وانصرنا عليهم»: رواه البخارى. ومسلم — فى صحيحيهما.

وقال صلى الله عليه وسلم: «ثنتان(٢) لا تردان أو قلما(٣) تردان: الدعاء عند النداء(٤)، وعند البأس(٥) حين يلحم(٦) بعضهم بعضاً»: رواه أبو داود.

---

(١) كما فعلت إسرائيل بعدوانها على العرب وبدئها قتالهم فى الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين الموافق ٢٧ من صفر سنة ١٣٨٧ هـ، ٥ من يونيه سنة ١٩٦٧ م.

(٢) فى كثير من نسخ متن رياض الصالحين للإمام النووى اثنتان. والمراد دعوتان.

(٣) شك من الراوى، وإذا أريد بالقلة العدم كان لا فرق بين القولين. وإذا أبقى القول على ظاهره — كان معناه أن رد الدعوتين نادر.

(٤) الأذان والإقامة. (٥) الحرب.

(٦) ورد بالحاء المهملة، فيكون المعنى: يتقاربون. فيصيرون كالذين =

وقال أنس : رضى الله عنه : « كان رسول الله : صلى الله عليه وسلم إذا غزا — قال : اللهم أنت عضدى(١) ، ونصيرى ، بك(٢) أحول ، وبك أصول(٣) وبك أقاتل(٤) » : رواه أبو داود ، والترمذى ، وعن أبى موسى الأشعرى : رضى الله عنه — أن النبى ﷺ — كان إذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نجعلك(٥) فى نحورهم(٦) ، ونعوذ(٧) بك من شرورهم » : رواه أبو داود .

= يلتصق لحم بعضهم ببعض ، وورد بالجيم . المعجمة ، فيكون المعنى حين يلجم بعضهم بعضاً بالسلاح .

(١) العضد : هو الساعد . وهو من المرفق إلى الكتف . والمراد : والمراد : بقوله : أنت عضدى : أنت نصيرى .

(٢) أنتقل من شأن إلى غيره .

(٣) أثب على العدو أو أستطيل عليه .

(٤) فى هذا إعلان العبد الاعتماد على الله تعالى وحده ، وأنه غير مغرور بنفسه وهذا خير توسل لنصره : سبحانه وتعالى .

(٥) نجعل أمرك أو حكمك .

(٦) جمع نحر وهو موضع القلادة من الصدر .　　(٧) نتحصن .

أساس النصر بعد صدمة العرب

في يونيو سنة ١٩٦٧

الحمد لله، الذى لا راد لما قضاه، ولا إله غيره ولا معبود سواه، القائل: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

وأشهد أن لا إله إلا الله: ابتلانا بالغرب، الذى لا يكف عن أذانا خطه بالشام فى تل حطين، وهزمه شر هزيمة وحطمه على يد البطل العربى صلاح الدين، وجند الله المتقين، وقد قال تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة — أى ابتلاء. وامتحاناً — أتصبرون وكان ربك بصيراً) أى بمن يصبر، «(٢) والصبر ضياء»، أى للغد المشرق بالاستعداد للنصر والسعادة: قال ذلك هادينا: ﷺ، فآمن واعمل — أيها المسلم.

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله: حول — بالإيمان والعمل — الهزيمة نصراً، وشحذ العزيمة وحدها، فضحى بالحق لإزهاق الباطل، فكسب المسلمون — بذلك — مع النصر — أجراً، وقد أنزل الله تعالى

---

(١) كانت هذه الصدمة باعتداء إسرائيل وأمريكا وبريطانيا على الدول العرب فى صباح يوم الاثنين الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ م، وطلب مجلس الأمن وقف إطلاق النار، استجابت له إسرائيل فى اليوم السادس من يونيو سنة ١٩٦٧.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك عاصم الأشعرى: رضى الله عنه.

عليه قوله : (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذين صبروا ولم يستسلموا ، ونصب أعينهم قوله تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) .

أما بعد :

فقد أرسل — صاحب ذكرى المولد العطرة فى ربيع الأول ﷺ الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى : موضع بالشام ، فلما بلغ مؤتة : قرية بالشام — تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، وأمر بضرب عنقه — لما علم أنه من رسله : ﷺ ، الذين يرسلهم بكتبه إلى حكام الجهات : لدعوتهم إلى الإسلام ، دين الحرية والإخاء والسلام ، ولم يقتل لرسول الله رسول سواه . وقد ألم لذلك ﷺ ألماً شديداً وأرسل جيشاً عدته ثلاثة آلاف مقاتل : للقصاص ممن قتلوا الحارث ، وأقاموا العقبات والعراقيل فى طريق دعوة الحق . وعين زيد بن حارثة قائداً للجيش ، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، وودعهم بعد أن وصاهم بما يشهد أن الإسلام دين العدل والحق ورسوله رسول الرحمة فى الحرب كما هو رسولها فى السلم ، قال : ﷺ : « اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً فى الصوامع : معابد النصارى — معتزلين — فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ، ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناء » .

ولم يزل الجيش سائراً ، حتى وصل مؤتة ، حيث قتل الحارث .

وهناك ـ وجد مفاجأة ـ كما وجد الجيش العربي الآن في دفاع إسرائيل .

وجدوا الروم ، إحدى الدولتين الكبيرتين حينئذ بجمعين لهم جمعاً عظيماً : منهم . ومن العرب المتنصرة : كما وجد العرب اليوم ـ مع إسرائيل ـ أمريكا : أقوى دول العالم ، وبريطانيا .

فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه : أيطلبون مدداً من رسول الله ؟ أم يقدمون على المحارب ؟ فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم والله إن الذي تكرهون ـ هو ما خرجتم له : خرجتم تطلبون الشهادة ـ ، والشهادة في سبيل الله ـ خير حياة ، ـ ونحن ما نقاتل بقوة . ولا بكثرة : ما نقاتل إلا بهذا الدين ، الذي أكرمنا الله به ، فإنما هي إحدى الحسنيين : إما الظهور : العلو على الأعداء والانتصار عليهم ـ وإما الشهادة ، فقال الناس : صدق ـ والله ـ ابن رواحة ، ومضوا للقتال ، فلقوا هذه الجموع المتكاثرة ، فقاتل زيد ، حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفر ، وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبــة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيــدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل ، حتى استشهد : رضى الله عنه ، فأخذ الراية ـ عبد الله ابن رواحة ، وخاطب نفسه : دافعاً لها غاية الدفع قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنــه   طائعــة أولا لتكرهنــه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه   مالي أراك تكرهين الجنــه
قد طالما قد كنت مطمئنــه   هل أنت إلا نطفة في شنه(١)

---

(١) الشنة : القربة الخلق . البالية .

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ، ولم يزل يقاتل : رضى الله عنـــه ، حتى استشهد .

فهم بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء ، فقال لهم عقبة بن عامر : يا قوم : يقتل الإنسان مقبلا - خير من أن يقتل مدبراً ، فتراجعوا ، واتفقوا على تولية الشهم الباسل ، خالد بن الوليد قائداً لهم وأميراً عليهم .

وبهمته ، ومهارته الحربية - حمى الجيش العربى المسلم من الضياع ، إذ ما يفعل ثلاثة آلاف مقاتل فى مائة وخمسين ألفاً ، فإنه لما أخذ الراية - قاتل يومه قتالا شديداً وفى غده - خالف ترتيب العسكر ، لجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة فظن الروم أن المدد جاء المسلمين ، فرهبوا .

ثم أخذ خالد الجيش ، وصار يرجع به إلى الوراء حتى انحاز إلى مؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ، ثم تحاجز الفريقان ، لأن الكفار ظنوا الأمداد تتوالى للمسلمين ، وخافوا أن يجروهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص .

وبذلك — انقطع القتال .

وعاد المسلمون إلى المدينة .

وقد نعى النبى صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فنعى الميت والإخبار بموته سنة ، وفيه نفع له : من نحو الدعاء له . وقد كانت عينا رسول الله حين نعيهم - تذرفان ، وتسيل دموعهما : من رقة القلب . فلا إثم فى البكاء على الميت : إنما الإثم فيما(١)

---

(١) ولعل بكاء نساء جعفر - كان معه ما يدل على الجزع ، ولذلك - =

يكون مع البكاء : مما يدل على الجزع : كالكلام الذى فيه اعتراض على القدر ، الذى يسخط الله سبحانه وتعالى ، وكلطم الخدود ، وشق الثياب .

ولما أقبل الجيش إلى المدينة — قابلهم المسلمون يقولون لهم: يافرار، فقال ﷺ : بل هم الكرار .

ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش - هزيمة ، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وحيلها ، وأثنى على خالد فى مهارته .

وقد قال ﷺ : «(١) الحرب خدعة(٢) » .

وهل اعتبرتم — يا قوم — فما كان إلا خيراً وحزماً انحياز جيوشنا العربية ، أمام العدوان الثلاثى الغاشم من بريطانيا ، وفرنسا ، وإسرائيل : أحقر الخلق، المضروب عليهم الذلة ، والمسكنة ، الذين انتصر العرب عليهم فى العاشر من شهر رمضان(٣) المعظم ، بفضل وحدتهم ، وبذلك كسبوا تقدير العالم .

وانتباهاً ، انتباهاً : أيها المسلمون :

= أمر الرجل الذى أخبره ببكائهن أن ينهاهن ، ولما جاءه ثانياً ـكرر الأمر فلما جاءه ثالثاً وقال : والله لقد غلبننا ـ قال صلى الله عليه وسلم : أحث فى أفواههن التراب .

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، عن أبى هريرة : رضى الله عنه.

(٢) فتح الخاء أفصح من ضمها .

(٣) فى سنة ١٣٩٢ هجرية ، وكان هـــذا اليوم يوافق السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ م

خالد بن الوليد ، الذى أعانه ربه بحسن التـــدبير حتى رجع بالجيش فى موقعة مؤتة عن الروم ، وأعوانهم كياسة وحزماً ، لا فراراً وانهزاماً — وجد رضى الله عنه فى وادى اليرموك(١) بالشام — أن المسلمين خمسة جيوش بقيادة خمسة قواد : هو أحدهم ، وكان عدد هؤلاء جميعاً أربعين ألف مقاتل أمام جيش الروم ، الذى كان عدده أربعين ومائتى ألف مقاتل .

فعمل رضى الله عنه على أن يقاتل الروم المسلمون ، وهم جيش واحد ـ كما أن الروم جيش واحد ، على أن يكون كل قائد من الخمسة قائداً فى يوم وكانت القيادة له : رضى الله عنه فى اليوم الأول . وإذا كان جيش الروم ستة أمثال جيش المسلمين ـ ففرق بين الهدفين : بين من يقاتل فى سبيل الله والحق والعدل ونصر الفضيلة ـ وبين من يقاتل فى سبيل الشيطان ، ونصرة الرذيلة . والظلم . والباطل : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) .

ولذلك لما سمع خالد رجلا يقول : ما أكثر الروم ، وأقل المسلمين ـ قال رضى الله عنه : ما أقل الروم وأكثر المسلمين .

فالمسلمون ـ بإيمانهم ، وحسن هدفهم ، الذى وصلهم بربهم ـ هم ـ بعون الله ـ كثيرون ـ مهما قل عددهم ولذلك لما التقى الجيشان ـ تجلت بسالة المسلمين وشجاعتهم ، وبالرغم من استمرار القتال طول النهار ، ومعظم الليل ـ كانت الدائرة على الروم ، وانهزموا شر هزيمة ، وذهبت الكثرة

---

(١) واد فى الجنوب الشرقى من الشام .

الظالمة ، أمام القلة العادلة ، وصدق الله العظيم ، إذ قال : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) : المؤمنين بربهم ، وبعدالة قتالهم ، وبنصرهم ، وحسن جزائهم إذ قتلوا شهداء : (فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

فياقوم :

اصبروا ولا تيأسوا من روح الله ورحمته . بتبديل صدمتكم : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

والله : جل جلاله ، الذى منه النصر وحده : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

كما ابتلانا سبحانه بعدم تدمير إسرائيل الآن قريباً ينصرنا(١) إن شاء الله ، ويخذلهم : كما نصر خالداً ، وجند المسلمين ، فى موقعة اليرموك ، على الروم ، بعد حرمانهم ذلك النصر عليهم فى موقعة مؤتة وأساس نصر الله إعداد القوة المادية للأعداء بقـــدر الاستطاعة . وتقوى الله على الدوام والاستمساك بتعاليم دينه ، فتوبوا إلى الله تعالى ، واتقوه فى جميع الأوقات والأحوال ، واستعدوا لدفع عدوكم بما استطعتم . من أسلحة القتال : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال جل شأنه : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) .

وقال شريح بن الحارث : سمعت رجلا من أصحاب النبى : صلى الله عليه

---

(١) وقد تحقق ذلك النصر ، ثم تم الصلح بين مصر وإسرائيل .

وسلم يقول النبي ﷺ : قال الله : عز وجل : (يابن آدم قم إلى أمش إليك ، وامش إلى أهرول إليك) رواه الإمام أحمد .

وقال صلى الله عليه وسلم : « احفظ الله تجده أمامك : تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة : واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك . وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً) . رواه عبد بن حميد ، في مسنده ، عن ابن عباس : رضى الله عنهما .

الاعتبار بغزوة الأحزاب

الحمد لله ، الذى صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : قدرته فوق كل قدرة . ومن نصر دينه نصره ، ورفع قدره : (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير هاد للخلق ، وأجل قائد نصر الله به الحق (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، جند العدل والإنصاف ، والحق .

أما بعد : فيا عباد الله :

بنى أبرهة : ملك اليمن كنيسة بصنعاء : وأراد أن يصرف إليها الحجاج من مكة ، فتغوط بها رجال من قبيلة كنانة ، ولطخ قبلتها بالعذرة : احتقاراً لها ، فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة ، وقصد مكة لذلك بجيش كبير . أمامه فيل يسمى محموداً :

وكان ذلك فى عام ولادته : ﷺ .

فوجد أبرهة خارج مكة إبلا لعبد المطلب : جد رسول الله ﷺ ، فأخذها ، فجاء عبد المطلب طالباً لها ، فلامه على أن يكلمه فى الإبل .

ولا يكلمه فى شأن البيت ، الذى هو شرفه ، وشرف آبائه وقومه ، فقال عبد المطلب : أنا صاحب الإبل . . . وأما البيت — فله رب يحميه .

وذهب إلى البيت ، واستغاث بربه : قال : فأبطل صاحب البيت : جل شأنه — كيد أبرهة وجنده ، وضيع تدبيرهم السوء فى هدم الكعبة : أرسل عليهم جماعات من الطير : ترميهم بحجارة من سجيل : من طين محرق : حوت جراثيم وميكروبات داءى الجدرى والحصبة ، حتى هلكوا .

وفى ذلك — قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) ، كورق زرع أكلته الدواب وداسته . والله تبارك وتعالى ، ذو القدرة الباهرة ، والقوة القاهرة — ليست جنوده ، التى بها يخذل الباطل ، وينصر الحق — مقصورة على نوع معين من السلاح ، ولا صورة خاصة من خوارق العادات .

إن جنوده : سبحانه — أعم من أن تكون مادية أو معنوية : كإلقاء الرعب فى القلوب ، وإذا كانت مادية — فليس خطرها - فقط - فى ضخامتها - فقد تفتك جرثومة صغيرة : ميكروب لا تراه العين - بجيش كبير وحقاً :

كل خلق الله جنـــد إن ترد يا رب حربا

(وما يعلم جنود ربك إلا هو) ، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

فلنستمع معتبرين ، ولنعتبر آملين ، ورجاؤنا عظيم فى الله ، الذى لا ناصر سواه (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً) .

يا قوم :

اجتمع الأحزاب : اليهود . وقريش . وغطفان ، ومن أعانهم من الكفار — على غزو المدينة المنورة ، وحرب الرسول وصحبه .

وماذا عسى أن يصنع المؤمنون — وهم فئة قليلة - مع هذا السيل الدافق : من أعداء الله ورسوله ، ولكن : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) ، (والصبر ضياء) - مهما كان ظلام الأمور حالكاً - سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة :

والاحتياط فى الأمور ، والأخذ فى الأسباب : لبلوغ المراد : كاتخاذ المخابىء ، ووسائل الوقاية - نظام مشروع : يرضى عنه الله تعالى وقد أخذ ﷺ يحفر بيده مع أصحابه ، ويحمل الأتربة والأحجار على كتفه ، ويقول من شعر صاحبه عبد الله بن رواحة ، وأصحابه يرددون الكلمات الأخيرة : من مقاطعه : ترويحاً للنفس ، وإزاحة للتعب :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وكان الفصل شتاء ، والجو بارداً ، وكانت المدينة تعانى - حينئذ - أزمة فى الأقوات : خيف أن تشتد إذا تعرضت لحصار عنيف ، وكان يخشى أن يكون - مع ذلك - يأس .

وكيف تكون مقاومة العدو مع اليأس لذلك - اجتهد النبى : ﷺ فى دعم القوى المعنوية لرجاله ، حتى يوقنوا بأن الضائقة التى تواجههم - تزول سريعاً : ومن ذلك - أن سلمان . ومن كان معه - اعترضتهم صخرة بيضاء

في الجزء الذي يحفرون فيه من الخندق ، فاستنجدوا برسول الله ﷺ ، فأخذ المعول من سلمان ، وضرب تلك الصخرة ثلاث ضربات ، تطاير منها شرر عند كل ضربة . فكبر ﷺ ربه ، وكبر المسلمون ، حتى تفتتت ، ونظر ﷺ إلى صحبه ، وقد أشرق على نفسه شعاع من الأمل الحلو ، والثقة بربه ، فقال يحدث عن الشرر المنقدح بين حديد المعول وحدة الصخرة : لقد أضاء لي - في الضربة - الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى : كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها - وفي الثانية - أضاء القصور الحمر : من أرض الروم : كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثالثة - قصور صنعاء : كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي الثالثة قصور صنعاء : كأنها أنياب الكلاب ، فأبشروا ، فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله : موعود صادق .

ومن هنا — لما تدفقت الأحزاب حول المدينة ، وضيقوا الخناق عليها ؛ كما صور الله ذلك بقوله : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) .

- قابل المسلمون . الصادقون في إيمانهم - ذلك الأمر المر - بالأمل الثابت ، في غد كريم ، ولم ييأسوا ، وسجل الله ذلك في قوله تعالى : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هـــذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتثبيتاً) .

وأما ضعفاء الإيمان ، والمرتابون . ومرضى القلوب - فقد تندروا بأحاديث الفتح ، وظنوها أماني المغرورين ، وقالوا عن رسول الله : يخبركم أنه يبصر من يثرب : من المدينة - قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنتم

تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا؟ وفيهم - قال الله : (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة - أي مكشوفة للعدو ، غير حصينة - وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) .

وذلك حين معاهدة رسول الله : ببيعة العقبة الكبرى . قبل الهجرة : إذ بايعوه : ﷺ على السمع والطاعة ، وعلى نصرته ، ومنعه ، إذا قدم عليهم مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم .

وأقام الموفون بعهدهم من المؤمنين الصادقين يراقبون الأحزاب ، ويدعون الله تعالى قائلين : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ودعا : ﷺ على الأحزاب ، فقال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، هزمهم وانصرنا عليهم ولم يكن بين المؤمنين وبين الأحزاب قتال : إلا مراماة بالنبل ، ثم اقتحم عمرو بن ود العامري بفرسه — ناحية ضيقة من الخندق ، فقتله سيف الله الغالب ، على بن أبي طالب ، وقتل الزبير بن العوام نوفل بن عبد الله ، حين اقتحم الخندق ، ورجعت بقية الخيول ، التي حاولت اقتحام الخندق منهزمة .

ورمى الصحابي الجليل ، سعد بن معاذ بسهم ، فقطع منه الأكحل ، وهو عرق الحياة : منه في كل عضو — شعبة وفرع وقد مات رضى الله عنه شهيداً بعد مدة من أصابته : كان فيها يمرض في خيمة بالمسجد - وفي تلك المدة - جيء به من تلك الخيمة إلى قريظة ، الذين غدروا ، ونقضوا

عهدهم وانضموا إلى الأحزاب فى عدائهم للمسلمين ، إذ قالوا — بعد حصار المسلمين لهم خمساً وعشرين ليلة — بعد انصراف قبيلة الأوس من الأنصار : وكانت حليفة قريظة فى الجاهلية ، فظنوا أن هـــذه مرحلة تنفعهم ، فقال سعد : قبل إصدار حكمه : قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، ثم حكم عليهم أن يقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم ، وذريتهم ، وتقسم أموالهم فأقر النبى ﷺ ونفذ ذلك الحكم العادل ، والقضاء الحازم ، وقد قال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات وفى سعد وأمثاله — قال تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

وانتهى أمر الأحزاب بدموع الفرقة بينهم وبإرسال الله عليهم ريحاً قلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وهيجت خيولهم ومواشيهم ، وسفت التراب عليهم ، ورمتهم بالحصى : كما أرسل سبحانه عليهم جنوداً من الملائكة أرعبتهم وأفزعتهم ، إذ سمعوا تكبيرهم فى أرجاء معسكرهم . وقعقعة سلاحهم ، وإن لم يروهم ، فارتحلوا هاربين فى ليلتهم . وتركوا ما استثقلوه : من متاعهم ، وكان ذلك فى ليلة شديدة البرد مظلمة ، وما مضى حذيفة بن اليمان فيها : من شدة بردها ، حين دعاه رسول الله ﷺ أن يأتيه بخبر القوم — إلا بحرارة الإيمان : قال : رضى الله عنه : مضيت لشأنى كأنما أمشى فى حمام وطلع النهار فى عقب تلك الليلة ، فإذا خارج المدينة خلاء .

ارتحلت الأحزاب ، وانفك الحصار ، وعاد الأمن ، ونجح الإيمان فى المحنة ، وهتف رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فلاشىء بعده » .

(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً) .

وبهذا اطمأنت نفوس المسلمين ، الذين ظهرت صلابة إيمانهم في مواجهة الأزمات المرهقة ، وازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ورجعت الأحزاب خائبة .

وقال ﷺ — بعد هذه النتيجة الباهرة : « الآن يغزوهم ولا يغزوننا »

وقد ذكر الله المؤمنين بنعمة سلامة مدينتهم ، وبقائها لهم في أيديهم ، وحفظ أموالهم وأراضيهم ، ورجوع أعدائهم إلى بلادهم بالخيبة والخسران وفي قلوبهم من الحسرة على ما فقدوا ، مثل النيران : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، واعلموا أن الذي هزم الأحزاب في عهد الإسلام الأول — هو : وحده — الذي يهزم الأحزاب اليوم .

فتوسلوا إلى نصره : تعالى : بإيمانكم ، وتقواه والاعتماد عليه ، مع إعداد ما استطعتم : من قوة اضرب عدوكم : في صبر وثبات . وأمل في النصر .

واسألوا الله من فضله ، فى كل وقت ـ نصر المسلمين على الكافرين (والله ذو فضل عظيم) .

عن أبى إبراهيم ، عبد الله بن أبى أوفى : رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ — فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو — انتظر ، حتى إذا مالت الشمس — قام فيهم . فقال : « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو . واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم — فاصبروا — واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال النبى ﷺ : اللهم منزل الكتاب . ومجرى السحاب . وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » ، رواه البخارى .

الاعتبار بغزوة حنين

الحمد لله : يديل بالجهاد فى سبيله — الحرية والكرامة ، والمغفرة والجنة ، وقد قال حبيبه ومصطفاه : «(١) ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة : اغزوا فى سبيل . من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة — أى ما بين الحلبتين لها — وجبت له الجنة » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : فضل الله المجاهدين على القاعدين عن الجهاد ، وقد قال الرسول فى أجر أولئك المفضلين : «(٢) إن فى الجنة مائة درجة : أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله : ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سيد المجاهدين . وخير من دعا إلى الجهاد ، وتطهر من الغرور ، متوكلا على ربه القدير ، وعمل على حماية الأنفس والأعراض والأموال . وقال : «(٣) من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن

---

(١) روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال : لو اعتزلت الناس ، فأقمت فى هذا الشعب .. ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال : لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله — أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ألا تحبون .. » الخ .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) روى أبو داود والترمذى عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قتل ... » الخ :

قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه — فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله — فهو شهيد » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ليوث الردى ، وغيوث الندى .

أما بعد : فيا عباد الله :

انتصر الإسلام على الشرك والوثنية بفتح مكة .

وكان على العرب جميعاً أن يقدروا هذا الانتصار ، ويفكروا في سببه ، وما يتصل به ، ولا يفكروا في انتزاعه من أهله .

ولكن القبائل الكبيرة القريبة من مكة — أعماها حقد الكفر وعناده ، وجعلها حمقاء : كالجراد والفراش : يقعن في النار المشتعلة المحرقة .

فخرجت تلك القبائل لغزو المسلمين ، واجتمعوا في وادى حنين ، وقد سبقت قبيلة هوازن إلى احتلال مضايق هذا الوادى ، وانتشروا في جوانبه المحصنة المنيعة ، ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين ، وكان سيد هوازن : مالك بن عوف — قد أمر قومه ، وهم خارجون للغزو — أن يأخذوا معهم نساءهم ، وأموالهم ، وذراريهم : ليشعر كل رجل ، وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه ، فلا يفر عنها .

ولم ينتبه إلى أنه لم ينفعه(١) إلا رجل برمحه وسيفه ، وإن هزم — فضح في ماله وأهله .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بما كان من

(١) نبهه لذلك الفارس المحنك دريد بن الصمة ، فسفه رأيه ، وأصر على خطئه .

هوازن ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، وقال : «[1] تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » .

ولقد أحس جمهور المؤمنين — بفتح مكة — أن الجاهلية تلفظ نفسها الأخير ، لمن تبدى فى القتال مقاومة تذكر ، وظن من أسلموا حديثاً أن الإسلام — لن يقف فى طريقه شيء .

فاندفع جيش المسلمين من مكة إلى حنين غير مكترث لما سوف يواجه ، فلم يكن منه كثرة التضرع لله : كما هى عادة المسلمين فى مثل ذلك الأمر . وكان عدد الجيش — حينئذ — اثنى عشر ألفاً ، حتى قال قائلهم وهو معجب بكثرة عدد الجيش : لن نغلب اليوم من قلة ، وأقبل ذلك العدد الضخم يتدافع نحو وادى حنين ، وهو غافل عما يكمن فيه — وكان وادياً أجوف : ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا : كأنهم يسيرون إلى هاوية .

فلما تكاثرت فى طريقه الفرق الزاحفة — ماهالهم إلا السهام تتساقط كالمطر عليهم من الأماكن العالية ، فارتاعت مقدمة الجيش لهذه المفاجأة ، فولت الأدبار ، ولاذت بالفرار ، وانتشرت موجة الفزع فى الجيش فبعثرته ، وجعلته فى ارتباك .

واستغلت هوازن هــذا الارتباك ، فهجمت على المسلمين ، فولوا مهزومين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وهنا يجب أن ينتبه المسلم إلى أن الإعجاب بالشيء والفرح به ، والاطمئنان إليه ، حيث يشغل به عنه تعالى — هو — سبيل الضياع والهلاك .

---

(١) رواه أبو داود .

وقد قال ﷺ : «(١) ثلاث مهلكات شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

ومن أعجب بالشيء : من حيث إنه عطية من الله تعالى له : يجب عليه أن يشكر له تعالى من أجلها — شغله ذلك الشيء به تعالى لا عنه : (فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

ولم يهز الفرح بتلك الهزيمة مشركا من قريش حريصاً على الكرامة :

ولذلك — لما قال كلدة بن الجنيد : ألا بطل السحر اليوم — قال صفوان بن أمية — ولما يزل مشركا — : اسكت . فض الله فاك ، فوالله لأن يربنى رجل من قريش — أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن .

ولذلك العربى اليوم يقول : الموت . . ولا إسرائيل ولا الاستعمار ، وهانت عليه التضحية فى سبيل الانتصار .

وكان الذى تولى كبر هذه الهزيمة الشائنة ، والجد فى الفرار — هم الطلقاء : من أهل مكة ، الذين عفا عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم : يوم الفتح ، ورعاع البدو والأعراب . الذين كانوا فى الجيش ، بلا قلوب واعية .

وقد وقف النبى صلى الله عليه وسلم فى موقفه ساكن الجأش ، ثابت القلب : يدير الرأى فى خطة ينقذ بها سمعة الإسلام ومستقبله ، وقد أحاط به جماعة من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته فأمر : صلى الله عليه وسلم — للإقبال نحوه — عمه العباس بن عبد المطلب : رضى الله عنه

---

(١) رواه البزار ، والبيهقى عن أنس : رضى الله عنه .

— وكان جهير الصوت — أن ينادى : يا معشر الأنصار . يا أصحاب[1] البيعة يوم الحديبية : لقد هداه الحق أن ينادى أصحاب العقائد ، والفدائيين فهم وحدهم الذين بهم النجاح . والنصر والفرج ، وذهاب الكروب ، وزوال الهموم .

وأما الحريصون على الدنيا ، السعاة إلى مغانمها — فما يقوم بهم أمر ، ولا تثبت بهم قدم .

ولقد وصلت صيحات العباس إلى آذان من دعاهم ، فأخذوا يكافحون : ليبلغوا مصدر الصوت . فقد كان أحدهم يعطف بعيره : ليعود به نحو الصوت ، فلا يقدر من ضغط الفارين ، فما كان يجد بدأ من أن يقذف درعه من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه : قاصداً جهة الصوت .

واجتمع حول الرسول عدد من أولئك الرجال الذين دعوا ، وهم يصيحون : لبيك . لبيك ، حتى قارب القوم مائة ، وقد ملأ الله قلوبهم طمأنينة ، فاستقبل النبى بهم المشركين ، وقد ملك زمام الموقف ، وأعاد الكرة عليهم :

وهو : صلى الله عليه وسلم — على بغلته — يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ويدعو : « اللهم نزل نصرك » .

---

(١) هم الذين بايعهم الرسول صلى الله عليه وسلم : على الجهاد يوم الحديبية حين تأخر عثمان بمكة فى المفاوضة لدخولها ، ويوم الحديبية ، وما يتصل به شىء مشهور ، وليراجع من شاء معرفة تفصيله كتابنا البشرى . . . .

والتحم المهاجرون والأنصار مع رجال هوازن ومن معهم .

ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتالهم ، فقال : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ حصيات ، فرمى بهن فى وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد ، فولوا — والرعب ملء قلوبهم — فى وادى حنين — مدبرين ، ورجع الطلقاء . والبدو إلى رسول الله ، فإذا بهم يرون الأسرى مكتفين .

وهكذا بكرة المسلمين بصدق إيمان — فى حنين — بعد الفرة — انهزم أعداؤهم شر هزيمة ، وتركت هوازن للمسلمين فى الميدان مغانم كثيرة : أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأكثر من أربعين ألفاً من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

هذا إلى جانب ستة آلاف من السبى : أسرى وكره رسول الله : صلى الله عليه وسلم أن يقسم على الناس هذه الغنائم : راجياً أن يرجع القوم تائبين ، فيحرزوا ما فقدوا .

وانتظرهم صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، فلم يجئه أحد ، فقسمها ، وأعطى منها جزيل العطاء — ضعاف الإيمان . وطلاب المزيد من المال ، بعد ما أعلنوا إسلامهم ، وهم الذين فروا عند الفزع ، وقد كثروا عند الطمع : تكرماً عليهم وتأليفاً لقلوبهم ، فمن الناس من يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم : كالدواب تهدى إلى طريقها بحزمة البرسيم : تظل تمد إليها فمها حتى تدخل آمنة حظيرتها .

ومن هنا قال صفوان بن أمية : ما زال رسول الله يعطينى من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلى ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه ، ولم يعط صلى الله عليه وسلم الأنصار : أهل المدينة من غنائم حنين شيئاً قط ،

وهم الذين نودوا وقت الشدة ، وتبدلت بهم الهزيمة انتصاراً لأنه صلى الله عليه وسلم اختار لهم ما هو خير من المال : القناعة التى تحيا بها الرجال ، الذين بهم الإصلاح ، وبلوغ الآمال ، وقال صلى الله عليه وسلم لهم : أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا : تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً — طريقاً — وسلكت الأنصار شعباً — لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .

ثم دعا صلى الله عليه وسلم لهم بالرحمة ، وهى الغنى الدائم وبها كل خير .

قال : اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى بل الدمع لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله رباً . وبرسوله قسما

وقد عاد وفد هوازن معلناً إسلامهم ، ورد صلى الله عليه وسلم إليهم سبيهم ، وقد كان أحب إليهم من أموالهم .

وفى معركة حنين نزل قوله تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

فيأيها المسلمون :

اتقوا الله . واعتبروا بغزوة حنين واحرصوا على درسها القيم ،

وكونوا كأسلافكم المؤمنين أتقياء صابرين ، شجعاناً أمام العدو ثابتين ، مجتمعين مؤتلفين ، وتوكلوا على الله تعالى فى جهادكم — آخذين فى الأسباب لنصركم المبين — ولا يغرنكم كثرة العدد ولا العدد واعتبروا ذلك نعمة من الله عليكم يجب شكرها ، وعودوا أنفسكم القناعة ، وضحوا ، وأنفقوا فى سبيل الله والوطن وادعوه تعالى : لنيل ما تحبون : مما يرضيه ، مخلصين له ، واسألوه تعالى النصر من فضله — يعجل لكم النصر ، وينزل السكينة والطمأنينة فى قلوبكم ، ويمدكم بالصحة . والعافية . والقوة المادية والمعنوية ، والتوفيق لما فيه النجاح والفلاح ، وضر عدوكم وخذلانه (وإن الله لقوى عزيز) ، (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده) .

قال أبو سعيد الخدرى : رضى الله عنه : « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : أى الناس أفضل ؟ قال : مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . قال : ثم من ؟ قال : ثم مؤمن فى شعب من الشعاب : يعبد الله ، ويدع الناس من شره » : رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

الاعتبار بغزوة خيبر

الحمد لله : ابتلى العالم باليهود : قاسية قلوبهم ، ودائماً ينقضون العهود :

على الأيام صنعهمو فساد وأكثرهم حسود أو حقود

وأشهد أن لا إله إلا الله ، الذى من عبده — يجده ، وأعزه وأسعده ، ونصره نصراً مبيناً : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، مد يده — حين جاء المدينة — إلى اليهود مصالحاً ، ثم تحمل أذاهم مسامحاً ، فقابلوا ذلك الفضل بالإجماع على القضاء عليه ومحو دينه ، فاتجه إليهم : ﷺ : مجازياً ، وقاتلهم ، فنصره الله : كما قال تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، المجاهدين الأبطال .

أما بعد : فيا عباد الله :

فى بدء السنة السابعة من الهجرة — رأى عبد حبشى أسود كان يرعى لسيده اليهودى غنمه — أهل مدينة خيبر : على نحو مائة ميل تقريباً من المدينة : من الشمال الغربى ، إلى جهة الشام ، وهم رأس اليهود فى الحجاز — يحملون السلاح ، ويتأهبون للحرب ، فسألهم : ماذا تريدون ؟ قالوا : نقاتل : هذا الذى يزعم أنه نبى ، فأقبل بغنمه على رسول الله ، وقال له : إلام تدعو الناس ؟ فأجابه : أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسوله ، وألا تعبد غيره .

قال العبد : فما لى إن شهدت وآمنت ؟ قال : لك الجنة إن مت على ذلك ، فأسلم ، ثم قال : يا نبى الله : إن هذه الغنم عندى أمانة . . ؟ فقال رسول الله ﷺ : أخرجها من عندك ، وارمها بالحصى فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى صاحبها اليهودى ، فعلم أن العبد راعيها أسلم ، ثم قام رسول الله ، وقد تهيأ الناس للقتال ، فوعظهم وحضهم على الجهاد .

والتحم المسلمون واليهود ، فقتل العبد الأسود بين من قتل من المسلمين — بعد أن جاهد اليهود بقوة الإيمان بشجاعة ، فقال ﷺ : لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير : رأيت عند رأسه ثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط .

فيا قوم :

الإيمان قوة غلابة ، وهو أساس السلامة ودخول الجنة ، ومن القوة التى أعدها المسلمون ليهود خيبر — أنهم عملوا على ترك قبيلة غطفان : لمناصرتهم ، فأوهموهم أن مجرمهم — متجه إليهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم ، وخلوا بين المسلمين وبين خيبر .

وهكذا — بعون الله — نجحت الخطـــة فى عزل اليهود عن حلفائهم المشركين .

وأعظم قوة أعدت لأولئك اليهود — الاستعانة بالله .

فلما أشرف المسلمون على مدينة خيبر ، وهى حصينة الحصون ، منيعة القلاع — قال ﷺ لهم : « قفوا » ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين

وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين — أى وما طيرن وما أذهبن — فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها . وشر أهلها . وشر ما فيها » ثم قال : « أقدموا باسم الله » .

ثم زاد ﷺ قوتهم المعنوية ، التى بها تعمل القوة المادية عملها حين رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فقال : « اربعوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » .

وكذلك رغبة فى النصر على هذه المدينة ، الحافلة بالزنا والربا : شأن اليهود كبار المرابين فى العالم ، وقادة التبرج والعهر ، الذين لا ترد نسوتهم يد لامس ، وقد قال ﷺ : « (١) إذا ظهر الزنا والربا فى قرية — فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » — أراد : ﷺ — ازدياد اليهود رعباً ، حين رآهم يسرعون إلى حصونهم : خوفاً من المسلمين حين رأوهم ، فصاح : قائلا : الله أكبر هلكت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .

وشن المسلمون هجومهم على حصون خيبر المشيدة ، حتى ظفر حارس الجيش ، عمر بن الخطاب بيهودى خارج فى جوف الليل فأتى به رسول الله ﷺ ، فأخبر أن أهل الحصن الذى يرامون أهله — سيخرجون لقتال المسلمين غداً ، ووعد المسلمين أن يدلهم على بيت فى الحصن ، إذا فتح عليهم : فيه منجنيق ودبابات : يسهل بها فتح بقية الحصون : إذ ينصب المنجنيق : لرماية العدو ، وتتقى رمايته بالدبابات ، حين يدخل الرجال تحتها ، فينقبون الحصن فيفتحونه .

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

فقال ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات المسلمون جميعاً يتمنى كل منهم أن يكون ذلك الرجل فلما أصبحوا نادى النبى ﷺ على بن أبى طالب ، وكان حينئذ أرمد ، فتفل فى عينيه ، فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شىء ثم أعطاه الراية ، فتوجه مع المسلمين إلى حيث اليهود متجهزون ، وقد أرشده ﷺ : إلى أن يدعوهم إلى الإسلام أولا ، وليقطع تطلع النفوس إلى المغانم المعجلة ، ويبعثها على التطلع إلى هداية أمثالها — قال ﷺ له : « فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم » وأبى اليهود إلا الحرب ، ونادى فارس منهم فى المسلمين من يبارز ؟ وأنشد :

قد علمت خيبر أنى مرحب　　شاكى(١) السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة(٢)　　كليث غابات كريه المنظرة
أوفيهموا بالصاع كيل السندرة(٣)

وأقبل رضى الله عنه إلى مرحب ، فقتله ، وبرز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير ، وكانت أمه صفية عمة النبى ﷺ — مع أم سلمة زوج النبى ﷺ بين النسوة اللاتى خرجن مع الجيش معاونات فى قتال بنى إسرائيل فخشيت على ابنها أن يقتل ، فقال لها النبى ﷺ : بل ابنك يقتله إن شاء الله ، وتحقق ما قاله ﷺ ، فقتل الزبير ياسراً .

ثم حمل المسلمون على اليهود فهزموهم ، حتى اقتحموا حصناً فيه غنائم

---

(١) حديده وقويه　(٢) أسدا　(٣) كيل واسع

كثيرة من الطعام ، فأمر ﷺ منادياً يقول : كلوا واعلفوا دوابكم — إذ الحاجة ماسة لذلك — ولا تأخذوا شيئاً : فليس ذلك حقاً إلا بعد انتهاء الحرب بالتقسيم .

وتشبث اليهود بباقي حصونهم : يدافعون عنها دفاع اليائس ، وشدد المسلمون عليهم الحصار : يريدون الانتهاء من هذا القتال مسرعين فقد أتعبهم الجوع ، وضاق بهم المقام ، وأصيب كثير منهم بعلل شتى : لرداءة الجو ، ووخامة المستنقعات ، ثم جاء الفرج ، لجاء إلى النبي ﷺ من أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فدلهم على جداول الماء الخفية ، التي يستقون منها ليلا ، فأمر النبي بقطعها : ليكرههم على القتال أو التسليم فخرجوا ، واشتبكوا مع المسلمين في قتال شديد ، انتهى بهزيمتهم إلى حصون أخرى ، فتبعهم المسلمون ، ووجدوا من قاتلوا قتالا شديداً : أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري بلاء حسناً ، حتى تمكن من دخول حصن أبيّ ، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً . ومتاعاً وغنماً وطعاماً ، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البريء . وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض من رميهم ، فنصب المسلمون المنجنيق عليه ، فقذف في قلوب أهله الرعب ، فهربوا ، ووجد المسلمون فيه أواني اليهود : من نحاس . وفخار ، فقال ﷺ : « اغسلوها واطبخوا فيها » ثم نصب المسلمون المنجنيقات : ليهدموا الحصون الباقية على من بها ، فأيقن اليهود بالهلاك ، فاستسلموا : طالبين حقن دمائهم ، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم ، ولهم ما حملت ركابهم وللمسلمين سائر ما بقي ، فأجابهم الرسول ﷺ إلى ذلك : على ألا يذكروا شيئاً . ومن أنكر شيئاً كان غادراً وقتل ، ولذلك قتل كنانة بن أبي الحقيق .

إذ أنكر حلى حيي بن أخطب ، فعثر عليها المسلمون ، وهكذا سقطت حصون خيبر وما حوت : من كنوز وأموال وأنعام وحرث ومتاع بأيدى المسلمين ، ولم يستشهد منهم سوى خمسة عشر رجلا ، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلا .

وخضع من بقى من اليهود بخيبر على أن يزرعوا أرضها بنصف مايخرج منها لهم . وقال ﷺ : « إن شئنا أن نخرجكم - أخرجناكم ، وقد أخرجهم عمر كما قتلوا أنصاريا ، وآذوا عبد الله ولده فى يديه وكان ﷺ ، يرسل إليهم عبدالله بن رواحة : لتقدير الثمر ، وكان تقديره شديداً عليهم . فأرادوا أن يرشوه : ليقدر وفق هواهم ، فقال لهم : يا أعداء الله تطعمونى السحت - أى الحرام - فالرشوة سحت حرام ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ، ولأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على ألا أعدل .

وهذا أدب القرآن الكريم تأدب به ابن رواحة .

فكونوا مثله : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) .

ولما اطمأن المقام به : ﷺ بخيبر أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم — شاة مشوية مسمومة ، وأكثرت من السم فى الذراع : لأنها عرفت أن الرسول ﷺ يحب الذراع وقد تناول ﷺ : مضغة منها فلاكها ثم لفظها وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ، وكان معه بشر بن البراء فأساغ اللحم وازدرده ، واعترفت

المرأة بفعلتها ، وقالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكا — استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فعفا عنها النبى ﷺ ، ثم مات بشر بعد ما سرى السم فى جسمه ، فقيل : اقتص ﷺ له منها ، وقيل بل أسلمت ، فعفا عنها .

وحين كان : ﷺ بخيبر — نهى عن نكاح المتعة :

فالنكاح رباط أسمى من أن يكون لأجل . ومؤقتاً ، بل يجب أن يكون مؤبداً ، وقد كان نكاح المتعة مباحاً فى الجاهلية وفى بدء الإسلام .

كذلك بخيبر نهى صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الأهلية ، فأكفأ المسلمون قدورها — بعد أن نضجت ، ولم يطعموها .

أيها المسلمون :

إن الله نصر أسلافكم على يهود خيبر ومنحهم أرضهم وأموالهم ، وهو ينصركم على يهود اليوم ، ويغنمكم مالهم وخيراتهم ، إذا اقتديتم بأسلافكم ، فاتقوا الله ، واقتدوا بهم ، فتسلحوا بسلاح الإيمان بالله ، والتوكل عليه والاستعانة به . وإدامة تقواه ، واتباع الشرع : بإحلال ما أحل ، وتحريم ما حرم ، وامتثال ما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى .

وانتبهوا لهذا الخطاب الكريم : (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها - هى مغانم المسلمين إلى يوم القيامة فعجل لكم هذه : هى مغانم(١) خيبر: وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً)

---

(١) وأعطيها أهل بيعة الرضوان بالحديبية ومهاجرو الحبشة .

قال أنس : رضى الله عنه : صلى النبى صلى الله عليه وسلم الصبح بغلس(١) ثم قال الله أكبر خربت خيبر : إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين ، فخرجوا يسعون فى السكك فقتل النبى : صلى الله عليه وسلم المقاتلة ، وسبى الذرية ، وكان فى السبى صفية ، فصارت إلى إلى دحية الكلبى ، ثم صارت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل عتقها صداقها » . رواه البخارى .

(١) فى ظلمة قبل انبلاج الصبح .

الحث على حسن الخلق

الحمد لله : يرفع درجة عبده : بحسن خلقه . وقد قال نبيه : «(١) كرم المرء دينه ومروءته عقله ، وحسبه خلقه » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من عبادته — حسن الخلق ، ففى الحديث النبوى : «(٢) ألا أخبركم بأيسر العبادة ، وأهونها على البدن : الصمت . وحسن الخلق » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : أرشد أمته - افلاحها - إلى مكارم الأخلاق : بقوله . وفعله . وحاله ، وكان يقول فى دعائه : «(٣) اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق ، والنفاق ، وسوء الأخلاق » ، وقد أثنى عليه تعالى بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمـــد ، وعلى آله ، وصحبه ، وذوى الأخلاق الكريمة .

أما بعد : فيا عباد الله :

أتى رجل النبى : صلى الله عليه وسلم : من قبل وجهه فقال : يا رسول الله . أى العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه عن يمينه ، فقال :

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده . والحاكم فى مستدركه . والبيهقى فى الشعب : عن أبى هريرة (ض) .

(٢) رواه أبو داود والنسائى عن أبى هريرة (ض) .

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت عن صفوان بن سليم (ض) .

أى العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه عن شماله فقال : أى العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من خلفه ، فقال : يا رسول الله . أى العمل أفضل ؟ فالتفت إليه رسول الله «فقال مالك لاتفقه ؟ حسن الخلق : هو ألا تغضب : إن استطعت .

وذلك : كما كان من إبراهيم بن أدهم ، الولى المشهور : خرج يوماً إلى الصحراء ، فاستقبله جندى فقال له : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندى : إنما أردت العمران فقال : هو المقبرة ، فغاظه ذلك ، فضرب رأسه بالسوط ، فشجه ، ورده إلى البلد : ظناً منه أنه عبد هارب من مالكه ، فاستقبله أصحابه فقالوا : ما الخبر ، فأخبرهم الجندى ما قال ، فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم ، فنزل الجندى عن فرسه ، وجعل يعتذر إليه ، فقبل إبراهيم عذره ، وسأل الله له الجنة ، فقيل له : كيف . وقد ظلمك ؟ فقال علمت أنى أوجر على ما نالنى منه ، فلم أرد أن يكون نصيبى منه الخير . ونصيبه منى الشر .

وهكذا حسن الخلق يجعل نفس صاحبه — ميزاناً فيما بينه وبين غيره ، فيحب لغيره ما يحب لنفسه ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : «(١) لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

وبذلك حسن الذكر : فى الحياة ، وبعد الوفاة ، فالذكر للانسان عمر ثان . ولا عجب أن يكون حسن الخلق أفضل مكاسب الإنسان ، وإنه هو الأمر الذى لا يستطيع الناس أن يعيشوا بدونه ، فبــه — قضاء المصالح ، والأمن . والهدوء ، والاطمئنان فى الحياة ، وقال رسولنا :

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس (ض) .

صلى الله عليه وسلم : «(١) إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» .

ولذلك — كان حسن الخلق — شريعة العالم ، التي لا يختلف فيها أحد ، فكل أصحاب الملل — يقولون بحسن الخلق ، ويثنون على صاحبه :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وحسن الخلق — مع الخلق والخالق — هو العمل بالدين كله ، ولذلك قال : صلى الله عليه وسلم : «(٢) البر حسن الخلق» فإن البر - معاملة الخلق بالإحسان ، ومن ذلك - بر الوالدين ، وطاعة الله الظاهرة : كإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعته تعالى الباطنة : كالإيمان بالله . وملائكته ، وكتبه ، ورسله : قال تعالى : (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

فمن حسن الخلق - الرفق فى المعاملة ، والعطف والبشاشة ، وكف الأذى ولين الجانب ، وقد كان ابن عمر : رضى الله عنهما يقول : «البر شىء

---

(١) رواه البزار ، وأبو نعيم فى الحلية ، والحاكم والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة (ض) .

(٢) روى مسلم عن النواس بن سمعان رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : البر حسن الخلق . والإثم ما حاك فى نفسك : وكرهت أن يطلع عليه الناس» .

هين : وجه طلق وكلام لين . ولا شك أن ذلك هو السحر الحلال ، الذى به تملك النفوس والقلوب ، ولذلك وجه الله تعالى إليه رسولنا ، فقال : (واخفض جناحك للمؤمنين) وقد أخرج به رسول الله - الناس من ظلمات الجاهلية ، وعبادة الأصنام - إلى - نور الإسلام ، وتوحيد ذى الجلال والإكرام ، الذى خاطبه ، فقال : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

وإن من كان موطأ الأكناف(١) ، لين الجانب ، فكان سمحاً فى معاملته ، متواضعاً غير متكبر ، ولا متعاظم على من دونه ، واسع الصدر : لأصحاب الحوائج استحق السلامة من النار ، ودخول الجنة : قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : « (٢) ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً ؟ على كل هين لين قريب سهل » .

ومن حسن الخلق - محبة المرء غيره لله ، لا لعلة دنيوية : لتدوم المحبة : قال : صلى الله عليه وسلم : « (٣) من سره أن يجد حلاوة الإيمان - فليحب المرء لا يحبه إلا لله » .

ومن حسن الخلق - التحبب إلى الناس : بقضاء مصالحهم ، وتحقيق

---

(١) الجوانب .

(٢) رواه أبو يعلى عن جابر (رض) ، والترمذى والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود (رض) .

(٣) رواه الإمام أحمد والحاكم عن أبى هريرة (رض) .

مآربهم ، التى لا ضرر فيها لأحد ، ففى ذلك كسب لحب رسول الله ، القائل : « إن أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » ، ومن أحبه رسول الله فقد أحبه الله ، الذى قال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ومن حسن الخلق - المداراة ، وليست نفاقاً ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق بالرجل ، فلا يستريح للقائه . ومع ذلك إذا لقيه - هش وبش : وقالت عائشة : رضى الله عنها - كم كان صلى الله عليه وسلم جالساً فى حجرته ذات يوم ، وارتفع صوت رجل يسأل عنه فلما سمعه النبى : صلى الله عليه وسلم : قال : بئس أخو العشيرة ثم لما أقبل الرجل - انبسط إليه ، وألان له القول ، حتى خرج ، فقالت عائشة : قلت : بئس أخو العشيرة ، ثم لما رأيته - ألنت له القول ؟ فقال : «(١) إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة : من تركه الناس : اتقاء فحشه » .

ويا قوم :

لأن حسن الخلق : مع الخلق - يثمر راحة البال ، ورقابة المجتمع : من نار الخصام . والقتال ، حيث الخراب . والهلاك - كان جزاؤه عظم القدر عند الله ، وكان جزاء سوء الخلق - الدرك الأسفل من النار : قال رسولنا : صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة (ض) .

فمن حسن خلقه : مع الخالق ، فأطاعه تعالى ، ولم يفقده : حيث أمره ولم يجده : حيث نهاه ـ ينال غاية مناه ، وفاز برضا الله ، وكان أقرب مجلساً فى الجنة من رسول الله ﷺ ، وسلم يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، يوم تدنو الشمس من الرءوس ، وتغرق بالعرق النفوس (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

فيا طالب الجنة ، ويا هارباً من النار ، ويا حريصاً على حسن السيرة ، وحسن السير والسلوك . بحسن الخلق .

اتق الله وراقب ربك ليحيا ضميرك ، وينمو إحساسك بالخير ، وشعور رغبتك فى الفضيلة ، ونفورك من الرذيلة . فتكون حسن الخلق ، مع الله والناس ، فلا تترك طاعة الله أبداً ، وتكون حليماً أميناً ، صابراً عادلا ، مقتدياً برسول الله ، الذى كان خلقه القرآن ، فتعيش حميداً ، وتلقى الله سعيداً ، والله تعالى يقول : (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) .

قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : « ما من شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق » رواه أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : « يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار — تدخل مداخل الأبرار وإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي وأن أسقيه من حظيرة قدسي — أي من جنتي ، وأن أدنيه من جواري ، رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الحث على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

الحمد لله الذى أمر بالمعروف . والنهى عن المنكر : لخير العباد ، وقال : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يدفع خراب البلاد ، ويقى العباد الفساد : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : وقال : ﷺ «(1) أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة : أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها ، فقال : يارب إن فيهم - عبدك فلاناً : لم يعصك طرفة عين : قال : أقلبها عليه وعليهم ، فإن وجهه لم يتمعر فى ساعة فقط أى لم تغير إنكارا للمعصية أبدا) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير هاد إلى طريق الرشاد

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أهل المعروف فى الدنيا والآخرة .

أما بعد : فياعباد الله :

لما تولى أبو بكر : رضى الله عنه الخلافة بعد رسول الله — ولى عمر رضى الله عنه قضاء المدينة ، فمكث سنة لم يختصم إليه أحد ، ولم ترفع إليه قضية ، فطلب إعفاءه ، فسأله أبو بكر عن السبب فقال (إن قوما يوقر صغيرهم كبيرهم ، ويرحم قويهم ضعيفهم ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وينصفون أعداءهم من أنفسهم : القوى عندهم ضعيف حتى يؤخذ

---

(1) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر رضى الله عنه .

الحق منه ، والضعيف عندهم قوى حتى يؤخذ الحق له : إذا مرض أحدهم عادوه ، وإذا مات شيعوه ، وإذا أصيب بمكروه واسوه ، : قوم هذا شأنهم لاحاجة لهم بقضاء عمر) .

عباد الله :

لقد سجل القرآن الكريم . للأمة المحمدية ـ أنها خير الأمم : لالذاتها : ولكن لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، مع الإيمان بالله ، الذى آيته الائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر : قال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

فالأمة المحمدية ـ خير الأمم ، إذا حفظت نعمة الله عليها ، وقامت بواجبها : بالمحافظة على قرآنها واتباع رسولها ، وكانت كأسلافها فى صدر الإسلام : يوم أن كانوا سادة الأنام ، وكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فكان مجتمعهم سعيداً . وحياتهم طيبة . رغيدة :

ويا قوم :

المعروف الذى أمرنا بالدعوة إليه ـ هو ما تعارف الناس عليه ، وفيه مصلحة الفرد والجماعة ، وقد شرعه الحكيم العليم لخير الناس ، وفيه البر والإحسان .

والمنكر : هو كل ما أنكره الدين ، ونهى عنه رب العالمين : لما فيه من الإضرار بالفرد والجماعة كشهادة الزور ، والكذب ، والغدر والخيانة ، ونقض العهد ، والتبرج ، وهجر الكتاب والسنة . وكالغيبة ، وما إلى ذلك من إثم .

ومن المعروف - أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، ومن هنا - يعاقب محتكر أقوات المسلمين .

وليس من المنكر الذى به الإثم - دفع المفسدة الكبرى بالصغرى ، وارتكاب أخف الضررين : كالأكل من المحرم بقدر ما يقى من الموت جوعا والله تعالى يقول : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) .

ولا شك عباد الله بسيادة المعروف بيننا - نسود أمم الأرض جميعا ، ولا تقوى علينا ، ولا تجتمع وتكون بعضهم لبعض ظهيرا ، ويكون من أحط الأمم قاطبة إذا أضعنا التراث ، الذى ورثناه بدون مشقة وجهاد ، وفيه صلاح ديننا ودنيانا : ذلكم القرآن الكريم الذى من هداه الأمر بالمعروف والائتمار به ، والنهى عن المنكر والانتهاء عنه .

أيها المسلمون :

مع وضوح مزية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنهما الأمر المهم فى الدين ، ولهما بعث الله النبيين ولو أهملا - لفشت الضلالة وشاعت الجهالة ، وتعرضت البلاد للخراب والعبـــاد للهلاك ... قد فشت بيننا المنكرات وتركنا المعروف والطاعات ، وتهافتنا على ارتكاب المعاصى ، وانعكست القضية ، فأصبح ارتكاب المحرم رقياً وحضارة ومدينة ، والتزام حدود الله تأخراً وجموداً .

لقد خرجت النساء فى الطرقات شبه عاريات أو عاريات ، ولا يرى ذلك إلا مستظرفاً من الشبان المفتونين ، ومستحلها ومشجعاً عليه من أشباه الرجال ، ويا ويل من اعترض ، فإنه متأخر ومجنون . ومتزمت ،

وهكذا الشأن فى الخمر والميسر والربا ونحو ذلك : من المنكرات ، حتى كان زماننا الذى عناه حذيفة صاحب رسول الله ﷺ الذى حفظ كثيراً من أخبار الأزمنة بعده قال : (يأتى على الناس زمان لأن يكون فيهم جيفة حمار - أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم) .

وقال رسولنا ﷺ : «(١) كيف أنتم إذا طغى نساؤكم ، وفسق شبانكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يارسول الله ؟ قال : نعم . والذى نفسى بيده ، وأشد منه سيكون . قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمرو بالمعروف . ولم تنهوا عن المنكر ، قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون . قالوا وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً - والمنكر معروفا . قالوا وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون .

يقول الله تعالى بى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران) .

فإذا فشا المنكر - عمت الحيرة من ضنك المعيشة ومن عدم استجابة الدعاء وسقوط مهابة الأخيار من أعين الأشرار فلا يخافونهم قال ﷺ : « (٢) لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

أيها المسلمون :

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا عن أبى أمامة رضى الله عنه .

(٢) البزار عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

اتقوا الله وحاربوا تلك المنكرات ، من غير بأس (إن الله مع الصابرين) وأدعوا إلى المعروف ما استطعتم : سعيـــا إلى رضا الله . وفرارا من غضبه ، وليكن ذلك بحلم ورفق وإحسان ، وتأملوا : أنى أعرابى المسجد النبوى ، فبال فيه ، فهم الصحابة به : أن يؤذوه فنهاهم وتركه حتى أتم بوله ثم قال له : فى لين : إن المساجد لم تكن لهذا ولكنها للصلاة وذكر الله) ثم أمرهم أن يصبوا على مكان التبول دلوا من ماء .

يا قوم :

أمتحن الله تعالى اليهود فى زمن داود عليه السلام ، فنهاهم عن صيد السمك فى يوم السبت وكثّره فيه ، دون غيره ، فاحتالوا على صيده : بحفر حفر بجانب البحر فى يوم السبت : يجتمع فيها السمك ، وأخذه بعد ذلك اليوم ، فقامت طائفة منهم بوعظهم : لينهوا عن ذلك ، فانكرت وعظها طائفة أخرى .

فلما وقع عذاب الله ـ نجا الواعظون ومسخ المخالفون قردة ثم أهلكهم الله تعالى ، وفى القرآن الكريم قال : «واسألهم عن القرية(١) التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا(٢) ويوم لا تسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء

---

(١) أى قريبة من بحر القلزم : البحر الأحمر : مشرفة على شاطئه ، وهى أيلة .

(٢) شارعة : ظاهرة على وجه الماء من كل ناحية : كشوارع الطرق .

وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا(١) عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) .

فهل انتبه لذلك من يقول : مالى وللناس ما دمت مستقيماً : أؤدى ما لله لله . وما للناس للناس ، والله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) فأبو بكر يقول فى هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « (٢) ما من قوم عملوا بالمعاصى . وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

فما أشبه هؤلاء — كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بركاب سفينة فى وسط البحر ، وبعضهم أعلاها ، وبعضهم فى أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا احتاجوا إلى الماء — صعدوا إلى من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا من السفينة خرقاً : ليدخل علينا الماء منه حتى لا نصعد إلى أعلى السفينة . ونؤذى من فوقنا — لكان خيراً ، فلو تركهم من هم فى أعلى السفينة : لإحداث الخرق فى السفينة — لغرقت بدخول الماء فيها ، وهلكوا جميعاً ، وإن منعوهم من ذلك — نجوا جميعاً .

وليغير المسلم المنكر ، ولا يكتف بتغييره باللسان مع القدرة على العمل باليد ، ولا بالإنكار بالقلب إلا عند العجز ، فإن ذلك أضعف الإيمان ، وماذا بعد ضعف الإيمان إلا زواله ، وحينئذ يكون الكفر والعياذ بالله .

---

(١) تكبروا .
(٢) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما .

وأوحى تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام فقال : إنى مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم ، فقال : يارب هؤلاء الأشرار ، فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبى . وكانوا يؤا كلونهم ويشاربونهم .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، ومروا بالمعروف وكونوا أول الفاعلين ، وانهوا عن المنكر ، وكونوا أول المنتهين : بإخلاص . وصبر ، وذوق : بين أهليكم وأولادكم . وأقاربكم ، وأخوانكم ، وأصدقائكم وجيرانكم ، وفى محيط عملكم ، ونصب أعينكم — قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

واعلموا عباد الله أن السكوت على المنكر مع القدرة على إنكاره وإزالته - منكر ، وأن من أسباب إهلاك الأمم السابقة - أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

واسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات قالوا : مالنا بد إنما هى مجالسنا نتحدث فيها . قال : فإذا أبيتم إلا ذلك ، فأعطوا الطريق حقها قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر . وكف الأذى . ورد السلام . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب - ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » رواه الحاكم فى المستدرك وصححه عن جابر رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : (من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف) رواه البيهقي في الشعب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم .

قال ابن عباس : رضي الله عنهما : « قيل : يارسول الله ، أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : نعم . قيل : بم يارسول الله ؟ قال : بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله » رواه البزار ، والطبراني .

وسأل أبو ثعلبة الخشني رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى : (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال : « يا أبا ثعلبة . مر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه — فعليك بنفسك — ودع عنك العوام : إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم : للمتمسك فيها بمثل الذى أنتم عليه أجر خمسين منكم قيل بل منهم يا رسول الله ؟ قال : لا بل منكم : لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون عليه أعواناً » رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه .

الحث على الأمانة

الحمد لله ، الذى أمر بحفظ الأمانة ، وجعلها من صفات المؤمنين ، ونهى عن الخيانة ، وجعلها من صفات المنافقين . وقال : جل شأنه : (إن الله لا يحب الخائنين) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : اختار لبنى آدم أن يتصفوا بالأمانة ويتنزهوا عن الخيانة ويكونوا أمناء على شريعته ، مستقيمين على طريقته ، وصراطه المستقيم ، فيحيوا حياة طيبة ، ويفوزوا بحسن العاقبة .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الأمين : كسائر إخوانه المرسلين ، وقد استعاذ بالله من ضياع الدنيا ، وشقاء العيش فيها : بالجوع ، ومن ضياع الدين . وسوء المنقلب : فى الأخرى : بالخيانة ، التى هى أخبث شر يضمره الإنسان ، فقال : «(١) اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة . فإنها بئست البطانة » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الأمناء ، ففازوا بحسن الحال : فى الحال والمآل .

أما بعد : فيا بنى الإسلام ، دين الأمانة :

حبيبنا نبى الرحمة ، ورسول الإسلام : عليه الصلاة والسلام ، وجه أمته لمثل للأمانة عال : لنقتدى به ، فنفلح فى الحياتين فقال : «(٢) إن لكل أمة أميناً وإن أميننا — أيتها الأمة — أبو عبيدة بن الجراح » :

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه : عن أبى هريرة (ض) .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس (ض) .

بلغ — يا قوم — من أمانة هذا الأمين على الحق والدين — أن قتل — أباه، الذي لم يترك شركه. ومحاربته، وإيذاءه المسلمين.

ومن أمانته — والمسلمون مجتمعون لاختيار خليفة له: صلى الله عليه وسلم، وقد قال له عمر: هلم أبايعك: لتكون إماماً للمسلمين، فإني سمعت رسول الله: صلى الله عليه وسلم يقول: إنك أمين هذه الأمة — أن رد عليه: لافتاً النظر إلى الرجل الذي هو أفضل منه وأحق بالخلافة، أبي بكر الصديق: قائلا: كيف أصلي إماماً، وخلفي رجل: أمره رسول الله: صلى الله عليه وسلم — أن يؤمنا يوم قبض.

وهكذا الأمانة — يا عباد الله — دليل على يقظة ضمير المتصف بها، حيث يشعر بالتبعة الملقاة على عاتقه، ومسئوليته، في أمر يوكل إليه، ويدرك إدراكاً جازماً أنه مسئول أمام ربه عنه، فيطيع الله تعالى فيه.

فالأمانة — إذاً — هي رعاية حقوق الله، وحقوق العباد، والله تعالى يقول: (فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته).

ورعاية تلك الحقوق هي طاعة الله تعالى، وتلك الحقوق هي التكاليف الإلهية، والتعاليم الدينية، التي ائتمن الله تعالى عليها عباده.

وتتحقق طاعة الله تعالى، ورعاية تلك الحقوق. باستعمال العقل، الذي يعقل صاحبه عن العصيان، ويمنعه أن يخالف إلهه الديان.

فبالعقل — يقف غضب الإنسان عند الحد الذي حدده الدين، وهو الدفاع عن الحقوق، فلا يتعدى هذا الدفاع بظلم أحد، وتقف شهوته عند حد الله لها، فلا تتعداه بالجهول، وطلب الذكر أو الأنثى التمتع بغير

ما أحل الله العادل فى جزائه ، القائل : (من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) .

وفى ذلك يقول تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقال ابن عباس : رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «(١) قال الله تعالى : لآدم : يا آدم : إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض ، فلم تطقها ، فهل أنت حاملها : بما فيها ؟ فقال : وما فيها يارب ؟ قال : إن حملتها — أجرت ، وإن ضيعتها — عذبت ، فاحتملها بما فيها ، فلم يلبث فى الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر ، حتى أخرجه الشيطان منها » : أى بظلم نفسه ، وتخليه عن الامانة بالأكل من الشجرة .

وعرض الأمانة على تلك الأجرام ، التى لا تعقل ، وإباء حملها والإشفاق والخوف منها : هو كقول القائل : عرضت الحمل على البعير فأباه وأشفق منه .

أى قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنـــه ويسقط هو تحته .

فالأمانة صعبة ، لا تقوى عليها السموات والأرض والجبال ، وإنما

---

(١) رواه الترمذى الحكيم ، أبو عبد الله .

يقوى عليها ذو العقل : مع أن خلق تلك الأجرام أكبر منه : لأن العقل الذى لا يصلح أن يحل فيها — هو القوة التى بها تعرف الأمانة ، وكيف تؤدى ، ويدرك حسن عقباها — وقوله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) أى إن الإنسان تحقق كونه ظلوما جهولا إذا تخلى عن الأمانة التى أساسها العقل ، الذى يجب على الإنسان أن يصونه عما يضر به ، فلا يتعاطى مخدراً ولا مسكراً ، ولا نحو ذلك ، وأن يعمل على زيادة نوره : بالإكثار من طاعة الله ، وتدبر القرآن ، والتفقه فى الدين : قال الرسول صلى الله عليه وسلم «(١) ازدد عقلا تزدد من ربك قرباً » .

فمن زاد عقله كالا — حرص كل الحرص على ما اؤتمن عليه لله ، ولخلقه ، ولا يخون له عهداً ، ولا يترك واجباً لله أو لعباده ، ولا يطمع فى وديعة اؤتمن عليها ، ولا فى مال وكل إليه أمر حراسته ، ولا يخون أحداً فى عرضه ، ولا يقتل من أمنه على دمه ، ولا يقول إلا صدقاً وحسناً ولا يفعل إلا جميلا ، ويعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، ولو كانوا غير مسلمين : ما داموا غير محاربين للإسلام وأهله ، ولا يجزى على الخيانة بالخيانة : عملا بقوله : صلى الله عليه وسلم : «(٢) أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » ، وقال ميمون بن مهران : أحد سلفنا الصالح : « ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر : الأمانة . والعهد وصلة الرحم » .

فليست الأمانة — يا عباد الله — خاصة بحفظ ودائع الناس وأموالهم ثم ردها إليهم ، وإنما هى شاملة لجميع تعاليم الإسلام وتكاليفه التى يسعد فى الدارين ، وينجو من استمسك بها ، وراقب فيها ربه ، الذى يعلم سره

---

(١) رواه الترمذى الحكيم فى النوادر عن أبى الدرداء (ض) .
(٢) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما .

وعلانيته ، ويجزى على حفظ الأمانة وتأديتها خيراً ، وعلى الخيانة ومخالفة الأوامر والنواهى شراً : روى زاذان أن ابن مسعود : رضى الله عنه قال : « القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة : قال يؤتى بالعبد يوم القيامة ـ وإن قتل فى سبيل الله ـ فيقال : أد أمانتك ، فيقول : أى رب كيف ، وقد ذهبت الدنيا ، فيقال : انطلقوا به إلى الهاوية ، فينطلق به إلى الهاوية ، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه ، فيراها ، فيعرفها ، فيهوى فى أثرها ، حتى يدركها ، فيحملها على منكبيه ، حتى إذا ظن أنه خارج ـ زلت عن منكبيه ، فهو يهوى فى أثرها أبد الآبدين ، ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع : قال زاذان : فأتيت البراء بن عازب فقلت : ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود ؟ قال : صدق . أما سمعت الله يقول : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

ومن الأمانات ـ إتقان العمل ، والنصح ، والإخلاص لمن استشار ، قال صلى الله عليه وسلم «(١) المستشار مؤتمن ، فإن استشير فليشر بما هو صانع لنفسه » .

ومن الأمانات ـ التقريرات السرية للموظفين ، فيجب أن يحكم بالعدل والإنصاف فى تحريرها . ولنتأمل قول رسول الله : صلى الله عليه وسلم لصاحبه أبى ذر حين سأله(٢) أن يوليه إمارة : «(٣) يا أبا ذر إنك ضعيف

---

(١) رواه الطبرانى : عن على : (ض) .

(٢) قال رضى الله عنه : قلت : يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ فضرب بيده على قلبى ثم قال : يا أبا ذر ... إلى آخر الحديث المذكور .

(٣) رواه مسلم .

وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها ».

ويا قوم :

كم أسرة شقيت . وفنيت : إذ امتلأت القلوب من الخيانة بالأحقاد ، وحمل الخصام : بسبب الخيانة على القتل والإفساد ، وتبديد الأموال فى القضايا ، والمكايد والرزايا ، وهكذا عند فقد الأمانة - تظلم الحياة ، ويسوء المصير ، ولما خرج موسى عليه السلام من مصر طالباً للنجاة من فرعون وقومه ، وورد ماء مدين وسقى الغنم لابنتى الشيخ الكبير ، وجاءت إحداهما (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) فلبى الدعوة - أمرها أن تسير خلفه حتى لا ينظر إلى جسمها ، الذى كان يلتصق به ثوبها . أو يرتفع عنه : بفعل الريح ، التى كانت شديدة ، وسار أمامها - وهو أشد ما يكون خوفاً من الله - : حفظاً لعبده ، وما اؤتمن عليه ، وقد شهدت الفتاة بأمانته : إذ قالت لأبيها : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) ، فكان جزاؤه أن أصبح مخلصاً وكليماً ، قال تعالى : له عليه السلام (يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) .

وليعلم المسلم أن حفظ سر المجلس أمانة كحفظ كل سر : ما لم يكن معصية : بإيذاء عباد الله فحينئذ تجب المسارعة إلى الحيلولة دون وقوع الأذى : بقدر الاستطاعة : قال صلى الله عليه وسلم « (١) المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس سفك دم حرام ، أو فرج حرام ، أو اقتطاع مال بغير حق) .

---

(١) رواه أبو داود عن جابر (ض) .

وما يقع بين الزوجين : من شئون المعاشرة الخاصة — أمانة : قال صلى الله عليه وسلم «(١) إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة — الرجل يفضى إلى امرأته ، وتفضى إليه ثم ينشر سرها » .

أيها المسلمون :

الأمانة حلية كل فرد : رئيساً كان أو مرءوساً ، خادماً أو مخدوماً ، بائعاً أو مشترياً ، عاملا لدى الحكومة أو غيرها ، وبها الخير كله للأمة جمعاء ، السعيدة بأفرادها الأمناء ، فمن امتلأ قلبه بمخافة الله - كان أميناً يحبه الله ، ومن خلا قلبه من خشية الله - أضاع الأمانة ، وسهلت عليه الخيانة ، فكان منافقاً : (فى الدرك الأسفل من النار) .

فاتقوا الله ، وأحيوا ضمائركم ، واعمروا قلوبكم ، واملئوها بالخوف من الله تعالى الذى يحب الأمين ، ويكره الخائن ، الذى يخونه ، ويخون رسوله : بتعطيل الفرائض والسنن ، وسوء السير والسلوك (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) .

قال أنس رضى الله عنه : « ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » رواه أحمد ، والبزار ، والطبرانى فى معجمه الأوسط .

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى سعيد (ض) .

١ ــ الحث على الوفاء بالعهد

الحمد لله المتصف بكل كمال ، ومنه الوفاء بالعهد ، وقال : (ومن أوفى بعهده من الله) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : حكم بالفلاح للمؤمنين ، الذين من صفاتهم أنهم لعهدهم يوفون .

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، خير من وفى بعهد الله ، وعهد عباد الله وقال : (إن حسن العهد ـ أى الوفاء به ـ من الإيمان) أى من شعب الإيمان ، وأوصاف الكملة من أهله امتثالا لأمر الله تعالى ، القائل : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، البررة الأوفياء .

أما بعد : فيا عباد الله ..

الأصمعى العالم العباسى الراوية : دخل مقابر الأعراب ومعه صاحب له فإذا جارية على قبر تبكى ، وعليها من الحلى مالم ير مثله ، فالتفت إلى صاحبه قائلا له : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال : لا والله لا أحسبنى أراه ، فقال للجارية : ما هذه أراك حزينة ، وما عليك زى(١) الحزن ، فأعلنت ــ ما تمكن من تقدير وحب ومراعاة لما يرضى فى نظرها لمدفون فى القبر زوجها العزيز ، الشديدة الحزن على فقده ، فقالت :

فإن تسألانى فيم حزنى فإننى رهينة هذا القبر يا فتيان
وإنى لأستحييه ـ والترب بيننا ـ كما كنت أستحييه حين يرانى

---

(١) لباسه وهيئته .

ثم اندفعت فى البكاء ، وجعلت تبين سبب مجيئها القبر فى زينتها ، وهو الرغبة فى سروره فى قبره بالحال التى كان يسر بها منها فى حياته : قالت :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم(١) بى
بالا . ويكثر فى الدنيا مواساتى(٢)
قد زرت قبرك فى حلى(٣) وفى حلل
كأننى لست من أهـــل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه
أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى(٤) مولهة(٥)
عجيبـــة الزى تبكى بين أموات

ولا شك أن هذه الجارية الأعرابية — وفية بعهد زوجها جداً إذ رأت أن تعامله بعد وفاته : بما كانت تعامله به فى حياته ، ولكنها تعدت حدود الله : بخروجها من بيتهـــا ، متبرجة وزيارتها القبور بتلك الحال . ولعل ذلك لجهلها بتعاليم الدين وأوامر الله ونواهيه : لبعد الأعراب عن مواطن العلماء بالدين . والله تعالى يقول : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً

---

(١) يستريح قلبه ، ويستقر ويطمئن بى ، فالبال : القلب .
(٢) تصبيرى إذا عرض عملا يؤلم .
(٣) الحلى واحد حلى المرأة : كثدى وثدى ، والحلل جمع حلة : أى إزار ورداء ، ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين ، والمعنى أنها زارت قبره متزينة : بالحال التى كان يسر بها : رغبة منها فى سروره .
(٤) باكية .
(٥) من الوله : وهو ذهاب العقل والتحير : من شدة الوجد والحزن.

وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم) .

فانتبهوا للوفاء بالعهد من أسوتنا الحسنة ، وخير قدوة رسولنا ﷺ قالت عائشة رضى الله عنها : جاءت إلى النبى ﷺ عجوز ، فقال : كيف حالكم . كيف أنتم بعدنا ؟ قالت بخير ، فلما خرجت - قلت : تقبل هذا الإقبال على هذه ؟ قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة : « إن حسن العهد - أى الوفاء به - من الإيمان ، أى من شعبه وفروعه ، وأوصاف الكملة من أهله .

فرسولنا ﷺ : بتحيته ، وإكرامه الزائرة بعد وفاة خديجة : كما كان يفعل فى حياتها - وفاء عهد يدل على الإيمان ، ويكسب رضا الله ، وكل الخير فى رضاه جل علاه :

ومن الوفاء بالعهد : إكرام أصدقاء الأبوين ، والأقارب ، وسائر من يندب إكرامه : كإكرام الزوجين بعضهما بحسن المعاشرة والمعاملة وتبادل المحبة وحسن اللقاء ، وترك الإساءة ، والإحسان إلى أحبائهما .

لقد كان ﷺ : إذا ذبح الشاة - يقول : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، فقال لعبد الله - من كانوا معه : أصلحك

---

(١) رواه الحاكم عن عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه البخارى عن عائشة (ض) .

الله . إنهم الأعراب ، وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا - كان وداً لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «(١) إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه » .

وقال أبو أسيد ، مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال: يارسول الله : هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : «(٢) نعم الصلاة(٣) عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : خرجت مع جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه فى سفر فكان يخدمنى - أى وهو أسن منى ، فقلت له : لا تفعل ، فقال : إنى قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً - أى عظيماً : إكراماً له - آليت - أى أقسمت على نفسى ألا أصحب أحداً منهم إلا خدمته : أى لإكرامهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبلغ من وفاء سلفنا الصالح بالعهد - أن عبد الله بن عمر - لما حضرته الوفاة - قال إنه كان قد خطب إلى ابنتى رجل من قريش ، وقد كان منى إليه شبه وعد ، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق : أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى.

وهل انتبهت يا عبد الله لوفاء ابن عمر لخاطب ابنته ومع أنه كان بينهما شبه وعد .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) الدعاء لهما .

فاعلم أنه لا بد من الوفاء بالعهد ، إذا فهم الموعود أنك جازم بالوعد ، ولو كانت عبارتك تحتمل الجزم والقطع به أو عدم ذلك : كما تقول : إن شاء الله لمن يقول لك : تفعل لى كذا أو تقضى حاجتى ، أو تقول له يسهل ربنا .

ويدل على فهم الموعود القطع بالوعد ، وأنك وعدته حقاً - قوله ذلك فى عقب إجابتك له وهو منطلق الوجه ، مستبشر لاحرمنا الله من إحسانك إلينا دوماً . ونحو ذلك .

ويا عباد الله :

من ضروريات الحياة - التعاون ، وقضاء الناس بعضهم لبعض الحوائج ، وقد يقتضى الأمر الوعد بذلك ، وتسير الحياة حينئذ آمنة مطمئنة - مع الوفاء بالوعد - ولا شك أن المجتمع الذى يسود فيه تبادل الثقة بين أفراده بالفضائل ، ومنها الوفاء بالعهد - يكون المجتمع السعيد ، الذى كتب الله تعالى له النصر والعزة والتأييد : باطمئنان أفراده لبعض ، حيث يعقب ذلك ودهم ووحدتهم .

ولذلك - كان الأنبياء - بالعهد - أوفياء .

وقد أثنى الله تعالى على نبيه : إسماعيل عليه السلام فى كتابه العزيز ، فقال : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) .

قيل : إنه عليه السلام - وعد إنساناً فى موضع ، فلم يرجع إليه ذلك الإنسان ، ونسى موعده ، فبقى اسماعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره .

فلماذا - أيها المسلم - تعد ولا تفى ، وأنت تعلم أن الوفاء بالوعد - حلية

الأنبياء ، وقد يترتب على وعدك - مع وفائك - ضياع حقوق ، وحرمان من خير ، أفترضى لنفسك ذلك الأثر ؟

ومن وعد عازما على عدم الوفاء - كان منافقاً ، ومن لم يف لعذر خارج عن إرادته فليس بمنافق .

وقال صلى الله عليه وسلم : «(١) ليس الخلف أن يعد الرجل وفي نيته أن يفي وفي لفظ آخر : (إذا وعد الرجل أخاه ، وفي نيته أن يفي) فلم يف - فلا إثم عليه » .

وإذا كان الوفاء بعهد المخلوق فضيلة - فالوفاء بعهد الخالق أفضل .

ولهذا — حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومصعب بن عمير ، وأنس ابن النضر - وفوا بما عاهدوا الله عليه : من الثبات مع رسول الله ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين ، حتى استشهدوا .

وهذا عثمان بن عفان(٢) وطلحة رضى الله عنهما - كانا ينتظران الشهادة حرصاً على ما عاهدا الله عليه من الجهاد في سبيله بلا مبالاة بالموت حتى نزل فيهما قول الله تبارك وتعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

أيها المسلم :

إذا قلت في أمر نعم فأتمـــه	فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا ، تسترح وترح بها	لئلا يقول الناس إنك كاذب

---

(١) رواهما أبو داود والترمذي .

(٢) وقد قتل عثمان رضى الله عنه بداره وهو يتلو كتاب الله تعالى ، وقتل طلحة يوم موقعة الجمل ...

واتق الله واحذر الإصابة بمرض خلف الوعد ، فإنك به تكون منافقاً والله تعالى يقول : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) . واستمعوا - عباد الله - قول الله المجيد (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) . قال رسول الله ﷺ « آية المنافقين ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) . رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) . وقال ﷺ : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

٢ — الحث على الوفاء بالعهد

والتحذير من الغدر والإخلاف

الحمد لله : كتب الفلاح لمن وفى بعهده ، وجاء وصف مخلف وعده في قول نبيه ﷺ : « (١) آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا اؤتمن خان » ، «(٢) وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : يبغض أهل الغدر ، ويعجل لهم العقاب . في الدنيا ، ويفضحهم يوم القيامة : قال رسول الله ﷺ : « (٣) خمس يعجل الله لصاحبها العقوبة : البغي . والغدر . وعقوق الوالدين . وقطيعة الرحم ، ومعروف لا يشكر ، وقال : صـــلوات الله وسلامه عليه . « (٤) لكل غادر(٥) لواء يوم القيامة : يقال : هذه غدرة فلان » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من وفى بعهده ، ولم يغدر قط وقال : « (٦) لكل غادر لواء عند استه — أي دبره — يوم القيامة : يرفع له بقدر غدره : ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة (ض) .

(٢) هذه الزيادة في رواية لمسلم .

(٣) رواه ابن لال عن زيد بن ثابت (ض) .

(٤) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن مسعود ، وابن عمر ، وأنس (ض) .

(٥) الغادر هو الذي يعاهد ولا يفي .

(٦) الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب =

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . الأوفياء البررة الكرام .

أما بعد : فيا عباد الله :

كتب الخليفة العباسى ، هرون الرشيد عهداً ، ووضعه فى الكعبة المشرفة : بأن يكون المأمون ولى عهد الأمين : من بعده ، فتولى الأمين الخلافة بعد أبيه ، وأعلن أن ولى عهده — المأمون ، ثم غدر به ، فخلعه ومزق كتاب عهد أبيه ، وبايع لابنه موسى بولاية العهد ، إيثاراً لابنه على أخيه : بالخير ، الذى هو صاحبه .

وبلغ المأمون خبر ذلك الغدر ، فدارت المعارك بين جيشهما ، وانتهت بنصر المأمون : وتوليه الخلافة ، وخذلان الأمين ، وقتله لغدره .

وهكذا الغادر يذوق فى الدنيا وبال أمره ، ويكون الخسران عاقبة غدره .

ويوم الحساب ، يوم يقوم الأشهاد : من الحفظة والأنبياء ، والمؤمنين : يشهدون للرسل : بتبليغ الرسالة ، وللطائعين أهل الوفاء : بالطاعة . والوفاء ، ويشهدون على الكافرين والغادرين : بالكفر والعصيان . والغدر وبلغ — من فضيحة الغادر — حينئذ — أن نصب الله له — أمام الخلق جميعاً — راية لإظهار شناعته ، وجعلها عند دبره : كذيل البهيمة لزيادة

= دعوة الجيش ، ويكون الناس تبعا له ومعنى « لكل غادر لواء » أى علامة يشتهر بها بين الناس ، وكانت العرب تنصب الألوية فى الأسواق لغدر الغادر ليشتهر . رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) .

خيانته ، وتطول وتقصر الراية بمقدار غدره : يراها الناس علامة على قدر جرمه هذا الشنيع .

والغادر : أحد ثلاثة أصناف من الناس : خصمهم الله يوم القيامة ، ومن كان الله خصمه خصمه وغلبه فى الخصومة لا محالة (والله أشــــد بأساً (١) وأشد تنكيلا(٢)) : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « (٣) ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً ، فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً ، فاستوفى منه . ولم يعطه أجره » .

وليس يخاف أن حق الله أن يطاع ، ولا يعصى أبداً ، فمن عصى الله بمعصية ما — فقد أضاع حقاً لله ، واستحق أن يكون خصماً لله تعالى .

فلماذا إذاً — أعلن سبحانه أنه خصم هؤلاء الثلاثة ، وجميع العصاة خصوم له : تعالى ؟

ذلك — يا قوم — لعظم جنايتهم ، وفظاعة الضرر ، المترتب على عصيانهم .

فالغادر الناقض للعهد الحق ، الذى التزم به ، ولم يوف به من غير عذر فقد آلم من عاهده : بعدم الوفاء ، وآذاه ، وربما كان العهد أملا ، فما أفظع أن يتبدل بالنقض ألماً . وإذا كان العهد بحفظ النفس ، والعرض ، والمال . أو إفادة منفعة ، أو نحو ذلك - فيا للهول من شناعة نقض العهد

---

(١) قوة . (٢) تعذيباً .

(٣) رواه البخارى : عن أبى هريرة (ض) .

والله تعالى يقول : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وقال رسولنا ﷺ : « (١) البر لا يبلى . والذنب لا ينسى . والديان لا يموت اعمل شئت كما تدين تدان » ، وقال صلوات الله وسلامه عليه : «(٢) من أخذ أموال الناس يريد أداءها - أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها - أتلفه الله » .

والذى باع حراً ، وأكل ثمنه - سلبـــه الحرية ، وهى أنفس ما فى الحياة .

والذى استأجر أجيراً ، فاستوفى منه العمل ، ولم يعطه أجره - حرمه حقه .

ويا قوم :

الغادر خادع : يتظاهر لمن يرتبط به بحب الخير ، وهو يضمر له الشر ، فهو ماكر ، وخائن ، وغاش ، وقد قال رسولنا : «(٣) من غشنا فليس منا . والمكر والخداع فى النار » ، ومن صفات المنافق ، التى بينها ﷺ : «(٤) إذا عاهد غدر » .

---

(١) رواه عبد الرزاق فى الجامع : عن أبى قلابة : مرسلا : أى سقط الصحابى من سنده .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والبخارى ، وابن ماجه عن أبى هريرة (ض) .

(٣) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير ، وأبو نعيم فى الحلية : عن ابن مسعود : (ض) .

(٤) روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى =

ألا وإن المسلم الذي قال : رضيت بالله رباً . وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا ، وعاهد الله على طاعته ، واتباع رسوله ، وقال : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ، ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء(١) لك بنعمتك علي . وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم لم يف بما عاهد الله عليه - يكون غادراً . وخصماً للعزيز القاهر ، يوم الدين وويل . وهلاك . وعذاب لا يطاق : لمن خاصمه الله يوم القيامة ، يوم الأهوال الجسيمة ، بعد أن حذره ، وأعذر له : بالتمكن من التوبة قبل الموت ، وبشره بالجنة إن تاب وأناب ، وأنذره بالنار إن استمرأ العصيان ، وآثر العذاب على المغفرة (والله شديد العقاب) .

أيها المؤمن المتنبه :

كان العربي يخشى فضيحة التشهير بين الناس بغدره ، ونقض عهده ، ولو كان في ذلك قتله ، ولنتأمل : جعل النعمان بن المنذر ، ملك العرب قبل الإسلام لنفسه يومين : يوم بؤس : من لقيه فيه قتله ، ويوم نعيم . من لقيه فيه - أكرمه ، فتصادف أن رجلا من بني طيّ - خرج من منزله : لتحصيل قوت عياله ، فلقي النعمان في يوم بؤسه ، فأمر بقتله ، فطلب إمهاله حتى يوصل القوت إلى عياله ، ويوصي بهم أهل المروءة ، فوافق النعمان على أن يأتي بضامن ، فضمنه شريك بن عدي جليس النعمان ،

= الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيها - كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن - كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) .   (١) أرجع .

وذهب الطائى إلى عياله ، وأعطاهم القوت ، وأوصى بهم أهل المروءة ، ثم عاد إلى النعمان ليقتل ، فوجد ضامنه متأهباً : ليقتل : تنفيذاً لحكم ضمانه .

ولما وقف بين يدى النعمان ـ أطرق ساعة ، ثم قال : ما رأيت مثلك يا شريك بين أهل السماحة ، والتفت إلى الطائى ، وقال : ما رأيت أوفى منك ، فقال الطائى :

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى فعددت قولهم من الإضلال
إنى امرؤ منى الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال

فقال النعمان : والله لا أكون ألأم الثلاثة ، وألغى يوم بؤسه ، وعفا عن الطائى ، وأعاده إلى أهله مكرماً .

تصور ذلك — يا عبد الله — ثم ألست معى فى أنه لو جمع ناس فى صعيد واحد ، وقام فى حفلهم الحافل مناد يشهر إلى أحدهم بقوله : هذا فلان الغادر الخائن الغاش المخادع المنافق ، الذى أكل مال فلان ، وسفك دم فلان ، واؤتمن على السر فأفشاه ، ووعد بنصر المظلوم وإنصافه ، حتى اطمأن إليه ، فأخلف وعده ، وخذله ، وأضاع عليه فرصة العمر ، فاحذروه ، وامقتوه ، واحتقروه — لكان هذا المجرم — سيجتهد ما استطاع فى أن يختفى عن أعين الناس : مقدراً شناعة هذه الفضيحة .

فاذا يصنع الغادر ، وكيف يكون إذا وقف بين يدى ملك الملوك ، الواحد الديان ، العليم ، فلا يخفى عليه خافية ، وعلامة غدره : من ورائه فاضحة ، ويقال أمام الخلق جميعاً : هذه غدرة فلان ، ثم بعد ذلك القذف فى النار وبئس القرار .

ويا عبد الله :

من عاهد غيره : لمنفعة يرجوها ، أو ليأمن جانبه ، فإذا استغنى - عنه - أو قوى عليه - نقض عهده - كان غادراً كما كانت قريش تغدر ، وتنقض معاهدتها : ليعاهد من هم أكثر عدداً وأعز نفراً : ممن تغدر بهم .

وقد حذر الإسلام ذلك الغدر ، ونفر منه بضرب مثل لناقض العهد بعد توثيقه ، يدل على حماقته : إذ نهى سبحانه عن التشبه بالمرأة الحمقاء : ريطة بنت سعد بمكة ، التى كانت تنقض غزلها مراراً ، بعد إحكامه : لتغزله ثانياً ، والله تعالى يقول : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) .

أيها المسلم :

لعلاج النفس من ذلك الداء - انتبه تذكر نتيجة الغــدر فى الدنيا والآخرة ، وأنها هلاك وخسران ، ونتيجة الوفاء بالعهد ، وأنها رضا الله ، وحسن الحال فى الحال والمآل (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

واتقوا الله — عباد الله — ولا تخلفوا الوعد الحق بينكم ، وأوفوا بما تعاهدتم عليه : من خير لأنفسكم ولمجتمعكم واقتدوا برسولكم : صلى الله عليه وسلم : كان قد وعد أبا الهيثم خادماً ، فأتى بثلاثة من الأسرى ، فوزع اثنين وبقى واحد ، فأتت فاطمة ابنته : رضى الله عنها : تطلب منه خادماً ، وتقول : ألا ترى أثر الرحى بيدى ، فذكر وعده لأبى الهيثم ، فجعل يقول : كيف بوعدى لأبى الهيثم ، فآثره عليها ، مع حاجتها : لسابق وعده له .

ولا تغدروا — أيها المسلمون — ولا تنقضوا العهد بينكم وبين

ربكم ، وادبموا طاعته — تفلحوا ، وتسلموا من الشر ، والندامة والحسرة ، في الدنيا والآخرة (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) .

قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهي راجعة على صاحبها : البغي . والمكر . والنكث - أي نقض العهد - » : رواه أبو الشيخ وابن مردويه معاً في التفسير ، والخطيب في التاريخ عن أنس رضي الله عنه .

حفظ السر وكتمانه

الحمد لله ، عالم السرائر ، وما فى الضمائر : أدبنا بالإسلام : لراحة البال وحسن الحال : فى الحال والمآل ، وقال : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : حكم بالفلاح للمؤمنين ، ومنهم الأمناء ، الذين هم للأسرار ـ يكتمون ، وقال رسوله الأمين : « (١) لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سيد الأبرار ، وخير من كتم الأسرار للربح ، والسلامة من الخسران ، والله تعالى يقول : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، أوعية السر المنتقاة .

أما بعد : فيا عباد الله :

روى(٢) ثابت البنانى أحد كبار التابعين ، عن أنس بن مالك ، صاحب رسول الله ﷺ قال : أتى على رسول الله ﷺ ، وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلم علينا ، فبعثنى فى حاجة ، فأبطأت على أمى ، فلما جئت قالت : ما حبسك؟

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقى فى الشعب عن أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم ، وروى البخارى بعضه مختصر .

فقلت : بعثنى رسول الله ﷺ لحاجة . قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سر أى أمر يكتم ، ولا يخبر به . قالت : لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحداً قال أنس : والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت وذلك لمكانة ثابت عنده ، وحبه له .

يا قوم :

لقد كان أنس غلاماً صغيراً حين حفظ سر رسول الله ، وكتمه حتى عن أحبائه المقربين ، ولقد أعدت أمه هذه الفضيلة فى نفسه إذ قالت له : لا تخبرن بسر رسول الله أحداً ، ليشب على ذلك ، ومن شب على شىء شىء شاب عليه ، ولذلك لم يخبر بعد أنس بذلك السر ثابتاً .

وحافظ الأسرار ، وكاتم الأمور الواجبة الكتمان ـ رفيع القدر عند الله والناس ، وفائز ببلوغ أمله ، وممتاد لاجتناب الغيبة والنميمة ، وهما ذنبان قبيحان ، وشران منتشران : مبعدان عن الرحمن ، مغضبان الديان .

عباد الله :

أمور الناس من حيث إفشاؤها وكتمانها نوعان :

أمور واجبة الإفشاء : للانتفاع بها : كصوم داود عليه السلام . قال رسولنا ﷺ : « (١) أفضل الصوم صوم أخى داود : كان يصوم يوماً ويفطر يوماً » .

وأمور واجبة الكتمان ، وهى ما يعد سراً : إذ قد يكون فى إفشائها إضرار بصاحبها أو بغيره .

---

(١) رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما وآخر الحديث « ولا يفر إذا لاقى » .

فلو أفشى التاجر سر تجارته للناس ، وأطلعهم عـلى ثمن بضاعته لقل ربحه ، وانصرف الناس عنه : بما يعلن فى نفوسهم من الرغبة الشديدة فى الاستيلاء على الشىء بأقل ثمن ممكن .

وكم من شخص أطلع سواه على حاجة يريدها ، فسبقه إليها : كوظيفة خالية يسعى إليها ، أو منزل يريد شراءه ، أو امرأة يريد التزوج بها .

ومن هنا نصح لنا رسولنا ﷺ ، فقال «(١) استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود » .

وقلما كان ﷺ يخرج لغزوة إلا ورى بغيرها ، وكتم سرها : ليعمى الأخبار على العدو .

وإن الذى يفشى سره لغيره — يحكمه فى نفسه ، ويجعل زمامه بيديه ، فإن حفظ سره — كان محسناً إليه ، وإن أفشاه — كان مسيئاً إليه ، وربما أضر به ، وعطل مصالحه .

ولذلك يتملق المرء من أفشى إليه سره الذى يخشى عقباه ، وإذا رأى منه إعراضاً ، أو أحس منـه جفوة — لم يصبر على ذلك ، وسعى إليه يترضاه : مخافة أن يبوح بسره ، فيحل عليـه أذاه فعلى صاحب السر أن يبالغ فى كتمانه : بقدر ما يعلمه من الضرر الذى يلحقه من إفشائه ، فإذا هو أفشاه لغيره — فلا يلومن إلا نفسه : أسواه أحق بحفظ سره منه ؟

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يستودع السر أضيق

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

وحقاً قد تدعو الضرورة إلى أن يفضى المرء بسره إلى بعض خاصته : من أصدقائه . وأحبائه : تنفيساً لكربته . وهمه ، أو استعانة برأيهم فيما أهمه .

فعلى الأصدقاء والأحباء حينئذ أن يحتفظوا بما اؤتمنوا عليه : من السر ، وإلا كانوا خائنين ، وللعهد ناقضين ، ولأنفسهم ظالمين (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) : ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، فلا تنطبق أجفانهم على بعضها : من هول ما يرونه .

واسمعوا — يا قوم — وعوا . وانتفعوا : روى فى الصحيح(١) أن النبى ﷺ — كان يمكث عند زوجه — زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا ، وكان يحب الحلواء . والعسل ، فتواصت زوجاه عائشة ، وحفصة : لما وقع فى نفسهما : من الغيرة : من ضرتهما — على أن أيتهما تقول إذا دخل عليهما الرسول ﷺ : إنى أجد منك ريح مغافير : أكلت مغافير : « وهو صمغ حلو ينضحه شجر العرفط : يؤخذ ثم ينضح(٢) بالماء ، فيشرب وله رائحة كريهة » ، فدخل ﷺ : على حفصة ، فقالت له ذلك ، فقال : لا . بل شربت عسلا ، عند زينب بنت جحش ، فقالت : جرست — نحله العرفط — أى أكلت . ورعت منه — فحرم العسل لذلك ، وكان يكره كريه الرائحة ، وقال : لن أعود ، وقد حلفت ، فلا تخبرى أحداً ، فأخبرت عائشة بذلك كله ، فأطلعه الله تعالى على إفشائها السر لعائشة ، فأعلم حفصة ببعض الحديث . الذى أفشته ، وقد استكتمها

---

(١) الحديث الصحيح الذى رواه البخارى . (٢) يرش .

إياه، ولم يخبرها بباقيه : تكرماً لما فيه : من مزيد خجلها قال لها : أفشيتموا قولى : كنت شرب عسلا عند زينب ولن أعود ، ولم يقل لها : أفشيت قولى : وقد حلفت ، فظنت حفصة أن عائشة هى التى أخبرته بالسر ، فقالت له ﷺ : « من أنبأك هذا » ؟ « قال نبأنى العليم الخبير » .

ورفقا به : ﷺ ، وتنويهاً بقدره ، وإجلالا لمنصبه - عاتبه(١) تبارك وتعالى : لمراعاته مرضاة أزواجه : بما يشق عليـــه ، وشرع له ولأمته التحلل من اليمين : بكفارته - رأفة ورحمة ، ووجه سبحانه مهدداً(٢) حفصة وعائشة إلى التوبة من ميلهما عن الواجب عليهما له ﷺ : وهو حب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه - إلى مخالفته ، وتدبير ما شق عليه ﷺ ، فقال : جل شأنه : إن تتوبا إلى الله فقد صغت(٣) قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه - أى تتعاونا عليه ﷺ : بما يسوؤه : من الإفراط فى الغيرة . وإفشاء سره - فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين وصالح المؤمنين والملائكة بعد(٤) ذلك ظهير(٥) » : مظاهرون له ، ومعينون . وناصرون

وإن الذى يعرف بكتمان السر - يثق به الناس ، ويأتمنونه ، ويلتفون حوله .

ومن كان موضع ثقة الناس كذلك ، ومحبوباً بينهم - كان أقدر على تحصيل الخير لنفسه ، ودفع الضرر عنها ، والرسول : ﷺ يقول : «(٥) احرص على ما ينفعك » .

---

(١) ليقرأ من شاء لذلك - أو سورة التحريم . (٢) مخوفاً .
(٣) مالت عن الواجب . (٤) بعد نصرة الله تعالى له : ﷺ .
(٥) جزء من حديث رواه مسلم .

وبلغ من فضل كتمان السر لمنفعة الدولة ـ أن أبيح الكذب : إخفاء لقوتنا وخطط دفاعنا على العدو : حرصاً على سلامتنا من الهوان ، وسعياً لعزنا وحياتنا فى أمان .

ومن الحكم ـ كتمان السر يوجب السلامة ، وإفشاؤه يعقب الندامة .

ومن كبائر الذنوب ـ أن يفشى الزوجان سر بعضهما ، وما يقع منهما لبعضهما فى الخلوة فإن فى ذلك إغراراً لغيرهما بهما : قال صلى الله عليه وسلم : «(١) إن من أشر الناس عند الله ـ منزلة يوم القيامة ـ الرجل يفضى(٢) إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها » .

ومن أسوأ إفشاء السر ـ إفشاء سر معصية ، تحريضاً لغيره عليها ، وفضحاً لنفسه ، وإعلاناً لجرأته على الله (والله عزيز ذو انتقام) .

أيها المسلم :

اتق الله ، واحفظ سر زوجك ، كما يجب عليها أن تحفظ سرك ،

وإن أردت نجاحاً أو بلوغ منى فاكتم أمورك عن حاف ومنتعل

ولا تكشف سر معاصيك ، واحفظ سر غيرك (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله تعالى ، فيقول : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف

---

(١) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى (ض) .

(٢) من الإفضاء وهو مباشرة البشرة البشرة . وهو كناية عن الجماع .

ستر الله عنه » : رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا هذه القاذورات(١) التى نهى الله تعالى عنها فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله وليتب إلى الله فإنه من يبد لنا(٢) صفحته نقم عليه كتاب(٣) الله » رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

---

(١) تشمل سائر المعاصى فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى قال فى عقبه الرسول صلى الله عليه وسلم هـذا القول ، وهو إقامة حد الزنا .

(٢) من يظهر لنا ما حقه الإخفاء : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله » .

(٣) حد كتاب الله : فإنه منزل به .

الحث على بر الوالدين

الحمد لله : وضع منهاج الحياة الطيبة ، فبدأ بالحث على عبادته : وحده ، وثنى بالإحسان إلى الوالدين ، فقال : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : جعل طاعة الوالدين فى غير معصية سبباً لرضاه : وفى الحديث : «(١) رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين ، وسخط الله تعالى فى سخط الوالدين » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل : «(٢) ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين بروا آباءهم ، وأدبوا أبناءهم ، فكانت الدنيا بهم فى هناء برضاء الله تعالى .

أما بعد : فيا عباد الله :

كان على بن الحسين رضى الله عنهما لا يأكل - مع أمه - فى وعاء واحد ، وهى عنه . فى ذلك - راضية ، فقيل له : لم هذا قال : أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تشتهى ، فأكون قد عققتها : وإن الجنة يوجد ريحها من سيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق فقد طلب بعدم أكله مع أمه - السلامة من العقوق ، وفيه السلامة من أليم العذاب .

---

(١) رواه البزار عن عبد الله عمر بن الخطاب (ض) .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ثوبان (ض) .

وطوبى لمن به اقتدى وإن الله تعالى - جعل الوالدين السبب المباشر لنعمة الوجود : لكل مولود .

فوالداك — يا عبد الله — سبب وجودك ، وأصل حياتك ، وإنك جزء منهما : فمن دمهما — يكون عظمك ، ولحمك ، وسائر جسمك ، وبعد أن نفخ سبحانه فيك من روحه ، وتم حمل أمك لك : فى بطنها تسعة أشهر غالباً : لاقت فيها ما لاقت : من تعب . وألم ، وضعف وسقم - وضعتك كذلك ، ولم يلته بالوضع ألمها وتعبها ، فكم سهرت من أجلك الليالى : بنفس راضية ، حريصة على حسن حالك ، وكم بكت ، وتمزق قلبها عند مرضك ، وقد أرضعتك ، وخدمتك ، وتعهدت بدنك ، وثيابك : بالتنظيف ، وأزالت إفرازاتك ، ولا قصد لها من ذلك إلا أن تعيش فى صحة وعافية : ولذلك - قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن) وقال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) ، وكم أقلق صياحك — يا عبد الله — مقام أبيك ، وكم شغل مرضك قلبه ، فيسعى باذلا من راحته . وماله ، وشفاؤك غاية أمنيته ، ولا يزال الوالدان يتعهدان الولد بالحفظ . والرعاية . والتهذيب والتربية ، إلى حين مسئوليته . تعد الأم فى البيت ما يلزمه : من ابتهاج ورضا ، ولذلك - لما قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال «(١) أمك . قال ثم من قال : أمك قال : ثم من : قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أبوك » .

ويسعى الأب فى كسب نفقة الولد ، وما يسد حاجته ، ولم يجعل الرسول مكافئاً لهذا السعى إلا الحرية ، التى لا تقدر بثمن ، فقال :

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) .

« لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكاً ، فيشتريه فيعتقه » رواه البخارى فى الأدب المفرد ، ومسلم : فى صحيحه : عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

أيها المسلمون :

أعلن الإسلام فضل الوالدين ، وذكر الأولاد بنعمة حنوهما عليهم ، الجديرة بعظيم شكرهم وبرهم لهما . حتى قال رسول الله صلى الله وسلم لرجل هاجر إليه : يريد الجهاد فى سبيل الله : وله أبوان قد تركهما : هل أذن لك أبواك ؟ قال : لا : قال : فارجع إليهما ، فاستأذنهما . فإن فعلا ـ فجاهد ، وإلا فبرهما : ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد : كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر .

فانتباهاً . انتباهاً ـ أيها المؤمن : لما يجب عليك نحو والديك وحسبك أن تضع نصب عينيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عن حق الوالدين : «(١) هما جنتك ونارك » : فبرهما ـ الجنة ، وبعقوقهما ـ النار ، وكم رأينا كثيراً من الناس : قد ساءت حالتهم ، وتقوضت سيادتهم : بسبب عقوق الوالدين أو أحدهما ، ولم ينقذهم مالهم ، ولا جاههم وسلطانهم ، وقد قال رسولنا : صلى الله عليه وسلم : «(٢) كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين : فإن الله يعجله لصاحبه .. فى الحياة قبل الممات » .

فيا حريصاً على سعادتك فى الدارين : برضا الله عنك فى الحياتين

(١) رواه ابن ماجه عن أبى أمامة (ض) .
(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك والأصبهانى فى الترغيب عن أبى بكرة (ض) .

- بِرّ والديك ، وأحسن إليهما ، وابذل كل ما فى جهدك فى خدمتهما ، وقضاء مصالحهما الشرعية خصوصاً عند الشيخوخة ، والضعف : وإن كانا كافرين : قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) .

وقال : صلى الله عليه وسلم : لمن قال له : إن أبى يريد أن يأخذ مالى «(١) أنت ومالك لأبيك .

وليس بر الوالدين قاصراً على حياتهما : بل يمتد - بعد موتهما : جاء رجل من بنى سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : «(٢) نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما » ، وقال : صلى الله عليه وسلم : «(٣) من زار قبر والديه أو أحدهما فى كل جمعة - غفر له ، وكتب براً » .

ومما يعين ولدك على برك - تربيته على مبادىء الدين الحنيف ، واحذر إغضاب أمك اتباعاً لهوى زوجتك ، وأرض أباك إرضاء لربك (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) ، واعلم أن صلاحك واستقامتك بعد موتهما من برهما : فأعمالك تعرض عليهما فى يوم الجمعة فيفرحان

---

(١) رواه البزار عن سيدنا عمر بن الخطاب (ض) .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى (ض) .

(٣) رواه البيهقى فى الشعب وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور : عن محمد بن النعمان : (ض) .

بحسناتك ويزداد وجهاهما بياضاً وإشراقاً (والله ذو فضل عظيم).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ترك العبد الدعاء للوالدين انقطع عنه الرزق» رواه الحاكم فى التاريخ، والديلمى، فى مسند الفردوس: عن أنس بن مالك: رضى الله عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أولادكم هبة الله تعالى لكم: يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، فهم وأموالهم لكم» رواه أبو داود والحاكم، والبيهقى، والديلمى، وابن النجار.

وظلم الوالدين بالحرمان من مالهما، وإن كان حراماً - لا يمنع برهما وأجر برهما - حينئذ - عظيم عند الله، الذى بيده - خير الدنيا والآخرة: (١) قال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح مطيعاً لله: فى والديه - أصبح له بابان مفتوحان من الجنة: وإن كان واحداً فواحدا، ومن أصبح عاصياً لله فى والديه - أصبح له بابان مفتوحان من النار وإن كان واحداً فواحدا: قال رجل: وإن ظلما؟ قال: وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما».

وما أسوأ عقبى ذلك الولد العاق: الذى يتنكر لوالديه، ويحتقرهما: لمال. أو جاه: من - عليه بهما، أو بأحدهما - الله الذى أعد لعاق والديه عذاباً شديداً، وإذا شاء سلبه ما أعطاه، وجزاه بولد يعامله: كما عامل أمه وأباه، ويقول: جل شأنه: (من يعمل سوءاً يجز به).

وكثيراً نقرأ فى الصحف أنباء من يقتلون أمهاتهم وآباءهم: استعجالا لميراثهم عنهم - وهو - لا شك - عرض زائل، ومتاع قليل، وما أشد عذاب هذا القاتل، وربما - ثبتت إدانته فقتل: كما قتل،

(١) رواه ابن أبى شيبة، والبيهقى.

وقد قضى الله الحكم العدل : بحرمان القاتل : من الميراث : فمن استعجل بشيء : قبل أوانه ـ عوقب بحرمانه .

أيها المسلم :

اتق الله ، وبر أمك وأباك : لتكون قدوة لولدك فى بر الوالدين ، ويوفقه الله . لبرك ، فتفوز بثمرة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله والداً أعان ولده على بره » : رواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب عن سيدنا على رضى الله عنه .

مكانة الوالدين وحقوقهما فى الإسلام

الحمد لله ، الذى قضى بعبادته وحده ، وبالإحسان إلى الوالدين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، الذى منه كل النعم ، ومنها رحمة الأبوين .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى دعا إلى كسب المرء خير الحياتين ، وأخبر أن رضا الله فى رضا الوالدين ، وسخطه تعالى فى سخطهما وبلغ قوله سبحانه (وبالوالدين إحساناً) .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فيأيها المسلمون ..

أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما - قدمت عليها أمها ، وهى مشركة : فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتته ﷺ قائلة : إن أمى قدمت ! وهى راغبة - فى برى - أفأصل أمى ؟ قال : « (1) نعم ، صلى أمك » . قال ابن عيينة : فأنزل الله فيها : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

ومر رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبى بن سلول - وهو جالس فى ظل ، فقال : قد غبر علينا ابن أبى كبشة : يقصد رسول الله ﷺ ، فقال ابنه عبد الله : والذى أكرمك ، وأنزل عليك الكتاب : لئن شئت لأتيتك

---

(1) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والبيهقى فى شعب الإيمان .

برأسه ، فقال النبي ﷺ : «(١) لا ، ولكن برّ أباك ، وأحسن صحبته» .

وقال ﷺ : «(٢) كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات» .

وهكذا الإسلام في بر الوالدين وإكرامهما . ولا يسع أحداً إنكار أن الوالدين - هما السبب في وجوده ، وأنهما الرحيمان من الخلق به ، وأن صنيعهما هو السر في نموه ، حتى عرف وسائل العيش ، وكيف يحيا .

فلا شك في أن الإنسان - وهو ينظر لذلك - يسلّم منقاداً ، ولا يعجب لأمر الله : بوجوب برهما ، والإحسان إليهما ، ولو كانا مشركين ، فكيف إذا كانا مسلمين ، موحدين لله .

ومن برهما ، والإحسـان إليهما — وجوب طاعتهما في المعروف والخير ، لا في المعصية والشر . قال أبو الدرداء رضي الله عنه «(٣) أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسع : لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت أو حرقت ، ولا تتركن الصلاة المكتوبة متعمداً ، ومن تركها متعمداً برئت منه الذمة ، ولا تشربن الخمر فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج من دنياك - فاخرج لهما ولا تنازعن ولاة الأمور ، وإن رأيت أنك : أنت أي أولى منهم ، ولا تفر من الزحف وإن هلكت ، ووقر

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط : عن أبي هريرة (ض) .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك والأصبهاني في الترغيب عن أبي بكرة (ض) .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد .

أصحابك ، وأنفق من طولك - من فضلك - على أهلك ، ولا ترفع عصاك عن أهلك ، وأخفهم فى الله عز وجل » .

فوالدا الإنسان : بحكم الإسلام - يتصرفان فى شئون دنياه كما يشاءان ما دام ذلك يرضى الديان جل وعز .

ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: كانت تحتى امرأة أحبها ، وكان أبى يكرهها(١) فأمرنى أن أطلقها فأبيت ، فذكر ذلك لرســول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا عبد الله بن عمر «(٢) طلق امرأتك » . وفى رواية : « أطع اباك وطلق امرأتك » .

فإذا كانت طاعة الوالدين واجبة فى طلاق الزوجة - فطاعتهما واجبة بالأولى فى غير الطلاق من شئون الدنيا ومتاعها ولذاتها .

ولكن ليس كل الآباء أهل عدل كعمر ، ولذلك سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، فقال : إن أبى يأمرنى أن أطلق امرأتى . فهل أطلقها ؟ قال : لا تطلقها ، فقال الرجل : أليس عمر أمر ابنه أن يطلق امرأته ؟ قال : إذا كان أبوك مثل عمر رضى الله عنه فافعل .

وقال صلى الله عليه وسلم : « (٣) طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « (٤) لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

---

(١) لا لهوى نفسه بل لله طبعاً فإنه عمر (ض) .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

(٣) رواه الطبرانى عن أبى هريرة (ض) وسنده حسن .

(٤) رواه أحمد والحاكم عن عمران بن حصين (ض) .

ولذلك اتفق العلماء على وجوب طاعة الوالدين فيما لم يكن متفقاً على تحريمه ، أما المتفق على تحريمه فلا طاعة للوالدين فيه ، فلا طاعة لهما فى كشف البالغة عورتها ، ومن عورتها : الرأس والذراعان والفخذان والركبتان والساقان ، فلتسمع لابسات « الميني جيب » العاصيات الرب .

وليسمع ذلك كل مرتكب لمعصية : تقليداً لأبويه ، فلا عذر له .

ومن البر بالوالدين — الحنث فى اليمين وتوقيهما : من أجل رضاهما فمن حلف لا يأكل مع والديه أو أحدهما أو على نحو ذلك — وقع اليمين وكفر عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «(١) لا يمين لولد مع يمين والد ، ولا يمين لزوجة مع يمين زوج ، ولا يمين لمملوك مع يمين مالك ، ولا يمين فى قطيعة ، ولا نذر فى معصية ، ولا طلاق قبل نكاح ، ولا عتاق قبل الملك ، ولا صمت يوم إلى ليل ، ولا مواصلة فى الصيام ، ولا يتم بعد حُلم ، ولا رضـــاع بعد الفطام ، ولا تعرب بعد الهجرة ، ولا هجرة بعد الفتح » .

وليسمع البخيل بماله على أبويه ، فإنه وما كسب لهما . قال رجل : يا رسول الله إن لى مالا وولداً ، وإن أبى يريد أن يجتاح مالى ؟ قال : «(٢) أنت ومالك لأبيك » .

ومهما أنفق المرء على أبويه من مال ، ومهما قام بخدمة لهما ـ فلن يؤدى حقهما . قال رجل : يا رسول الله : إنى حملت أمى فى رمضاء شـــديدة

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد مسند أبيه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه عن جابر (ض) .

لو ألقيت فيها بضعة(١) من لحم ـ لنضجت ، فهل أديت شكرها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «(٢) لعله أن يكون بطلقة واحدة » ـ أى من طلقات الولادة ـ وهل يعدو أحد مرات عناء أمه فى سبيله ، ومع ذلك ـ كانت راضية ، وتتمنى بقاءه وطول حياته ، وإن تكلف هو فى سبيلها أمراً فعله متألماً مع تمنى وفاتها .

ولنتصور عظم بر الوالدين المسلمين ، وفضل الإحسان إليهما بتقديم ذلك على الجهاد فى سبيل الله : مالم يكن ذلك الجهاد فرض عين متعينا على الجميع : كجهادنا اليوم لإسرائيل ، فإنهم يحتلون اليوم بعض بلادنا ، ونحن جميعاً فى مواجهتهم .

هاجر رجل من أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «(٣) هل لك أحد باليمن ؟ قال: أبواى . قال أذنا لك ؟ قال : لا قال : فارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما) .

فالله الله فى والديك : أكرمهما غاية الإكرام لتفوز بدعائهما لك فهو مستجاب ، وتحقق العظيم الأجر من العزيز الوهاب .

والأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ «(٤) قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال : أبوك » .

---

(١) قطعة ؛

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن بريدة (ض) .

(٣) رواه أبو داود وابن حبان عن أبى سعيد الخدرى (ض) .

(٤) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) .

وعن الحسن البصرى : فى الرجل تقول له أمه : أفطر . قال : يفطر ، وليس عليه قضاء وله أجر الصوم أى الذى هو تطوع ، وإذا قالت : أمه لا تخرج إلى الصلاة كصلاة الجمعة مثلا ، فليس لها فى هذا طاعة لأن هذا فرض .

ولكن من الخير أن يسمح الوالدان للأولاد بالتدرب على نوافل الصوم والصلاة : لاعتيادهم ذلك ، وكم فى ذلك من فوائد . قال تعالى فى الحديث القدسى : «(١)ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

ألا وإن ثواب بر الوالدين يعـــدل ثواب حج النافلة . أتى رجل رسول الله ﷺ ، فقال إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : «(٢)هل من والديك أحد ؟ قال : أمى . قال : فاتق الله فيها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » .

وقال ﷺ : « (٣) الجنـــة تحت أقدام الأمهات » فمن خضع لأمه دخل الجنة .

ولأن رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما ـ كان الولد المرضى لهما ـ مرضياً عنه من ربه ، ومغفور الذنب ، ومبارك العمر بفعل الخيرات

---

(١) جزء من حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة (ض) .

(٢) رواه ابن مردويه والبيهقى وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط والصغير عن أنس بن مالك (ض) .

(٣) رواه ابن شاهين عن أنس (ض) .

وترك المنكرات ، وفى ذلك : الذكر الحسن حتى بعد الممات . قال ﷺ : «(١)من بر والديه طوبى له : زاد الله فى عمره » .

ويزيد الرزق ببر الوالدين ، قال ﷺ : «(٢) من سره أن يمد له فى عمره ويزاد فى رزقه ـ فليبر والديه ، وليصل رحمه » .

ولا عجب فى ذلك : قال بعض العارفين : بر الوالدين شكر لله تعالى ، لأن الله تعالى قال : (أن اشكر لى ولوالديك) فإذا برهما فقد شكرهما ، ومن شكرهما فقد شكر الله ، وقد قال فى تنزيله : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

ومن العبادة النظر إلى الوالدين بالرحمة والحنان : قال ﷺ : «(١) ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظرة رحمة إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة ، قالوا : وإن نظر كل يوم مائة مرة ، قال : نعم الله أكبر وأطيب .

ومن الإحسان إلى الوالدين الدعاء لهما واحترامهما والقيام لهما وتقبيل يدهما ، والحج عنهما وخاصة إذا لم يكونا قد حجا ، وألا يرفع يده عليهما عند الكلام معهما ، ولا يقدم أمره على أمرهما ، وألا يتبرأ منهما ، وأن يبرهما بعد موتهما . قال مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة ، فقال يارسول الله هل بقى من بر والدى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد وأبو يعلى والطبرانى والحاكم والأصبهانى عن معاذ ابن أنس (ض) .

(٢) رواه أحمد عن أبى (ض) .

(٢) رواه البيهقى فى الشعب عن ابن عباس (ض) .

إلا بهما وإكرام صديقهما ، رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

أيها المسلمون :

اتقوا الله تعـــالى ، واعرفوا مكانة الوالدين ، فاحترموهما ، وأدوا حقوقهما كاملة ، واسعوا إلى كسبكم غفران ذنوبكم بأنسهما بكم عند زيارتكم قبريهما ، فروح الميت لها ارتباط بقبره ، لا تفارقه أبداً . ولذلك يعرف من يزوره . قال ﷺ : « ما من عبد يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » رواه الخطيب وابن عساكر ، وقال صلوات الله وسلامه عليه : « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة - غفر له ، وكتب براً » رواه البيهقي .

الحث على تأدية حقوق الزوجين

وسبيل تيسير ذلك

الحمد لله شرع الزواج لتكوين الأمة المسلمة : من أسر صالحة ، ولذلك حث رسولنا على تزوج المتدينة ، قال : «(١) تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها(٢) ولجمالها ولدينها : فاظفر بذات الدين تربت(٣) يداك » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : جعل كلا من الزوجين ودوداً لصاحبه . ورحيماً به : يستريح بالإفضاء إليه بسر نفسه ، ويطمئن إليه في كل شئونه وقال : سبحانه : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : دعا الزوجين إلى حسن المعاشرة ، وقال : «(٤) خيركم خيركم للنساء » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، المخلصين : عباداً وأزواجاً ، المستقيمين سيراً وسلوكاً ومنهاجاً .

أما بعد :

فقد أعلن ﷺ : فضل طاعة الزوج : خرج رجل في عهده إلى سفر ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة (ض) . (٢) ولشرفها .

(٣) أي إن خالفت الأمر ، وليس المراد بهذه الكلمة حقيقة الدعاء وهو الالتصاق بالتراب : أي صرت فقيراً : بل الحث على ذات الدين .

(٤) رواه الحاكم : عن ابن عباس : رضي الله عنهما .

وعهد إلى امرأته ألا تنتقل من مكانها ، وكان أبوها يقيم فى أسفل البيت ، فأرسلت إليه ﷺ : تستشيره فى النزول إليه : حين مرض ، ثم حين مات ، فقال فى الحالين — : أطيعى زوجك ، فدفن أبوها ، فأرسل إليها صلى الله عليه وسلم : يخبرها أن الله غفر لأبيها بطاعتها لزوجها .

وقال صلى الله عليه وسلم «(١) إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها — (ـ قيل لها : أدخلى الجنة : من أىّ أبواب الجنة شئت ـ) .

فطاعة الزوجة لزوجها — نعمة لها ولوالديها ، وحسن معاملتها له ، وحرصها على كل ما يكسبها رضاه ـ تنمية للسعادة المنزلية ، وتثبيت ـ فى هناء ـ للحياة الزوجية .

ولذلك ـ عنى ـ فى كل زمان . ومكان ـ الآباء والأمهات : بتأديب بناتهم . وتوصيتهن .

ومن ذلك ـ ما قال أسماء(*) بن خارجة الفزارى لابنته : عند زفافها إلى زوجها : يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى أن لو كانت باقية : أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى . فافهمى عنى ما أقول : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت ، وصرت إلى فراش لا تعرفينه . وقرين لا تألفينه ، فكونى له أرضاً (٢) ـ يكن لك سماء(٣) ، وكونى له

---

(١) رواه الإمام أحمد : عن عبدالرحمن بن عوف : رضى الله عنه .

(*) كان من حكماء العرب ، وروى هذا عن صاحب العقود والبيهقى فى الشعب .

(٢) أى مطيعة أو ذليلة منقادة . أو هينة .

(٣) يظل عليك برأفته ورفعته ، أو يمطر عليك بإحسانه ونعمه .

مهاداً (١) - يكن لك عماداً (٢) ، وكونى له أمة يكن لك عبداً ، ولا تلحى (٣) به فيقلاك ، ولا تباعدى (٤) عنه فينساك (٥) : إن دنا منك (٦) - فادنى منه ، وإن نأى (٧) عنك ، فابعدى (٨) عنه ، واحفظى أنفه . وسمعه . وعينه : فلا يشم منك إلا طيباً . ولا يسمع إلا حسناً ، ولا ينظر إلا جميلا : زيناً ، وكونى كما قلت لأمك ليلة ابتنائى بها :

خذى العفو منى تستديمى مودتى
ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرك الدف مرة
فإنك لا تدرين أين المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهوى
فيأباك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وهكذا تكون الآباء الرحماء ، الأكياس الحكماء .

ولما تزوج الحارث بن عمرو ، ملك كندة - ابنة عوف بن محلم الشيبانى ، وأرادوا أن يحملوها إليه - قالت لها أمها :

---

(١) فراشاً . (٢) تستندين إليه .
(٣) لا تلحى عليه فى شىء .
(٤) كناية عن امتناعها عنه فى الفراش .
(٥) فيغفل عنك فالبعيد عن العين بعيد عن القلب .
(٦) أى بالمداعبة والانبساط . (٧) بقبض وهيبة .
(٨) أى كونى من فلتاته على حذر .

أى بنية . إن الوصية لو تركت لفضل أدب ـ تركت : لذلك : منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج : لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ـ كنت أغنى الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت : إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكا .

يا بنية : احملى عنى عشر خصال ـ تكن لك ذخراً ، وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا طيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه : فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله : فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً فإنك إن أفشيت سره ـ لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره ـ أوغرت صدره ، ثم اتقى مع ذلك — الفرح : إن كان ترحاً والاكتئاب عنده : إن كان فرحاً فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً ـ يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ـ يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك : فيما أحببت . وكرهت ، والله يخير لك :

لحملت إليه ، فعظم موقعها منه ، وولدت له الملوك السبعة ، الذين ملكوا اليمن بعده .

وهكذا تكون الأمهات الفضليات وبالله تعالى — التوفيق والهداية .

ويا قوم :

خير البيوت : ما عمر : بحسن المعاشرة ، ويتحقق ذلك بمراعاة كل من الزوجين حق صاحبه . وبإخلاصه : في قيامه بواجبه ، فتعمل الزوجة بوصايا أسماء لابنته ، وبنصائح امرأة عوف لابنتها وتطيع زوجها في كل معروف ، وقد قال ﷺ : « (١) خير النساء امرأة : إذا نظرت إليها - سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها - حفظتك في نفسها ومالك » .

ولقد كان نساء السلف كذلك ، فكانت كل واحدة تقول لزوجها : إذا خرج من منزله : إياك وكسب الحرام ، فإننا نصبر على الجوع ، ولا نصبر على النار .

وانتبهوا لنموذج ومثل حسن للزوجة الصالحة : في حياتها وغدها : كان أمير المؤمنين : عمر رضى الله عنه — يعس بالليل ، فسمع امرأة تقول لابنتها : قومى يا بنية إلى اللبن وامزجيه بالماء : استعداداً لبيعه في الصباح فقالت لها الفتاة : إن أمير المؤمنين أرسل منادياً ينادى ألا نغش اللبن ، فقالت لها : وأين أمير المؤمنين منا الآن ؟ فقالت الفتاة إن كان أمير المؤمنين بعيداً عنا — فرب أمير المؤمنين قريب منا ، ولا يخفى عليه فعلنا وشأننا ، ولئن نجونا من عذاب الدنيا - فكيف ننجو من عذاب الآخرة (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

---

(١) رواه ابن جرير : عن أبي هريرة : رضى الله عنه .

فأعجب أمير المؤمنين بصلاح الفتاة ، واختارها زوجاً لابنه عاصم ، فولدت له أم عمر بن عبد العزيز ، الذى قال فيه الإمام الشافعى : إنه خامس الخلفاء الراشدين .

وهكذا الصلاح - رفع رتبة ابنة بائعة اللبن ، فكانت زوجة ابن أمير المؤمنين ، وأصلا للفرع الصالح ، خامس الخلفاء الراشدين .

ومن حقوق الزوج على زوجته — أن تعنى بشئونه ، وشئون بيتها ، ولا ترهقه : فى مطعم أو كسوة ، ونحو ذلك من المطالب ، ولا تسىء إليه بكفران النعمة ، ولا تدخل أحداً يكرهه منزله : قال ﷺ : «(١) لا يحل للمرأة أن تصوم — أى تطوعاً — وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه » .

وكذلك — لا يحل لامرأة أن تعطى عطية إلا بإذن زوجها ، وإلا كان له الأجر ، وعليها الوزر ، ولا أن تقوم من فراشه : تصلى : تطوعاً إلا بإذنه ، وقال ﷺ « أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها — كانت فى سخط الله حتى ترجع إلى بيتها أو يرضى عنها زوجها » .

وعلى الزوج أن ينفق على زوجته من غير تقتير ولا إسراف : قال تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) ، وقال ﷺ : « أول ما يوضع فى ميزان العبد يوم القيامة نفقته على أهله » .

وعلى الزوج أن يعدل بين الزوجات فلا يفضل بعضهن على بعض فى

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود : عن أبى هريرة : رضى الله عنه .

النفقة والمبيت والكسوة : قال ﷺ «(١) من كان له امرأتان ، فمال إلى إحداهما : أى فلم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

ولا يهجر الزوج زوجته بلا سبب ، ولا يؤذها بغير مبرر : ومن الإيذاء – السهر فى خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليـــل بغير سبب مشروع .

وسئل(٢) ﷺ : « ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا المبيت » .

وحرام على الزوج — أن يمسك زوجته تحت يده ضراراً اعتداءاً عليها : حتى تقول حق برقبتى ، وتبرئه من حقها .

وعلى الزوج إرشاد الزوجة إلى طرق الخير ، وحثها على سلوكها ، وتجنب الشر ، والابتعاد عن مواطنه .

فعليه أن يحثها على الصلاة ، والله تعالى يقول : (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) .

وليحذرها من الذهاب إلى دور اللهو والخلاعة ، وإلى الدجالين ، وإلى المآتم حيث إغضاب رب العالمين ولا يمنع الزوج زوجته : من التصرف المشروع فى مالها أو زيارة أهلها ، أو الذهاب لسماع العظات فى المساجد ، وإقام الصلاة : مع أمن الفتنة ، وعدم الاختلاط بالرجال ، ومع التأدب

---

(١) رواه أبو داود ، وكثير غيره .

(٢) رواه أبو داود : عن حكيم بن معاوية عن أبيه (ض) .

بأدب الدين . ومنه الخروج بغير تعطر وزينة ، قال (١) ﷺ : «إذا خرجت المرأة إلى المسجد — فلتغتسل من الطيب كما تغتسل من الجنابة» .

وليعتصم الزوجان بالصبر والحلم لتحسن بينهما المعاشرة ، ويسلم البيت من الهدم والطلاق ومن سوء عاقبة سوء العلاقات ، ولذلك — من وصاياه ﷺ : «(٢) لا تغضب» ولك الجنة أى يا من لا يغضب ، وهى دار السلام فى الآخرة ، وطيب الحياة الدنيا — جنة .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خلا بنسائه ألين الناس ، وأكرم الناس ضحكا وبساماً ، وقال لأصحابه «ألا أخبركم بنسائكم فى الجنة؟ قلنا بلى : قال : كل ودود ولود : إذا غضبت أو أسىء إليها ، أو غضب زوجها - قالت : هذه يدى فى يدك : لا أكتحل بغمض حتى ترضى» .

فيأيها المسلمون :

اتقوا الله ، وليحسن كل من الزجين المعاشرة وليحقق حسن المعاشرة فى يسر — وليختر الزوج زوجته متدينة . وهذا لا يمنع أن تكون مع ذلك جميلة لزيادة عفته . وليختر الزوج لزوجته على أساس قوله صلى الله عليه وسلم : «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا — تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» ، رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

---

(١) رواه النسائى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والبخارى ، والترمذى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الحث على رضا الزوجين عن بعضهما

وحسن معاشرتهما لبعضهما

الحمد لله رب الإحسان ، الذى يحب كل محسن ، وأشهد أن لا إله إلا الله العزيز المؤمن ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير هاد إلى الفعل الحسن .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، ذوى الخلق الحسن .

أما بعد : فيا قوم :

ليس كالمسلم المستمسك بإسلامه — أحد — يستراح فى معاشرته ، ويطمأن لمعاملته : لأنه يراقب الله : فى تصرفه ، فيكون منه الإحسان لا الإساءة ، والمعروف لا المتلوف ، ولا أحوج لذلك من الزوجين المصورة علاقتهما أدق تصوير : فى قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) .

واسمعوا وعوا وانتفعوا : دخل الأصمعى العالم الراوية المشهود — البادية — فرأى امرأة من أحسن الناس وجهاً ، متزوجة رجلا من أقبح الناس وجهاً وهما ... ، متفقان ، فقال لها :

يا هذه : أترضين لنفسك أن تكونى زوجة مثله ؟ فقالت له قول المراقبة لربها ، الراجية لثوابه ، والسلامة من عقابه : يا هذا العبد أسأت

فى قولك : إن الله جمع بينى وبين زوجى لحكمة ، فلعله أحسن فيما بينى وبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أو لعلى أسأت فيما بينى وبين خالقى فجعله عقوبتى . أفلا أرضى بما رضى الله لى ، فسكت الأصمعى ، وقد شاهد أن التدين يثمر خيراً ، ويقى شراً .

ولما قدم معاذ بن جبل من الشام — سجد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما هذا ؟ قال : يا رسـول الله : قدمت الشام : وهم نصارى ، فوجدتهم يسجدون لرؤسائهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك . وأنت أفضل منهم ، ولا شك . قال : فلا تفعل . فإنى لو أمرت شيئاً أن يسجد لشىء أى غير الله ، الذى له وحده السجود — لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها . والذى نفسى بيده « لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها » . وقال : صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بنسائكم فى الجنة ؟ قلنا بلى . قال : كل ودود ولود إذا غضبت أو أسىء إليها أو غضب زوجها — قالت : هذه يدى فى يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى » ، وكان صلى الله عليه وسلم : إذا خلا بنسائه — ألين الناس وأكرم الناس . ضحاكاً بساماً .

فليكن المسلم كرسوله ، ولا يترك زوجته تخالف الدين وتتبع هواها ، ولا يتنازل عن حق القوامة عليها : كمن يسلم أمره للمرأة : تفعل ما تشاء ، وتقابل من تشاء ، وتنفق ما تشاء ، فيكون عبداً لها ، وقد رضى لنفسه النقص وقد جعله الله كاملا مكرماً قواماً على زوجته : له القيادة عليها لا لها عليه : قال تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) .

فلا يترك الزوج زوجته تاركة الصلاة ولا مؤذية لجيرانها ، ولا مخالطة للرجال الأجانب .

أيها المسلم :

اتق الله ، واعمل بما سمعت ، واسمع قول نبيك صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » : رواه النسائي وابن حبان عن أنس رضي الله عنه .

خطبة : بمناسبة عيد الأسرة

الحمد لله ، الحكيم ، الذى شرع الأحكام لمصالح وحكم ، العزيز القادر على الانتقام ممن خالف الأحكام (والله بكل شيء عليم) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : بين أن للنساء حقاً على الرجال مثل الحق الذى عليهن لهم ، وأن للرجال درجة الرياسة عليهن : وفى ذلك صلاح الأسرة ، وبناء المجتمع السليم : قال تعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم) .

وأشهد أن سيدنا محمد : رسول الله : دعا إلى خير نظام : تحيا به الأسرة خير حياة : فى ظلال الحلم والإحسان ، والشرف والأمانة والعفاف .

اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذين تكونت بهم الأسر الصالحة ، والمجتمعات السعيدة الناجحة .

أما بعد :

كان لأحد أسلافنا : نوح بن مريم العالم القاضى المسلم الكبير : ابنة جميلة : خطبها ابن والى المسلمين ، فأبى ، وخطب لها خادمه المبارك ، فقال له : كيف أكون زوجاً لابنتك ، وهى سيدتى ؟ فقال له : أمانتك التى تجلت فى طاعة ربك ، وحراسة حديقتى — جعلتك كفئاً لابنتى ، وزوجاً لها : لك درجة عليها .

وقد أنجب المبارك منها ـ أحد صالحى الأمة ، وكبار علمائها : عبد الله ابن المبارك ، الذى كان يحج سنة ، ويغزو سنة .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب : رضى الله عنه ـ يعس : بالليل ، فسمع امرأة : تقول لابنتها : قومى يابنية إلى اللبن ، فامزجيه بالماء : استعداداً لبيعه : فى الصباح ، فقالت لها الفتاة : إن أمير المؤمنين ـ أرسل منادياً نادى ألا نغش اللبن ، فقالت لها : إن أمير المؤمنين ـ الآن ـ نائم ، فلا يبصرنا ، فلا تخافى ، فقالت لها الفتاة : إن كان أمير المؤمنين بعيداً عنا ـ فرب أمير المؤمنين ليس عنا ببعيد ، ولئن نجونا من عذاب الدنيا ـ فكيف ننجو من عذاب الآخرة (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

فأعجب أمير المؤمنين عمر : بصلاح الفتاة ، واختارها زوجة لابنه : عاصم ، فولدت له أم عمر بن عبد العزيز الذى قال فيه الإمام الشافعى : إنه خامس الخلفاء الراشدين .

ويا قوم :

إن هذا الخادم ، الذى رفعته تقوى الله فكان زوجاً لابنة سيده ، وتلك الفتاة ابنة بائعة اللبن ، التى رفعتها التقوى ، فكانت زوجة لابن أمير المؤمنين ـ نموذجان حسنان ، للزوجين الصالحين ، اللذين تقوم بهما الأسرة الصالحة .

والأسرة أساس المجتمع ، فإن صلحت ـ قوى وسعد ، وإن فسدت ـ أسرع إليه الفساد ، وآل أمره إلى ذل وهوان وزوال .

لذلك ـ حث الإسلام الرجل على أن يختار زوجته كابنة بائعة اللبن : ذات دين : لتراقب ربها : فى جمالها وحسبها ومالها ومال زوجها ، وكتمان سره ، ولتصون عرضها ، وتربى أولادها : ليكونوا عناصر طاهرة ، ولتجعل بيت الزوجية المنزل الصالح ، ومنبع الفضائل ، ومدرسة السعادة

والهناء، وخير مكان للراحة: من عناء الأشغال، ومتاعب الحياة، وقد قال: ﷺ «(١) تنكح المرأة أى تزوج لمالها، وحسبها وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك(٢)»، وقال ﷺ: «(٣) ما استفاد المؤمن بعد تقوى عز وجل: خيراً له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها — سرته، وإن أقسم عليها — أبرته، وإن غاب عنها — نصحته فى نفسها وماله».

وكذلك — حث الإسلام أولياء أمور النساء — أن يختاروا لهن الرجل الصالح: كالمبارك، الذى اختاره نوح القاضى لابنته: فإن الزوج الصالح، كريم الخلق، شريف الخصال — يقوم البيت: برعايته — على دعائم المكارم والكمال. ولذلك — قال ﷺ: «(٤) إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه — فزوجوه إلا تفعلوا — تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض»: أى إلا تزوجوا من خطب بناتكم أو أخواتكم أو من لكم عليهن ولاية من النساء — وهو ذو خلق ودين — تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير؛ فإن رفض تزويج المتدين، كريم الأخلاق — رفض فى الحقيقة لاحترام الدين وتقديره، واستهانة بمكارم الأخلاق، التى عظمها العزيز الخلاق، الذى أثنى على نبيه: بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم) ألا وإن فى رفض تزويج المتدين، عظيم الخلق — إبعاداً للنساء عن الدين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة (ض).

(٢) قال فى المصباح: قولهم تربت يداك: كلمة جاءت فى كلام العرب على صورة الدعاء ولا يراد بها الدعاء بل يراد بها الحث والتحريض.

(٣) رواه ابن ماجه عن أبى أمامة (ض).

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة (ض).

بتعريضهن للتزوج بغير المتدين : كالمقامر ، والحشاش ، أو بوارهن لعدم تيسر المتدين ، كريم الخلق ، الغنى الثرى : غالباً ، وكم فى البوار : من أضرار من كبت جنسى : إلى هم يحرق الدم ، وحسرات تحمل الضياء ظلاماً ، والراحة تعباً ، والصفاء كدراً فاذا يصنع ولى المرأة : إذا وجد ابنته ، أو أخته — وهى منطوية على نفسها . أو تقوم : بعمل فى بيته — ودموعها على خديها جارية : أيقول : لماذا هذا الذى أراه ، والعيش مكفول ، والكساء متوفر : إن هذا القول لا من قصر النظر ، فلا بد للشهوة من إطفاء ، ولا بد للرغبة الجنسية من حليل ، ولذلك — قالت امرأة عوف ابن محلم الشيبانى لابنتها عند زفافها : لو أن امرأة استغنت عن الزوج : لغنى أبويها . وشدة حاجتهما إليهما - لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

وقد وعد الغنى الكريم جل شأنه : بالتفضل بالغنى على ذلك البيت ، الذى أنشىء على التقوى ، وأسس على الدين ، والخلق القويم : قال : تبارك وتعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) .

ويدوم صلاح البيت بالتزام الزوجين آداب الإسلام : من حسن المعاملة والمعاشرة لبعضهما ، ورعاية أولادهما ، وتربيتهم تربية فاضلة ، حتى يكونوا الأبناء الفضلاء : كابن المبارك ، وعمر بن عبد العزيز ، والبنات الفضليات : كجدة عمر بن عبد العزيز ، التى امتنعت أن تغش اللبن خوفاً من الله :

وأخلاق الوليد تقاس حسناً ... بأخلاق النساء الوالدات
فكيف تظن بالأبناء خيراً ... إذا نشئوا بحضن الجاهلات

ويدوم صلاح البيت : بإنفاق الزوج على أهله : بقدر طاقته ، وبتقدير الزوجة لرياسة زوجها : بإطاعة أمره ، وعدم الخروج من البيت إلا بإذنه وعدم السماح بدخول من يكره فيه ، وعدم إعطاء شيء منـــه إلا بعد استئذانه ، وإلا كان له الأجر ، وعليها الوزر .

وأمر الله ببر الوالدين والإحسان إليهما ، وبصلة الأقربين : قال تعالى : (وبالوالدين إحساناً وبذى القربى) .

وبامتثال أمر الله — تتصف الأسرة أصولا وفروعاً بالصلاح .

وهكذا بالتعاليم السامية : لتكوين الأسرة الصالحة ، ودوام صلاحها — وضع الإسلام خير نظام : باتباعه — يعمر المجتمع : بالعلماء المخلصين والقادة المصلحين ، والجنود والشجعان الذين يجودون بالأرواح فى سبيل الله ، وبالعاملين والعاملات : بصدق وإحسان : لخير الأمة والوطن .

ومن هنا — كان موضوع الأسرة فى عصرنا موضع اهتمام عظيم : فى الشرق . والغرب : بلغ من أمره — أن اتخذ لها عيد فى العام : يجب أن يكون الاحتفال به تجديداً لعهد الاهتمام على الدوام : بصلاح الأسرة ، وارتباطها ببعضها فى إطار تعاليم الإسلام ، وهذا هو أول السلم لرفعة المجتمع بصلاحه (وإن الله لمع المحسنين) .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، واتبعوا تعاليم دينكم ، وقوموا برعاية أهلكم ، وحقهم عليكم ، وليعمل كل منكم على صلاح أسرته : بتأديبها بآداب الإسلام ، — تسعدوا ، ويعظم الله أجركم ، ويعز مجتمعكم (وقل اعملوا فسيرى الله

عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر (ض) .

من آداب الإسلام

الاستئذان قبل دخول البيت

الحمد لله : جعل تعاليم الإسلام وسيلة الحياة الطيبة ، وهو العليم الحكيم .

وأشهد أن لا إله إلا الله . الرحيم الرحمن ؛ هدى بالإسلام إلى ما به العز والأمان .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أفضل إنسان هدى إلى طاعة الديان ، وإلى صراط مستقيم ، ودين قويم : من تعاليمه — الاستئذان ، وقد قال ﷺ : «(١) من دل على خير فله مثل أجر فاعله» .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله . وصحبه ، الذين تأدبوا بآدابه ، واقتدوا به ، ففازوا فوزاً مبيناً .

أما بعد : فيا عباد الله :

رسولنا الرحمة المهداة ، وهادى الأمة إلى خيرها ونفعها بهدى الله : استأذن للدخول على سعد بن عبادة فى بيته ، فقال : السلام عليكم فرد عليه سعد بصوت منخفض لم يسمعه النبى ، وهكذا سلم عليه الرسول ثلاثاً وهو يرد كذلك بصوت منخفض حتى رجع الرسول ولم يدخل : لعدم

---

(١) رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى عن ابن مسعود (ض) .

سماعه الأذن ، فلحق به سعد ، وقال : يا رسول الله ، كنت أسمعك ، وأرد عليك بصوت منخفض : ليكثر علينا السلام ، فتكثر البركة ، فتفضل رسول الله بدخول بيته بعد إذنه .

وهكذا سن النبي ﷺ : الاستئذان قبل دخول المنازل ، وقد قال : « فمن رغب عن سنتي فليس مني »(١) .

عباد الله :

من رحمة الله بعباده — هذا الدين الحنيف ، الذى بلغه رسولنا الأمين : لم يدع فضيلة من الفضائل إلا حث عليها ، ولا رذيلة من الرذائل إلا نهى عنها ، وحذر من الوقوع فيها ، وقد بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور دنيانا ، وما يسعدنا فى أخرانا : (ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً) .

ومما جاء به — هذا الدين — أن أرشد العباد إلى ما يزكيهم ، ويديم مودتهم ، ويطهر قلوبهم ، فعلمهم آداب الزيارة ، وما يجب على المؤمنين فى تزاورهم : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) .

بهذه الآيات البينات — جعل سبحانه للبيوت حرمة يجب مراعاتها ، وللمؤمنين كرامة يجب حفظها ، وللزيارة آداباً وحدوداً يجب التزامها ،

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن أنس (ض) .

وقد قال ابن مسعود . رضى الله عنه : « إذا سمعت يأيها الذين آمنوا فأصغ لها سمعك فإنها خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه » .

فنى هذا النداء الكريم - خير أمرنا به : فإن فى الحث على الاستئذان ستر العورات ، وعدم كشف الأسرار .

وبذلك الأدب - تجمل العربى وتكمل ، وتنزه عما كان يقع من أهل الجاهلية ، قبل ظهور الإسلام : إذ كان الرجل منهم يدخل بيتاً غير بيته فجأة ، فربما أصاب رجلها معه امرأته فى لحاف لجاه .

عباد الله :

إن الإنسان - مهما علا قدره ، وقوى سلطانه فى عمله وبين قومه - فهو على خلاف ذلك : فى بيته . وبين أولاده . وزوجته . وأهله : حيث لا كلفة ، ولا قيود بينهم ، وللوظيفة مظهرها وواجباتها ، ولكل حرفة شئونها وآدابها ، وللبيوت نظامها وحرياتها وحرماتها ، وقد جعلها الله راحة وسكناً : فيها أسرارنا ، ونساؤنا . وبناتنا ، وفيها تقضى أعمالنا الخاصة ، وفيها - الأكل والنوم ، وهما عورتان يجب سترهما : لهذا كله ، ونحوه - نهانا سبحانه أن ندخل بيوت غيرنا حتى نستأنس أى نستأذن ، وقد علمنا الرسول - كيفية الاستئذان فقد دخل عليه رجل(١) ولم يسلم ، فقال له النبى : ارجع . فقل : السلام عليكم . أأدخل : فرجع الرجل : ونصب عينيه قوله تعالى : (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) ، فقال : السلام عليكم أأدخل : فأذن له النبى ﷺ : فدخل .

---

(١) هو كلدة : بكسر الكاف وسكون اللام بن الحنبل : بفتح المهملة والموحدة وسكون النون : روى الحديث أبو داود والترمذى .

ولا فرق بين أن يقال للمستأذن : ارجع ، وبين عدم الرد عليه : بعد الاستئذان ثلاثاً ، فإنه يرجع فى الحالين : كما فعل رسول الله ، وكما فعل ذلك الرجل .

وعلى المستأذن أن يغض بصره فى حال الاستئذان : فقد قال ﷺ : «(١) إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» ، وبين : عليه الصلاة والسلام أعظم ذنب لما حرم الله النظر إليه فقال : «(٢) لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذنك ، فخذفته بحصاة ، ففقأت عينه ـ لم يكن عليك جناح» : أى حرج ولا ذنب عند الله ، الذى يعلم السر وأخفى .

وقد أمر الله الأطفال عند البلوغ بالاستئذان فقال : (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) .

ولم يدخل النبى ﷺ ليلة أسرى به سماء من السموات السبع إلا بعد أن استأذن له جبريل فى كل سماء ، مع أنه مدعو من مالك الأرض والسماء : فاعتبروا يا أولى الأبصار .

عباد الله :

إن كثيراً مما نشاهده ونسمعه ونقرؤه كل يوم من تلك الحوادث المؤلمة : كحوادث القتل ، وتخريب البيوت ، وترميل النساء ، وتيتيم الأولاد ـ إنما هو نتيجة التفريط فى تعاليم الدين .

---

(١) رواه البخارى ومسلم : عن سهل بن سعد رضى الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والبخارى ، ومسلم : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

ومن أهل دينه - فقد إنسانيته وشعوره ، ولا يقبل فقدهما بحال ولا يرضى شهم من الرجال ، بصير بعواقب الأمور — أن تدخل بيته بغير استئذان .

وقد سمح بعض أشباه الرجال للأجانب وغير المحارم - أن يدخلوا بيوتهم بغير استئذان ، ويجالسوا نساءهم فى غيبتهم : اعتماداً على الثقة الكاذبة ، والصداقة المزعومة ، فوقعت الواقعة ، وتبين أن الثقة فى غير محلها ، وانكشفت تلك الصداقة عن غش ونذالة وخيانة ، وصرخ بالندم وهل يجدى الندم .

فاعتبر يا مسلم ، وانظر إلى مزايا الاستئذان ، والفوائد العظيمة التى من أجلها شرعه الديان ، حتى تتبين خطأ من يسمح لزوجته بمعاملة الخدم والباعة وهى ظاهرة لهم شبه عارية ، وهم رجال يشتهون ، وكم لذلك : من جريمة نكراء ، وفضيحة شنعاء . لم يستطع سترها ، ولا التخلص منها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأمكنة العمل الخاصة : كمكاتب الموظفين ونحوها - مثل البيوت لابد من الاستئذان على من بها ، ولو كانت مفتحة الأبواب ، فقد يكون من بداخلها على وضع لا يحب أن يطلع عليه أحد ، أو بحالة نفسية لا تسمح بلقاء أحد ، أو نحو ذلك .

ومن تمام الاستئذان أن يذكر المستأذن اسمه عند طلبه ولذلك كان جبريل : عليه السلام - عند استفتاحه لكل سماء من السبع - يذكر اسمه ، واسم رسول الله صلى الله عليه وسلم - محمداً - إذ قيل : ومن معك ؟ ومن جابر رضى الله عنه - قال : أتيت النبى ﷺ ، فدققت البـــاب ، فقال :

من ذا ؟ فقلت : أنا . فقال(١) : أنا . أنا : كأنه كرهها كره كلمة أنا ، دون ذكر اسمه .

ومن هنا - لما طرق باب الشعبي : أحد علماء السلف - طارق ، فقال : من ؟ فقال له : أنا - قال : يا هذا : ليس لي صاحب اسمه : أنا - أي اذكر اسمك الذي به تعرف .

ومن الوسائل قبل الاستئذان استعمال الأجراس ، وطرق الأبواب برفق ، فقد ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم - أنهم كانوا يطرقون الأبواب بأطراف أصابعهم : حيا الله أدبهم . ونفعنا بهم .

وروى أن غلام أسماء بنت مرثد - دخل عليها في وقت كرهته ، وأن رسول لله صلى الله عليه وسلم - أرسل الغلام : مدلج بن عمرو الأنصاري وقت الظهيرة : ليدعو عمر بن الخطاب ، فدخل عليه وهو نائم ، وقد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر : رضى الله عنه : لو ددت أن الله عز وجل نهى آباءنا . وأبناءنا . وخدمنا - ألا يدخلوا علينا إلا بإذن هذه الساعات : أي التي يختل فيها التستر ، وتكون العورة عرضة للانكشاف ، ثم انطلق عمر رضى الله عنه ، مع الغلام - إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فوجده ، وقد أنزلت هذه الآية الكريمة من أجل ما كره وكرهت بنت مرثد : (يأيها الذين(٢) آمنوا ليستأذنكم الذين(٣) ملكت أيمانكم والذين(٤)

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الخطاب للرجال والنساء غلب فيه الرجال .

(٣) ومثلهم الخدم .

(٤) الصبيان الذي لم يبلغوا : من الأحرار : عبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله .

لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث(١) مرات من قبل(٢) صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم(٣) من الظهيرة ومن بعد(٤) صلاة العشاء ثلاث(٥) عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن(٦) طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم).

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، واستمسكوا بالهدى الذى سمعتموه ، ولا تتبعوا الهوى ، واحذروا التقاليد الغربية ، التى دفعت المرأة إلى مخالطة الرجل باسم الحرية ، وابذلوا جهدكم فى محاربة الشيطان فى هذا الميدان فإنه حريص كل الحرص على تعدى حدود الله : فى الاستئذان : لما فى ذلك من هتك الحرمات ، وإحراق الدم : بكشف ما يحرص على ستره - وفى ذلك فرح الشيطان . وغاية رضاه .

وإذا كان ابن عباس : رضى الله عنهما - وهو فى العهد الذى كان فيه الإسلام غضاً طرياً : عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى : رضى الله عنهم : لظهور بعض المخالفين للدين - قال : « الأدب كله قد جحده الناس » : « أى ومنه

---

(١) فى اليوم والليلة .

(٢) لأنه وقت القيام من المضاجع . وطرح ثياب النوم . ولبس ثياب اليقظة .

(٣) أى ثياب اليقظة : للقيلولة .

(٤) لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف .

(٥) هى ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم .

(٦) بعد هذه الأوقات ، فى ترك الاستئذان .

الاستئذان ، - فكيف لو شاهد زماننا هذا : ألا فلننتبه جميعاً للتعاون على نشر الوعى الدينى ، واتباع سنة النبى ، التى يحسب الناس إهمالها هينا - وهو عند الله عظيم - .

وقالت زينب امرأة عبد الله بن مسعود : رضى الله عنهما : كان عبد الله إذا جاء من حاجة ، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق : كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه فلا تفاجئوا زوجاتكم بالدخول عليهن حتى لا تروهن على حال لا تحبونها .

وتمسكوا . يا قوم - بتعاليم دينكم - فما شرعت إلا لإسعادكم ، والله تعالى يقول : (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) .

قال أبو أيوب : قلت : يارسول الله . هذا السلام . فما الاستئناس(١) ؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحة . أو تكبيرة . أو تحميدة . ويتنحنح فيؤذن(٢) أهل البيت ، رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) الاستئناس هو الاستعلام : من آنس الشىء إذا أبصره ، والاستئناس أيضاً خلاف الاستيحاش ، ولذلك أطلق على الاستئذان فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو يؤذن له ، وهو أيضا مستوحش خائف ألا يؤذن له ، فإذا أذن له - استأنس ، والاستئناس أيضاً : تعرف هل ثم إنسان من الإنس فإذا تعرف المرء أن ثم إنسان - استأنس .

(٢) فيعلمهم .

خطبة أخرى فى الاستئذان

الحمد لله : شرعه نور ، وهداه هناءة وسرور ، وللقرآن أساس دينه القيم - وجه ، فقال : (يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : سبيل الحكمة . والسعادة . والعزة . والسلام - تعاليم دينه الإسلام ، الذى لا يقبل ديناً سواه ، وقد قال : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير هاد إلى ما فيه السلامة والفلاح ، ومن ذلك توجيهه ليغض المرء بصره : فى حال الاستئذان : لدخول محل غيره الخاص به : قالﷺ : «(١) من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن يفقئوا عينه » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله . وصحبه المهديين الهداة المهذبين التقاة .

أما بعد : فيا عباد الله :

خصص الحكيم العليم تبارك وتعالى الناس بالمنازل ، وسترهم فيها عن الأبصار ، وملكهم الاستمتاع بها على الانفراد ، قال : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) ، وحجر على الناس أن يطلعوا من الخارج على ما فى

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة (ض) .

داخلها ، أو يدخلوها بغير إذن أصحابها : لئلا يهتكوا أستارهم ، ويعرفوا خفى أحوالهم وأخبارهم : من أكل ونوم ونحو ذلك ، ولئلا يطلعوا على عوراتهم ، ونسائهم : أمراضهم المصونة ، أو على حاجات بها يخشون النظر إليها .

اسمعوا وعوا :

اطلع رجل من ثقب فى باب النبى ﷺ ، ومع رسول الله ﷺ مدرى : مشط يرجل به رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : «(١) لو علمت أنك تنظر لطعنت به فى عينيك : «(١) إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » .

ولأن الحاجة تضطر الناس لدخول بيوت بعضهم - وضع الله تعالى نظاماً لدخولها : يصون كرامتها ، ويحفظ لها حرمتها ، ويكفل لأصحابها حقهم وحريتهم فيها ، ويقى إساءة النظر لها بها : قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح - أى إثم - أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم - أى منفعة لكم : كدكاكين البيع والشراء - والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) .

«(٢) وكان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد (ض) :

(٢) رواه أبو داود عن عبد الله بن بسر (ض) .

تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم السلام عليكم : وذلك أن الدور لم تكن عليها يومئذ ستور » .

والمنهاج الذي يسار عليه اليوم تنفيذاً لهذا القول الكريم ، والهدى المحمدي العظيم : هو مع الوقوف بحال لا تمكن من رؤية ما بداخل البيت .

أن يعمل على معرفة : أفي البيت من يستأذن عليه أم لا ، وذلك باستعمال الجرس بلين ، أو بالنطق من غير صياح بتسبيحة . أو بتكبيرة . أو بتحميدة . أو بتنحنح ، أو بطرق للباب برفق ، وقد كان الصحابة : رضوان الله عليهم - يطرقون الأبواب بأطراف أصابعهم فإذا قيل من ؟ فلا يكتف المستأذن بقوله : أنا ، وليذكر اسمه الذي يعرف به ، واسم من معه : إن كان معه أحد : كما فعل جبريل : عليه السلام : ذكر اسمه . واسم محمد ، حين استفتح السموات السبع . ومعه الرسول ﷺ ، فقيل له : من - ومن معك ؟ : ليلة الإسراء والمعراج ، ثم يكتفي المستأذن بالسلام : إذا وجد المستأذن عليه ، وأذن له بمثل قوله : تفضل ، وقد قال ﷺ : «(١) إذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن » ، ويقول المستأذن إذا وجد المستأذن عليه ، ولم يجد منه إذناً : السلام عليكم أأدخل ؟ ويكرر ذلك القول ثلاثاً : إذا لم يجد رداً في المرتين : الأولى التي هي استعلام والثانية التي هي تأكيد ، فالثالثة إعذار في رجوعه : قال ﷺ : «(٢) إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له - فليرجع » فيتحقق عدم الإذن : بقول : ارجع ، أو بعدم الرد .

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة (ض) .
(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري (ض) .

وهكذا الاستئذان مطلوب منك بأمر الله فى دخول بيت ليس لك ، فأما بيتك الذى تسكنه ، فإن كانت فيه معك أمك أو أختك . أو نحوهما : من ذوات المحارم — طلب منك الاستئذان كذلك .

روى(١) أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أستأذن على أمى ؟ قال : نعم ، فقال الرجل : إنى معها فى البيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استأذن عليها ، فقال الرجل : إنى خادمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استأذن عليها . أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فاستأذن عليها » .

فإذا كان هكذا حرص الدين على استئذان الإبن على الأم ، وهى أعظم المحارم حرمة ، وأقرب الخلق بابنها صلة : فى بطنها حملته ، ومن ثدييها أرضعته ، وبين ذراعيها . وفى حضنها وبنور عينيها ربته — فكيف يكون حرص الدين على استئذان الأجنبى على الأجنبية ، وهو يطمع فيها ؟ لا شك أنه أعظم ، ولا ريب أن إثم التساهل فى الاستئذان على الأجنبية أفظع وأطم . ليتصور ذلك منتهياً من يدخل بدون استئذان على امرأة صديقه ، أو أخيه ، أو جاره ، وليتصور ذلك من يسمح بالدخول بلا استئذان على نسائه : ممن يثق بهم ، وهم غير معصومين ، ويشتهون .

ولمثل التساهل فى الاستئذان : من بعض المخالفين : فى عصر الإسلام الذهبى : عصر أبى بكر وعمر وعثمان وعلى — قال ابن عباس رضى الله عنهما : « الأدب كله قد جحده الناس : أى ومنه الاستئذان » ، فكيف لو رأى رضى الله عنه زمننا الذى كثرت فيه جنايات المعاصى والجانون (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

---

(١) رواه مالك فى الموطأ عن عطاء بن يسار مرسلا : أى سقط من سنده الصحابى .

وإذا لم يكن يا عبد الله الاستئذان على الزوجة حتماً : لعدم الحشمة بينكما ـ فإن إشعارها بحضورك ، وعدم مفاجأتها بدخولك عليها ـ وقاية لك من رؤيتها على حال لا تحبها : قالت امرأة ابن مسعود : « كان عبد الله ـ إذا جاء من حاجة ، فانتهى إلى الباب ـ تنحنح وبزق : كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه » ، وقال قتادة(١) من التابعين : « إذا دخلت بيتك ـ فسلم على أهلك ، فهم أحق من سلمت عليه » ، فالتسليم : طلب سلامة من عند الله ، ومن أحق بذلك من شريكة الحياة .

أيها المسلمون :

اتقوا الله واستمسكوا بالهدى الذى سمعتموه ، ولا تتبعوا الهوى ، واحذروا التقاليد الغربية ، التى أماتت غيرة الرجل حتى يرى الاستئذان من معارفه فى الدخول على أهله تأخراً ، ودفعت المرأة إلى مخالطة الرجل باسم الحرية . وأزالت حياءها حتى تقول لصديق زوجها فى غيبته لست بغريب ، وبذلك تعين شيطانه عليه ، وتجرئه على مخالفة العزيز الرقيب ، الذى لا يعذب عذابه أحد ، ولا يقوى على عذابه أحد .

فانتباهاً انتباهاً يأيها المسلمون(٢) : احرصوا جميعاً على الاستئذان عند دخول مساكن غيركم : لزيارة من بها تحل زيارتكم له ، ولا تدخلوها إذا لم تجدوا بها من يأذن لكم ، ولو كانت مفتحة الأبواب ، واحذروا النظر إلى داخلها ، فقد علمتم أن الاستئذان من أجل النظر (ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

---

(١) تتمة قوله رضى الله عنه « وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد ـ فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته : حدثنا أن الملائكة ترد عليه » .

(٢) المراد الرجال والنساء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله » رواه البخارى ومسلم : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقالت أم إياس : كنت فى أربع نسوة : نستأذن على عائشة : رضى الله عنها ، فقلن : ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن : لصاحبتكن تستأذن ، فقالت : السلام عليكم أندخل؟ قالت ادخلوا ثم قالت : مبينة الاستئناس: (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) : رواه ابن أبى حاتم .

شرع الطلاق فى الإسلام

من يسره ، وفضله

الحمد لله الحكيم فى شرعه ، القائل : (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : شرع الطلاق . تيسيراً لا تعسيراً ، وإحساناً لا إساءة ، فليتدبر المسلم ذلك ، وليكن فى تصرفه خيراً ، ولا يكن شريراً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . نفر من الطلاق : ليستعمله المسلم مضطراً .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، المهديين ، الهداة .

أما بعد : فيأيها المسلمون :

برشاد العباد ، وهداهم - تطيب الحيـــاة ، ويعم الأمن المجتمع ، ويظله الخير والهناء ، فيكون - حينئذ - المجتمع السعيد .

لذلك - شرع : سبحانه : بحكمته : من تعاليم دينه ، وأحكامه - ما فيه رشاد العباد وهداهم ، وإعزازهم ، وإسعادهم ، وقال : (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وفى بيان - تخر له الحياة خشوعاً ، وله تشكر القلوب شكراً ، وتحمد النفوس حمداً - أجمل : تبارك وتعالى - بعد تجربة الفراق - نظام الحياة الزوجية ، وإنهاءها : بآخر طلاق : فى قوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) .

ومن أصحاب رسول الله ﷺ : عبادة بن الصامت : رضى الله عنه : قال : طلق بعض آبائى امرأته ألفاً ، فانطلق بنوه إلى رسول الله ﷺ : فقالوا : يا رسول الله : إن أبانا طلق أمنا ألفاً ، فهل له من مخرج ؟ قال : « إن أباكم لم يتق الله تعالى ، فيجعل له من أمره مخرجاً : بانت منه بثلاث على غير السنة ، وتسعمائة وسبع وتسعون إثم فى عنقه(١) » .

أفتى رسول الله ﷺ : بوقوع الطلاق الثلاث على ذلك الأب : لعبادة ابن الصامت ، فما كانت زوجته تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، وبأن البقية من عدد الألف الذى نطق به مطلقاً - فليعتبر ذنباً عليه عقابه .

فليعتبر العاقل بذلك : ليسلم من عقاب الطلاق وعقباه : فى دنياه وأخراه .

ألا إن الله : سبحانه وتعالى - أعطى الزوج حق الطلاق ، لا على الإطلاق ، بل مقيداً بقيود : وفق حكمته تعالى ، وهو الحكيم الحميد .

فانتباهاً لها انتباهاً : للنجاة من سخط الله ، ذى البطش الشديد .

فلا يطلق الزوج زوجته : عند عدم الوفاق إلا طلقة واحدة رجعية ، أى يكون للزوج حق مراجعة الزوجة : فى أثناء العدة ، والعدة ثلاث حيضات ، أو ثلاثة أطهار : لمن تحيض ، أو ثلاثة أشهر : لمن لا تحيض .

وحين يطلق الزوج زوجته لذلك : إما أن يرجعها فى العدة إلى عصمته وإما أن يتركها ، حتى تنقضى العدة ، فلا يعيدها إلا بعقد جديد ، وإما أن يتركها بلا عودة : لشدة النفرة ، فبقاء الزوجية - مع شدة النفرة جحيم .

(١) رواه الطبرانى .

وفى ذلك — القيد بالتطليقة الواحدة — قال تعالى : (الطلاق مرتان) : مرة بعد مرة ، على ضوء التجربة ـ يرسم الزوجان لنفسيهما منهاج معاملتهما : للسلامة من الفراق ، وإلا وقع الفراق حتماً : لحتمية عدم الوفاق .

ولا يطلق الزوج إلا عند الإقبال على الزوجة ، حيث يظهر سبب الطلاق العارض ، الباعث على النفرة ، والخلاف بينهما ، فكثيراً مايذهب هذا السبب أمام إقبال الزوج على زوجته وحبه لها : كما قال الشاعر :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

ولذلك ـ منع الدين الحريص على الوفاق وعدم الشقاق طلاق الحائض : لأنها تكون وقت الحيض ، فى حالة عصبية ، ولا يكون ـ حينئذ ـ إقبال عليها ، فيقوى بذلك سبب الطلاق : لاشتداد النفرة منها ، واتفق أهل المذاهب الأربعة على أن زوجها يراجعها : ما دامت فى العدة حتى تطهر : عن ابن عمر : رضى الله عنهما — أنه طلق امرأته تطليقة ـ وهى حائض ـ ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين أخريين عند القرأين ، فبلغ ذلك رسول الله : ﷺ ، فقال : يابن عمر ، ما هكذا أمرك(١) الله تعالى : إنك قد أخطأت السنة ، والسنة أن تتقبل الطهر ، فتطلق لكل قرء(٢) ، وقال : فأمرنى رسول الله ﷺ : فراجعتها ، ثم قال : إذا هى طهرت ـ فطلق عند ذلك ، أو

---

(١) يعنى قوله تعالى : (يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) : فى وقت عدتهن أو مستقبلات لعدتهن .

(٢) يطلق على الحيض وعلى الطهر ولذلك فسر القرء بعض الفقهاء بالطهر والبعض بالحيض .

أمسك ، فقلت : يا رسول الله ، أرأيت لو طلقتها ثلاثاً أكان يحل لى أن أراجعها ؟ قال : لا : كانت تبين منك ، وتكون معصية(١) » .

ولا يطلق الزوج فى طهر قد دخل بها فيه ، فربما تكون قد حملت الزوجة حينئذ ، وربما كانت هذه التطليقة ـ الثالثة ، فيسوء الأثر ، ويشتد الندم : لما شوهد غالباً من رغبة الزوجين : عند تناسلهما : فى حسن معاملة بعضهما ، والاستمساك معاً : بالصبر ، والحلم والصبر والحلم خير عون على تحمل ما لا يهوى الزوج من زوجته : مما لا بد أن يكون لاختلاف الأهواء ، والميول .

وفى هدى الإسلام ، وإرشاده ـ أن يجاهد الزوجان نفسيهما : لحسن المعاشرة والمعاملة ، وأن يجتنبا كل ما به تسوءان ، ـ من مثل إهمال الزوجة ما يحبه الزوج : من طاعة الله : كعدم التبرج ، ومن مثل غيرة الزوج على زوجته من غير ريبة ، ومن غير ما يبعث على الشك ، وربما اتهمها بسوء ظن وهى بريئة ، فتلك غيرة يبغضها الله : لأنها تشين من غير دليل ، وتخرب البيت بعد عمران .

وفى ذلك كله ـ التحصن من الطلاق ، الذى هو أبغض الحلال إلى الله .

فاجتناباً لما يبغضه الله تعالى ـ على المسلم ألا يجرى الطلاق على لسانه أبداً ، إلا إذا لم يوجد للإصلاح بين الزوجين سواه ، فتحتم الفراق : كـكره الزوجة للزوج حتى لا تطيق معاشرته : اضطر الزوج للفراق :

---

(١) رواه الدارقطنى .

وكمثل عقم المرأة وعدم قدرته على الجمع بين الزوجين ، فتمين الطلاق -.

وكم من طلاق قيل بعدم وقوعه عند بعض العلماء — هو واقع عند بعضهم ، وربما كان قول هؤلاء الموقعين له بالنظر إلى الدليل ، وفي الواقع عند الله تعالى — هو الحق ، وكان الأخذ بعدم الوقوع باطلا ، غير حق ، وربما كانت الزوجة مع ذلك - لا تحل للزوج حتى ينكح زوجاً غيره - تكون العلاقة بينهما - مع عدم الأخذ بالقول بالوقوع حراماً ، ومن أنواع الفاحشة . ومن هنا - زالت البركة من البيوت ، واشتد - على الناس - غضب قيوم الأرض والسموات : بكثرة الأمراض وتفشى الأوبئة والداءات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «(١) لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها : إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن - مضت - فى أسلافهم ، الذين مضوا » .

وجملة القول أن الله تعالى شرع الطلاق : للراحة لا للعناء : تيسيراً على عباده ، فخليق بهم ألا يلفظوا به إلا عند الضرورة ، وتعينه لراحة الزوجين ، وألا يتخذوه مضغة فى أفواههم : كما هو مشاهد اليوم : فى الأسواق . والطرقات ، والبيوت والمركبات : حرصاً على سلامة بنيان الأسر من الهدم ، واستمرار رحمة الله وبركاته التى أزالها إغضابه : بكثرة الطلاق ، وأن ينتبهوا إلى أن الأسلم والأحوط - ترك الطلاق : فيما اختلف فى وقوعه ، وعدم وقوعه : من بعض ألفاظه ، وأن يذكروا أن الرجل كان يتزوج ويطلق ، ويعتق العبد أو الأمة ، ثم لا ينفذ ما كان منه -

---

(١) ابن عمر : (ض) رواه ابن ماجه ، والبزار ، والبيهقى .

من ذلك ، ويقول : كنت ألعب ، فنزل قوله تعالى : (ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم) .

واتقوا - عباد الله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح ، والطلاق ، والرجعة » رواه الترمذى عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الإرشاد إلى مداخل الشيطان

للسلامة منـــه

الحمد لله : من استعان به ـ أعانه ، ومن استعاذ به ، ولجأ إلى حماه ـ وقاه وكفاه ، وأوحى إلى داود عليه السلام ، فقال : (يا داود أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم بى عبد من عبيدى دون خلق : أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن مخرجاً) .

وأشهد أن لا إله إلا الله ذو القوة المتين ، الذى لا حول ولا قوة إلا به ، وقد قال : جل شأنه لإبليس : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى قوه تنفيذية ، وإن كنت توسوس إليهم .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : علمه : تبارك وتعالى : لتعليمنا . وسعادتنا وسلامتنا : قال : (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . أى من نخسات الشياطين ، وحثها(١) على العصيان والإغراء به ـ وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى من حضورهم : فى كل وقت ، وفى سائر أمور حياتى . وعند مماتى .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمـــد ، وعلى آله وصحبه الذى كانوا على الشياطين أشداء ، فوقوا الفتن والشهوات ، وفازوا فوزاً عظيماً .

---

(١) فهمز الشياطين هو ذلك الحث الرائض ، الدافع الدابة : لتسرع .

أما بعد : فيا عباد الله :

— من رحمة الله بعباده — أن ظهر إبليس لبعض العباد ، فرأى عليه معاليق(١) من كل شيء : فسأله عنها ، فقال : هذه الشهوات أصيب بهن ابن آدم ، فقال له : فيها من شيء لى ؟ قال : ربما شبعت ، فثقلتك عن الصلاة والذكر ، فقال : لله على ألا أملأ بطنى من طعام أبداً ، قال إبليس : ولله على ألا أنصح أحداً أبداً .

ويا قوم :

خلق الله تعالى ـ الجن ـ لعبادته : كما خلق الإنس : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) : إلا أن إبليس أبا الجن — لما استكبر أن يسجد لآدم ، فطرده بذلك من رحمة الله — حمله حقده : من أجل ذلك على إيذاء بنى آدم .

ومن ذلك الإيذاء — إغراؤهم : قال تعالى : فى تسجيل تصميم إبليس على ذلك الإغواء : (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) .

وهكذا صرف الله إبليس عن إتيان الناس بالوسوسة من جهة فوقهم ، وهى الجهة التى تنزل منها رحمة الله .

وفى ذلك — إرشاد للاتجاه إلى تلك الجهة العليا ، التى لا خير إلا منها (وفى السماء رزقكم وما توعدون) ويكون الاتجاه إلى تلك الجهة وقصدها

---

(١) أشياء يحملها كل شيء منها عنوان شهوة من الشهوات التى بها عصيان الله تعالى .

لبلوغ الأمانى : بطاعة الله ورسوله ، مخالفة الشيطان (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) ، (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) .

وقد انتبه إلى ذلك الحق أحد سلفنا الصالح ، قتادة : رضى الله عنه ، فقال : « أتاك الشيطان : يا بن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك : لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله » .

فالعاقل الرشيد ، الموفق السعيد من قدر الله حق قدره ، وراعى أن لا مكانة لسواه كمكانته العلية ، فجاهد نفسه وهواه ، واستمسك بتعاليم الدين ، وخالف الشيطان وعصاه ، ولم ينخدع بتهوين مخالفته لربه : بمثل قوله تمتع بشهواتك ، ثم تب إلى ربك ، (واستغفره إنه كان توابا) ، وبذلك لا يكون من الناس الذين أغواهم الشيطان وقال : أهلكت الناس بالذنوب . وأهلكونى بالاستغفار فلما رأيت منهم ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون : أى بالميول التى يرونها لا تغضب الله ، وهى - فى الواقع - مغضبة : ومنها - لبس الرجال للذهب ، وأكل الربا ، واستحلال القمار : فى صوره المتعددة : من يا نصيب ونحوه .

فهوى النفس ، وحبها الشهوات ، التى يزينها الشيطان - سبيل الهلاك ، والألم : فى الدنيا والآخرة ، ولذلك — قال تعالى : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

ومن الأهواء الشيطانية ، والشهوات المرضية للشيطان ، المغضبة للديان ، المهلكة المؤلمة — حرمان بعض الأولاد من الميراث كالبنات ،

وتفضيل بعض الأولاد على بعض فى العطايا والهبات ، ولذلك — قال رسول الله ﷺ لصاحبه بشير حين منح ولده النعمان بعض ماله ، والتمس منه : ﷺ أن يشهد له على ما أعطاه ، أله إخوة ، فقال بشير : نعم ، فقال ﷺ : أكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال : لا ، فقال ﷺ : لا تشهدنى على جور ، ثم قال : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم وقال له : إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم : كما لك عليهم من الحق أن يعدلوا فى برك ، أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ قال نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : فلا . إذاً ، فرجع(١) بشير فى عطيته .

ومن الأهواء الشيطانية — الاستئجار على ما حرمه الإسلام .

فالاستئجار على الرقص حرام ، وعلى النياحة على الميت حرام ، وعلى نقل الخمر من مكان إلى مكان حرام .

فذلك الاستئجار من التعاون على الإثم ، والله تعالى يقول : (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) .

ومن الأهواء الشيطانية — شرب الدخان ، فالدخان : وإن لم يكن مسكراً ، ولا للعقل مفسداً يحس شاربه ضعفاً فى صحته وفقداً لشهوة الطعام وقد حلل الأطباء عناصره ، وعرفوا فيها العنصر السام ، الذى يقضى - وإن كان ببطء - على سعادة الإنسان وهنائه .

فالدخان - لا شك ضارّ ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « (٢) لا ضرر ولا ضرار » .

---

(١) حديث بشير هذا فى البخارى .

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن عباس (رض) .

أيها المسلمون :

المؤمن العاقل ، الذى يرى آثار صنع الله ، المتجلية أمام عينيه - لا يلتفت أبداً : لتوجيه الشيطان وإغوائه ، مهما كان موافقاً لهواه ، ومحبوباً عند نفسه ، ولا تحجبه وساوسه عن آيات الكون ، الناطقة بجلال الديان ، ولا عن آيات القرآن - وهى نور مبين ، ويكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول : من هدى وحق ، وتعاليم تطيب بها الحياة ، ويسعد بها المرء فى أخراه ، ومنها الصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل ، وفعل المعروف ، وإغاثة الملهوف ، ونصر الضعيف .

وبذلك — يكون عزيزاً سعيداً يوم القيامة ، يوم تذهب الغفلة ، ويكشف عن القلب غطاؤه ، وتظهر حقيقة الوعد والوعيد ، ولا يكون من أحد غير الاعتراف بأن الملك لله الواحد القهار ، الذى قال : (فاعلم أنه لا إله إلا الله : أى لا معبود بحق إلا الله :

ويومئذ — يعترف أهل الغفلة : بأنهم كانوا فى الدنيا - ملغين لعقولهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

فلنتق الله - معشر المسلمين - ولنخالف الشيطان : واضعين نصب أعيننا - قول خالقنا الحكيم العليم يحذرنا منه : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

واحذروا - أيها المسلمون - دعاة السوء : من بنى جنسكم الإنس ، فإنهم شياطين كشياطين الجن والله تعالى يقول (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) .

فلا تستمعوا لدعاة تبرج المرأة ، ولتحذر المرأة أولئك الدعاة ، أيها المسلمون: واعلموا أن شياطين الإنس والجن - يزينون المعاصى ، ويصدون عن الطاعات ، وقد ذكر عند النبي رجل ، فقيل : مازال نائماً حتى أصبح ماقام إلى الصلاة من الليل ، فقال ﷺ : «(١) ذاك رجـــل بال الشيطان فى أذنه » ، وذكر صلى الله عليه وسلم أن الشيطان يفر عند الأذان وإقامة الصلاة ، ثم يأتى المصلى ، فيقول له : اذكر كذا . واذكر كذا : مما لم يكن يذكر قبل ، حتى يشغله عن تدبر أعمال الصلاة ، والخشوع فيها .

ولنلتبه لعلاج ذلك : قال رجل للنبى : إن الشيطان قد حال بينى وبين وقراءتى : يلبسها على ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته — فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً - أى قبل الدخول فى الصلاة - ففعل ، فأذهبه الله عنه .

ولذلك - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخل المسجد - قال: أعوذ بالله العظيم ، ووجهه الكريم ، وسلطانه القديم : من الشيطان الرجيم وقال : « من قال ذلك - قال الشيطان حفظت فى سائر اليوم » .

والشيطان يدخل فى كل شئوننا : ليفسدها ، ووسائل السلامة منه : هو : التوكل على الله والاستعاذة به سبحانه منه ، وذكر الله وقراءة القرآن : بقلب حاضر وانتباه ، والمحافظة على صلاة الجماعة فى المسجد ، وبخاصة صلاة الصبح : للفوز بحفظ الله منه فى سائر اليوم ، ولذلك قال : ﷺ : « عليكم بالجماعة ومن وسائل السلامة من الشيطان : الصوم الصحيح : قال ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم : عن ابن مسعود : رضى الله عنه .

للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء، أى وقاية من غوائل الشهوة التى يزين حبها الشيطان .

ومجمل القول - يق شر الشيطان الحرص على كل ما يرضى الله، والبعد عن كل ما يسخطه : جل علاه، فاتقوا الله — عباد الله — وجاهدوا أنفسكم : بترك هواكم ومخالفة الشيطان (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله - خنس : أى رجع ، وإن نسى - التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس» . رواه أبو يعلى الموصلى : عن أنس بن مالك رضى الله عنه وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه : قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده : ثم قال : هذا سبيل الله : مستقيما ، وخط عن يمينه ، وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

التحذير من الغيبة

الحمد لله ، الذى من علينا باللسان : لنذكره : لا لنذكر عيوب الناس : وقد قال سيدنا عمر : رضى الله عنه : « عليكم بذكر الله تعالى . فإنه شفاء . وإياكم وذكر الناس فإنه داء » .

وأشهد أن لا إله إلا الله : أوحى إلى موسى : عليه السلام : فقال : (من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : قال : «(١) مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم وصدورهم فقيل(٢) لى هؤلاء الذين كانوا يغتابون(٣) الناس » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذين انتبهوا لقول الرسول : «(٤) لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

---

(١) رواه أبو داود عن أنس رضى الله عنه .

(٢) القائل جبريل عليه السلام .

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقوله ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه - فقد بهته » رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) .

(٤) رواه أبو داود ، والترمذى عن ابن مسعود (ض) .

أما بعد :

فإذا خرجت روح الإنسان . وأصبح جيفة - كره الناس شم رائحته ولذلك يسارعون - ساعين - إلى دفنه ، وكانت تلك المسارعة من كرامته ، وجاءت السنة الشريفة بتعجيل الدفن ، وهل يسيغ الإنسان أن يأكل ما كره رائحته ، كلنا - ولا شك - نجيب بلا .

والغيبة ، وهي ذكر المرء تصريحاً أو تلميحاً غيره بما يكره : من نقص في دينه أو بدنه أو خلقه أو شيء يتعلق به - هي طلب منه لأكل لحمه ميتاً منتناً مكروهاً كريه الرائحة فكيف يكون منه ذلك ، وكيف يطلب أكل مالا يسيغ أكله وشم رائحته .

آه : إنه لم يتصور ذلك عند تلذذه بالغيبة ، ولم ينتبه لقول حاكمه القوى : جل شأنه : (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) .

ويا عبد الله :

دخل أحد الصالحين الأتقياء مسجداً فرأى جماعة يغتابون شخصاً . فنهاهم ، وبعد أن خاضوا في حديث غيره - عادوا إلى ما كانوا عليه ، فأنصت ، ثم نام ، وبينما هو نائم إذ رأى رجلا أحضر له طبقاً فيه لحم منتن ، فقال له : كل كما كنت تأكل لحم أخيك ، فقال : إني لم أقل شيئاً ، فقال له : ولكنك سمعت . ورضيت . فأنت شريك لهم ، وأخذ قطعة من اللحم ، ودسها في فمه ، ثم استيقظ ، وأثرها في فمـــه ، وقال : والله . ما أكلت طعاماً ، ولا شربت شراباً أربعين يوماً إلا وجدت نتن هذه الجيفة في فمي .

وقال ابن عمر : رضى الله عنهما(١) : نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة، وعن الاستماع إلى الغيبة ، فالسامع شريك القائل : ما دام قد قبل قوله ولم يرده .

ولا عجب أن يحرم الغيبة ديننا القيم الذى دعا إلى التحاب والتواد والاتحاد .

فالغيبة تقطع الصلات ، وتحل الكراهية محل الحب ، وتشعل نار العداوة بين المغتاب وبين من اغتابه ، ولكل أعوان ، فتتسع رقعة الخصام والخلاف ، وفى ذلك - فساد الحياة وحرمان الأخ معونة أخيه ، وأنسه ، وكل مايثمره وده ، وألم من اغتيبته ، وإحراق دمه : بذمه ، وذكر ما يسوؤه ، وربما كان بالطعن فى نسبه ، أو ورميه بالقذف بالزنا ونحو ذلك مما يلحقه ضرر بذكره ويظهر الصورة القبيحة للغيبة ، وأنها جديرة بالتحريم ، ولا تليق أن تكون من مسلم ، وقد قال ﷺ : «(٢) المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»

وكفى الغيبة ذماً وقبحاً قوله ﷺ : «(٣) إياكم والغيبة . فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزنى ويتوب ، فيتوب الله سبحانه عليه . وإن صاحب الغيبة - لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه» .

ولذلك - لم يتغاض الرسول ﷺ : عمن اغتاب من دنس نفسه بالزنا ،

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه عن جابر (ض) .

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وابن حبان فى الضعفاء . وابن مردويه فى التفسير عن جابر وأبى سعيد : رضى الله عنهما .

بعد أن عمل على طهارته منه ، فإنه بعد أن أتاه ماعز يطلب إقامة الحد عليه : لزناه محصناً ، فرجمه ﷺ - قال رجل لصاحبه : يغتاب ماعزاً : إنه كالكلب في حقارته ، فمر : ﷺ ، وهما معه بجيفة ، فقال لهما . انهشا منها ، فقالا : ننهش جيفة ؟ فقال ﷺ : ما أصبتما من أخيكما : باغتيابكما له أنتن من هذه الجيفة .

وحسب المغتاب أنه عدو للإسلام والمسلمين : لأنه يكشف عوراتهم التي أمر الله بسترها ، والرسول يقول : «(١) من ستر أخاه المسلم في الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة» ، ويقول : «(٢) يامعشر من آمن بلسانه . ولم يؤمن قلبه لا تغتابوا المسلمين . ولا تتبعوا عوراتهم . فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» .

وما الذي يحمل المغتاب على الغيبة ، ويعميه عن سوء عاقبتها ، وسوء جزائها ؟ مجاملته للمغتاب ، أم خوفه منه ، أم حرصه على خير عنده ؟

والعاقل - لا يجامل - بسخط الله ، الذي بيده وحده الأمن والخوف والنفع والضر ، والخير والشر ، وقد قال تعالى : (قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) .

وقد يبعث على الغيبة الحقد ، والحقود لا يسود أبداً ، فكثيراً مايدفع الإنسان إلى الغيبة بغضه لشخص ، وحب الكيد له ، فيضطره ذلك إلى أن

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة .

يذكر كل ما يعرفه عنه من مساويء ومعايب وإن لم يعرف شيئاً من ذلك - ألصق به التهم الدنيئة ، وإن عرف له حسنة - ألبسها ثوب السيئة ، وإنه لإسراف فى البغض يزيد عقاب الله (والله عزيز ذو انتقام) .

ومن الناس - من يلتمز فرصة تباغض اثنين فيذهب إلى كل منهما ، ويغتاب مبغضه : يتحبب إليه بذلك : ليطعمه . أو يكسوه . أو ينال منه خيراً ما .

ويوم القيامة : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) يقول المغتاب والمستمع له : شريكك فى الإثم والعقاب (يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) . وماذا تنفع الحسرة يوم الجزاء ، والله تعالى يقول : (ويل لكل همزة لمزة) .

وليس بالهين عذاب الله القائل : (وأن عذابى هو العذاب الأليم) .

وحسنات المغتاب تنقل إلى صحيفة من اغتابه : قال رسول الله ﷺ : «(١) إن الرجل ليؤتى كتابه منشوراً . فيقول : يارب فأين حسنات : كذا وكذا : عملتها : ليست فى صحيفتى ؟ فيقول له : محيت باغتيابك الناس . وكتبت فى كتاب من اغتبته » فما يليق أن ينجح إبليس نجاحاً منقطع النظير فى احتلال المؤمنين : بالإقبال على الغيبة إقبالا تفشى به هذا الداء العضال تفشى الوباء . وإنه لوباء يحصد الإيمان والدين حصداً : قال الحسن البصرى : « والله للغيبة أسرع فى دين المؤمن من الآكلة فى الجسد » .

فيأيها العاقل . الحريص على المنفعة ، والسلامة من المضرة ، فى الدنيا والآخرة ، الذى تحقق أن الغيبة - تنقل سيئات من اغتابه إليه ، وحسناته

(١) رواه ابن حبان والأصبهانى عن أبى أمامة (ض) .

إلى من اغتابه ، وأن الجنة والنار أمامه ، والذى لا يرضى أن ينتهك عرضه ، ويقال فيه ما لا يستطيع الدفاع عنه - مع براءته - : اعمل الفوز بالجنة ، والسلامة من النار : بالابتعاد عن الغيبة ومجالسها .

وكما تدين تدان . فدافع عن المغتاب ، المنتقص عرضه : ليق الله عرضك من الانتقاص : قال ﷺ : «(١) من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » وإذا لم تستطع الرد عن عرض أخيك - فاحرص على ترك مجلس غيبته وإن اضطررت لبقاء بمجلس الغيبة : خشية أذى رئيس مثلا - فأنكره بقلبك . وليرَ الله منك كراهتك للاغتياب : بعدم إظهار تعجبك من كلام المغتاب .

وطهر نفسك من أدران الغيبة : تبق لك حسناتك ، وتسلم من سيئات غيرك ، فلا تغتب أحداً حتى من اغتابك ، ولذلك قيل للامام أبى حنيفة : لا نراك تغتاب أحداً ؟ فقال : لو كنت مغتاباً لأحد - لاغتبت والدىّ : لأنهما أحق بحسناتى .

ومن هنا - كان الحسن البصرى إذا بلغه أن أحداً اغتابه - يرسل له هدية ، ويستصغرها ، مهما عظمت : لأنها لا تكافىء الحسنات التى ينالها فى أخراه فى مقابلة الاغتياب الذى لحقه .

ولا غيبة لمن يجهر بالفسق : كمن يشرب الخمر جهاراً ، ومن يجهر بلعب القمار : قال صلى الله عليه وسلم : «(٢) من ألقى جلباب الحياء فلا

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده . والترمذى عن أبى الدرداء (ض) .
(٢) رواه البيهقى فى السنن عن أنس (ض) .

غيبة له » ، وقال صلى الله عليه وسلم : «(١) أترعوون عن ذكر الفاجر حتى يعرفه الناس اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس » .

ويأيها المسلمون :

اتقوا الله واستغفروا لمن اغتبتم واسعوا في خير خاطره ، والإحسان إليه وترضيته ، واذكروا دائماً أن الإنسان لو نظر إلى نفسه بعين بصيرته - لاستعظم ذنوبه مهما صغرت ، ولا يجد فسحة من الوقت للخوض في أعراض غيره ، واستغل الوقت كله في إصلاح نفسه ، ٠كنصب عينيه قوله صلى الله عليه وسلم : «(٢) طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب النـاس » ، واسمعوا قوله صلى الله عليه وسلم : «كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله » رواه مسلم .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والطبراني والبيهقي في السنن وغيرهما.

(٢) تتمته (وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعـــد عنها إلى البدعة) . رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس (ض) .

الترهيب من التبرج

والاختلاط . والسفور

الحمد لله ، الملك الحق ، الذى دعا إلى الحق . والطهر والعفاف ، ونهى من التبرج . والسفور والاختلاط : للسلامة من المنكر والفحشاء .

وأشهد أن لا إله إلا الله : قال فى العجائز اللاتى لا يرجون زواجاً : (والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا إلى الحياء ، وقال : «(١) الحياء لا يأتى إلا بخير » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الأطهار البررة ، الأعفاء الخيرة .

أما بعد : فيا عباد الله :

ليسأل كل منا نفسه هذا السؤال : ما خير المرأة ؟

ولا شك أن الجواب - هو الذى أجابت به السيدة فاطمة الزهراء ، بنت سيد الأنبياء ، رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عندما سألها هذا السؤال : معلماً . ومرشداً : قالت : خير المرأة ألا ترى رجلا ، ولا يراها رجل ، فزكى صلى الله عليه وسلم قولها ، وقبلها بين عينيها ، وقال : (ذرية بعضها من بعض) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عمران بن حصين رضى الله عنهما .

وقال على كرم الله وجهه : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعى فاطمة ، فوجدناه يبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى لعذاب الله : لبعض نساء أمتى : فقد رأيت ليلة أسرى بى امرأة معلقة من شعرها ـ يغلى دماغها : لأنها كانت تكشف عن رأسها للرجال .

عباد الله :

خلق الله تعالى الإنسان ، وجعل له إحساساً وشعوراً . وميولا ، وسلط عليه الشهوة البهيمية ، لا للهو واللعب ، بل لاستعمار الكون . وبقاء النسل : من طرق شريفة ، وآداب مرعية ، فشرع ، ونظم الحياة الزوجية : بقوانين . وأوامر سماوية ، وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وقد ميزنا سبحانه عن الحيوان ، فأمرنا بستر العورة ، ونهى عن كل ما يثير الغرائز ، وأرشدنا ديننا الحنيف إلى أن عورة الرجل ما بين السرة والركبة ، وعورة المرأة جميع جسدها إلا وجهها وكفيها : على أن الوجه الفاتن ، وهو الذى يكون كشفه سفوراً لا يطلع عليه غير الأزواج ، والمحارم ، والتابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء .

وكما أوجب تبارك وتعالى على الرجل أن يغض من بصره ، ويحفظ فرجه ـ أوجب على المرأة ـ أن تغض من بصرها ، وتخفض من صوتها ، ولا تخضع بالقول ، ولا تلين الكلام حتى لا يطمع ـ فى النيل من كرامتها وشرفها ـ من فى قلبه مرض . ولا يخشى الله تعالى .

ويا عباد الله :

إن ما نسمعه ونراه كل يوم من الفضائح وهتك الأعراض . والقتل وإراقة الدماء من أجل الشرف ، وكثير من حوادث الطلاق - سببه : إهمال الناحية الدينية ، وتعدى حدود الله : الأمر الذى به - انتقلت المرأة من السفور وكشف الوجه الفاتن إلى ما هو أسوأ منه ، فكشفت حتى فى الطرقات عن ساقيها وعن صدرها وذراعيها ، وغيرت وبدلت فى ملامح وجهها بما تضعه عليه : من مختلف الأصباغ ، بل ذهبت إلى أفحش من هذا كله ، فتشبهت بالرجل حتى زادت عنه ، فهو مستور اليدين والساقين غالباً ، وهى عارية . أو شبه عارية : كل ذلك منها . استهواء للرجال ، وقد شجعها على ذلك ميوعة الرجل وعدم الغيرة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «(١) إن الله تعالى يغار وإن المؤمن يغار . وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه » .

ولتسمع المرأة بقلب يخاف العزيز الرقيب قوله صلى الله عليه وسلم : «(٢) أيما امرأة تطيبت ثم خرجت إلى المسجد لم تقبل لها صلاة حتى تغتسل » ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه «(٣) إذا تطيبت المرأة لغير زوجها - فإنما هو نار وشنار » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : «(٤) أيما

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة (رض) .

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة (رض) .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس (رض) .

(٤) رواه الإمام أحمد والنسائى والحاكم عن أبى موسى (رض) .

امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت عـــلى قوم ليجدوا ريحها - فهى زانية وكل عين زانية .

ويا قوم :

أنتم تعلمون أن الرجل غالباً — أقوى من المرأة جسماً . وعقلا ، وهو كذلك غالباً سبب نعمتها : لذلك أعطاه الله سلطة القيام عليها ، وتولى أمرها : قال تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

ولكن أين هو الرجل ؟ وقد رأيناه يتأبط ذراع امرأته أو ابنته أو أخته إلى النوادى والملاهى وغيرها ، وقد أبرزت جميع مفاتنها ، فتراها كاسية عارية مائلة مميلة ، تمشى مشية خليعة ، وهو يفاخر بجمالها . ودلالها . إذ يمشى بجانبها فى الطرقات : كأنه يريد أن يتمتع بها كل من أراد .

أين الرجولة . أين الشهامة - أين الكرامة . وعلى كرم الله وجهه يقول : « ألا تستحون . ألا تغارون : يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها » :

فهل يكون رجلا من هذا شأنه إنه - الديوث الذى لا يغار على أهله : لذلك حرم الله عليه الجنة .

عباد الله :

لقد زعم بعض الناس أن السفور هو ما تقتضيه الحضارة والمدنية وأن الناس ألفوه . فأصبح من الأمور العادية . التى لا تبعث على شر ، وأن ستر المرأة عورتها أصبح رجعية . وجموداً .

ولهؤلاء أقول : إن الله العليم . الحكيم . الذى خلق فسوى . وقدر فهدى ، والذى يعلم ما يفسد وما يصلح - هو الذى أمر بذلك (أأنتم أعلم أم الله) ، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ألا إن سفور المرأة اليوم وتبرجها واختلاطها — (إنه يزداد على مر الأيام استفحالا ، ويستتبع ذلك مزيداً من غضب الله وسخطه ، فاتقوا الله عباد الله ، وامنعوا نساءكم من خروجهن كذلك سافرات متبرجات ، ومن الاختلاط بالأجانب ، ولا تظهروا استحساناً للسافرات المتبرجات ، واعلموا أن الأمر يقتضى أن تقوم بإجماع ، وتنفذ حكم الشرع ، فيعمل كل قوام على بيته استمساكه بأمر الله فيه ; (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرأة عورة . فإذا خرجت استشرفها الشيطان » رواه الترمذى عن ابن مسعود : رض الله عنه .

التحذير من الاختلاط والخلوة بالأجنبية

الحمد لله : أمر المؤمنات بما أمر به المؤمنين فقال :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بمـــا يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : نهى المؤمنات عن إبداء زينتهن لغير الأزواج والمحارم ، ومن لا رغبة لهم فى النساء . ولا معرفة لهم بأمورهن : من رجال وأطفال .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعته امرأة كان فى عقلها شيء : للجلوس إليها : لمحادثته ، فجلس معها فى بعض الطريق : مع عصمته ، ولم يجلس معها فى خلوة ، حتى فرغت من محادثتها : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الأصفياء الشرفاء :

أما بعد : فيأيها المسلمون :

كانت امرأة تطوف بالبيت الحرام فتعرض لها عمر بن أبى ربيعة ، الشاعر ، وكان وقحاً ، فأعرضت عنه . وزجرته ، فتركها ، ثم امتنعت من عن السير وحدها بمكة : فى طواف أوغيره .

وبينما هى سائرة يوماً إذ رآها ذلك الشاعر ومعها أخوها ، فانصرف مسرعاً . ولم يتعرض لها ، فأنشدت :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامى

وقد بلغ هذا الحديث الخليفة العباسي المنصور فقال : أحب ألا تبقى فتاة في خدرها إلا سمعت هذا الحديث : أي حتى لا تتعرض للرجال الأجانب إلا ومعها محرم يقيها منهم .

وأنا أحب أن يسمع هذا الحديث كل مسلم ومسلمة ، ويعملا به ، فتحرص المسلمة على أن تكون دائماً في حماية رجلها ، ويحرص المسلم دائماً على حماية المرأة في كنفيه : حفظاً للأعراض ، وقطعا لوسوسة الشيطان ، وسداً لطرق الغي والضلال ، ومحافظة على الشرف والعفاف .

فيل الذكر للأنثى لا سبيل لدفعه إلا بحجبهما عن بعضهما ، ويؤيد ذلك الواقع المشاهد ، ولذلك — لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة . أي شيء خير للمرأة ؟ — قالت : رضي الله عنها : ألا ترى رجلا ، ولا يراها رجل ، فذكى صلى الله عليه وسلم قولها ، وقال (ذرية بعضها من بعض) .

وبلغ من عناية الإسلام بالمباعدة بين أنفاس الرجال وبين أنفاس النساء — أن أمر الله تعالى أصحاب رسوله الأطهار ، حين يسألون نساءه ﷺ — الطاهرات ، وهن أمهاتهم — أن يكون بينهم وبينهن حجاب وستر : قال تعالى : (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) .

ويا أيها المستمعون لهذا الحق :

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله . ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه : تعلمنا مما علمك الله : قال : (اجتمعن يوم كذا وكذا) فاجتمعن ، فأتاهن رسول الله ، فعلمهن مما علمه

الله . فلو كان اختلاط الرجال والنساء حول — أستاذ يعلمهم معاً العلم والفن والأدب جائزاً — لما خصص الرسول لهن مجلساً خاصاً ، يرشدهن فيه إلى أمور دينهم ، بل منع الإسلام من الاختلاط فى المسجد ، فللرجال مكان . وللنساء آخر ، بل فضل آخر صفوف النساء على غيره : من صفوفهن : لشدة بعدها من مكان الرجال ، فقال رسول الله ﷺ : « (١) خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » .

وقد كان ابن عمر ينهى عن دخول الرجال من باب النساء .

والإسلام — بمنع الاختلاط بين الجنسين يقيم حاجزاً بين الفضيلة وبين الرذيلة ، وبين الصون وبين الابتذال ، ويعمل على احترام المرأة ، ويحافظ عليها كما يحافظ المرء على الجوهرة الثمينة ، وفهمت نساء العصر الأول ذلك . فكن عن الاختلاط بعيدات ومن الله خائفات ، فكن خير الكنوز التى نوه بها رسولنا ﷺ : فى قوله : « (٢) خير النساء التى تسره إذا نظر ، وتطيعه : إذا أمر ، ولا تخالفه فى نفسها ، ولا ماله بما يكره » والبوم تخالط المرأة فى زينتها الفاتنة ، ولباسها الفاضح الرجل الأجنبى ، الذى ليس بزوج ولا بمحرم ، ويملأن أعينهما من بعضهما ، فيتصلان لتذوق الممنوع : يقع ذلك فى كثير من الأحوال . والمناسبات : فى الأفراح . والمتنزهات . وفى المصايف : فى الإسكندرية ، ونحوها

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة (ض) وابن عباس (ض) .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والنسائى والحاكم : عن أبى هريرة (ض) .

من بلاد الشواطيء ، حيث التهتك ظاهر ، والحياء مقبور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولقد كثر فى زماننا الاختلاط بين الجنسين فى خلوة حيث لا يطلع عليها أحد ، ويرضى عن ذلك كثير من الأزواج الذين يسمحون بخلوة أزواجهم مع أقاربهن وأقاربهم ، والرسول ﷺ حذر من ذلك بقوله : « (١) إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحمو ؟ قال الحمو الموت » والحمو أخو الزوج ونحوه : من أقارب الزوج : كابن العم وأقارب الزوجة . كابن عمها وخالها — كذلك : خلوتهم طريق إلى الزنا ، والله تعالى يقول . (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)

ومن عواقب الخلوة الوخيمة — تقطيع الصلات ، والطلاق ، وإراقة الدماء : ولذلك قال ﷺ : « إمعاناً فى التنفير من الخلوة : الحمو الموت : فإن دخوله على الزوجة . وخلوته بها — قد يؤدى إلى الموت . وخلوة الرجل الأجنبى بالمرأة الأجنبية — حرام ، وإن لم يحصل بينهما شىء فهى مظنة حصوله ، وإن لم يكن معها زوجها . أو ذو محرم لها ، ولذلك قال ﷺ : «(٢) لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم» .

ياقوم :

كم رجل تحطمت حياته ، وساءت معيشته ، وضاعت ثروته : نتيجة للإختلاط الذى حرمه الله .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عقبة بن عامر (ض) .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وكم من امرأة ضاع شرفها بسبب الاختلاط المحرم ، والشرف إذا ضاع لا يعود .

وكم من مولود غير شرعى بسبب هذا الاختلاط المشئوم ، والخلوة التى تسخط الحى القيوم .

ومن وسائل هذا الاختلاط اليوم — الخطبة : يدخل الفتى البيت باسم خطبة الفتاة فيعيش فى ظل هذه الخطبة — كأنه رجل من رجال البيت ، وكثير ما ينتهى الأمر بالفشل ، وانصراف الخاطب ، ووراء ذلك — العار والدمار .

فما حكم الإسلام : باعتبار الخاطب أجنبياً عن البيت ، حتى يتم عقد الزواج على من اختارها ، فيتحدد على ضوئه وضعه شرعاً بغير إسراف ولا تقتير .

وقد أباح الإسلام للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته ، وهو ليس معها فى خلوة — إلى وجهها وكفيها ، ولا مانع أن يراها فى ملابسها التى تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها ، وأن يتحدث معها وهى جالسة فى المجلس : لينظر عقلها ، وملامح شخصيتها وقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : « (١) إذا خطب أحدكم المرأة — فلا جناح عليه أن ينظر إليها . إذا كان إنما ينظر إليها لخطبته ، وإن كانت لا تعلم » .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، واستمسكوا بتعاليم دينكم ، واحذروا الاختلاط الآثم

---

(١) رواه ابن حبان والطبرانى فى الكبير عن ابن حميد الساعدى (ض)

والخلوة المحرمة ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، ولا يخل أحد بأجنبية ، وهو يقول . أنا مالك لنفسى ومسيطر على شعورى وإحساسى فقد رمى بنفسه فى تيار الدوافع والمؤثرات وإثارة الشهوات ، ولذلك — قال صلى الله علية وسلم «(١) ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء» .

وما أكذب المرأة إذ تقول : أخلو مع الأجنبى ولا أبالى لشرفى وعفتى ألا إن الخلوة المحرمة — اقتحام لمسلك شائك ، موصل — بالشهوة — إلى التهلكة ، ومحاولة السلامة منه — محاربة للطبيعة ، وقلما يتغلب عليها ، واتعظوا بهذه الموعظة واعملوا بها قال رسول ﷺ قال «(٢) أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه : ليزداد بها إثما ، ويزداد الله عليه بها سخطا» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «إياكم ومحادثة النساء فإنه لا يخلو رجل بامرأة ليس لها محرم إلا هم بها» رواه الحكيم فى كتاب أسرار الحج عن سعد بن مسعود رضى الله عنه .

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أسامة (ض) .

(٢) رواه ابن عساكر عن عطية بن قيس (ض) .

التحذير من الاختلاط والتبرج

والحث على العفاف

الحمد لله الملك الحق، يحب الطهر والعفاف والحق، وقال نبيه: «(1)ما زان الله العبد بزينة أفضل من زهادة فى الدنيا وعفاف فى بطنه وفرجه».

وأشهد أن لا إله إلا الله نهى المؤمنات عن إبداء زينتهن لغير الأزواج والمحارم، ومن لا رغبة لهم فى النساء أو لا معرفة لهم بأمورهن. من رجال وأطفال.

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله: دعته امرأة كان فى عقلها شىء للجلوس إليها: لمحادثته، فجلس معها فى بعض الطريق مع عصمته — ولم يجلس معها فى خلوة حتى فرغت من محادثتها.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ذوى الرجولة الكاملة والعفة الصائنة (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون).

أما بعد:

فيأيها المؤمنون بعظمة دينهم، الذى بلغ من عنايته بالمباعدة بين أنفاس الرجال وبين أنفاس النساء — أن أمر واضعه: تبارك وتعالى — أصحاب رسول الله الأطهار — حين يسألون نساءه ﷺ شيئاً، وهن أمهاتهم الطاهرات — أن يكون بينهم وبينهن حجاب وستر: قال تعالى:

---

(1) رواه أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر (ض).

وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) .

أيها المؤمنون بجلال الإسلام الذى بلغ من عنايته بكرامة المرأة وصيانتها وحفظها من التعرض للابتذال والدنس — أن أمر من اختاره لنا ديناً سبحانه - نساء النبي - وهن خير مثال العفة والشرف - بملازمة البيوت ، ونهاهن — عند الخروج لحاجة كزيارة الوالدين : عن التبرج ، وإظهار الزينة وكشف العورة - وهى جميع جسد المرأة إلا وجهها وكفيها : اتقاء للفتنة وبعداً عن إثارة الغريزة ، وإبقاء على العفاف والطهر ، وحفظاً للنسب .

وحرصاً على سلامة العرض . قال جل شأنه (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) أيها المستمعون لهذا الحق المبين : ألسنا جميعاً نقرر أن الاختلاط حرام ، وأن التبرج حرام .

بلى : نقرر ذلك ، ونقول . الحمد لله على دين الإسلام ، الذى حرم هاتين الرذيلتين ، ونهى عن هذين الإثمين للسلامة من أضرارهما الملموسة ، وكفى أنهما يغريان مريض القلب ومريضتهما اللقاء ويمهدان للفحشاء ويبعثان على عار التلاقى المحرم بين الرجال والنساء . والرسول ﷺ قال : « (١) لم تظهر الفاحشة فى قوم إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم » وقال : « (٢) ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت » .

ونحن نعانى اليوم من الأمراض المتنوعة المهلكة ما نعانى ، ولم نحاول

---

(١) جزء من حديث رواه البيهقى عن ابن عمر (ض) .

(٢) روى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس (ض) أنه ﷺ قال : « خمس بخمس ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير =

جادين معالجة هذين الداءين : الاختلاط ، والتبرج وكأن حرمتهما هينة — مع فظاعة ضررهما البينة ، وأن عقباهما نار حامية .

يا قوم :

الرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، ولا ينفعه أن يقول : إنى معذور فى تبرج نسائى واختلاطهن فى الأفراح ونحوها : لإباحة المجتمع ذلك ، وعدم سن الحكومة قانوناً يمنع ذلك على زوجته : أو ابنته . ومن له ولاية عليها ، ولا يهدأ غضبه إلا بتحقيق ما أراد ، وقد يكون باطلا ، ويحتال المرء بشتى الحيل عندما يكون له رغبة فى أمر ، فلماذا لا يكون : منه الاهتمام : لتتأدب نساؤه بآداب الدين .

ليجرب المسلم تدريب نسائه على الثياب الساترة لجميع بدنها وتجنب القصيرة غير الساترة فى الصلاة ، وليعلمن أن الله تعالى كرمهن بذلك ، فقد اختار لهن أن يكن بذلك على أحسن هيئة بين يديه . وإن المسلمة الرشيدة لتنتقل بالتأمل فى ثيابها فى الصلاة — إلى اختيارها ثياباً لها فى خارج الصلاة ، ما دامت قد اقتنعت بأن المقصود هو الله الذى لا شىء يستحق السعى إليه إلا رضاه .

يا قوم :

لا شك أن جمال المرأة فى احتجابها واستتارها لا فى بروزها لكل عين : كما يقول أنصار الرذيلة : أليست الجنة التى أعدت للمتقين دار الجمال ؟ :

= ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات ، وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر — أى المطر — » .

فيها نساؤها مستترات لأزواجهن : لا يرين غيرهم فى خيـــامها : (حور مقصورات فى الخيام) .

لقنتع — معشر الرجال — النساء بذلك ، فلا نشعر المتبرجة باحترام ولا نرض اختلاطها بأجنبية ، ولنكن كابن خيثم العابد : حاولت إغراءه غانية من غوانى الكوفة فتعرضت له فى أكمل زينتها ، فقال لها : كيف بك لو نزلت الحمى بجسمك ، فغيرت ما أرى من لون وجهك ، أم كيف لو نزل بك ملك الموت ، فقطع منك حبل الوتين ، أم كيف لو سألك منكر ، ونكير ، فصرخت صرخة سقطت بعدها مغشياً عليها ثم أفاقت — والتوبة مطلبها الأول ، ثم تحاملت على جسمها بألوان من العبادة ، وضروب من طاعة الله سبيل السعادة ثم وافاها أجلها وهى للقاء الله مستعدة ، والعاقل كالعاقلة من عمل لما بعد الموت فى دنياه ، فعرفه الليل والنهار بطاعته جل علاه .

أيها المسلمون :

أتقوا الله ، وليعتصم المسلم والمسلمة بطاعة الله فى السر والعلانية ، فلا تليق أن تحتشم المرأة فى داخل المسجد ثم تتبرج بعد الانصراف من المسجد أو من بين يدى الله (فإنه يعلم السر وأخفى) .

وليثبت الرجل رجولته بالشهامة ، لا بطول الشارب ، والدعوى العريضة أنه رجل ، فلا يسمح بخروج نسائه متبرجات ، ولا باختلاطهن بمن يحل له التزوج بهن من الرجال ، وليجتهد فى صبر دائماً فى نصحهن أن يكن عفيفات : ليحيا المجتمع حياة طيبة ، ونفوز بحسن العاقبة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير نسائكم الولود ، الودود ، المواسية ، المواتية : إذا اتقين الله ، وشر نسائكم — المتبرجات المتخيلات . وهن المنافقات

لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم[1] » : رواه البيهقى : فى السنن : عن ابن أبى أذينة الصدفى : مرسلا[2] ، وعن سليمان بن يسار : مرسلا : أيضاً .

(١) الغراب الأعصم هو الأحمر الرجلين ، والمنقار أو الذى فى جناحه ريشة بيضاء .

(٢) الحديث المرسل هو ما سقط من سنده الصحابى ، وهو صحيح : عند أبى حنيفة ، ومالك ، فيحتج به عندهما .

التحذير من العجب

الحمد لله : يحب من تطهر من العجب ، وقال : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : لا يحب المعجب بعمله ، فحرمه جنته ، وقال نبينا رسوله ﷺ : «(١) لا يدخل الجنة مسكين مستكبر ولا شيخ زان ، ولا منان على الله بعمله » .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : حذر من العجب . وجعله أكبر ذنب ، فقال : «(٢) لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه: العجب » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ، ولم يغرهم بالله الغرور ، ولم يفتتنوا بأعمالهم الكريمة المشرفة التي وفقهم لها العزيز الشكور .

أما بعد : فيا عباد الله :

كان بشر بن منصور ، أحد سلفنا الصالح — من الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى ، والدار الآخرة : لمواظبته على العبادة ، فأطال الصلاة يوماً ، ورجل خلفه ينظر ، ففطن له بشر ، فلما انصرف من الصلاة — قال له :

---

(١) رواه الطبراني عن نافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٢) رواه البزار عن أنس (ض) .

لا يعجبنك ما رأيت منى ، فإن إبليس : لعنه الله — قد عبد الله تعالى — مع الملائكة — مدة طويلة ، ثم صار إلى ما صار إليه : من إعجابه بنفسه ، واستكباره ، ومخالفة لله أعقبته النار : إذ أمره بالسجود لآدم فأبى ، فطرده الله من رحمته ، وقال تعالى له : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك) .

(فاعتبروا يا أولى الأبصار) ، واحذروا العجب الذى يدفع إلى النار ، واسمعوا قول الحكيم العزيز القهار : (فلا تزكوا أنفسكم) : قال ابن جريج : أحد سلفنا العلماء : معناه : « إذا عملت خيراً - فلا تقل : عملت » . أى حتى لا تكون مستعظماً لعملك ، فتهلك بذلك .

وقيل لعائشة : رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت : « إذا ظن أنه محسن » : فإنه — حينئذ — يكون مستعظماً لعمله ، معجباً به ، فيكون مسيئاً .

وقد سأل معاذ بن جبل رسول الله : ﷺ عن قوله : تعالى : (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً) ، فبكى : ﷺ ، ثم قال : « لقد سألت عن عظيم ، ثم ذكر عشرة أصناف من أمته يحشرون فى ذلة وهوان : منهم جماعة يحشرون صماً لا يسمعون ، بكماً لا يتكلمون ، وهم المعجبون بأعمالهم ، ومنهم جماعة يلبسون جباباً من قطران . لازقة بجلودهم ، وهم أهل العجب والكبر والخيلاء : نعوذ بالله من هؤلاء . وهؤلاء .

فيا قوم :

العجب : هو أن يستعظم الإنسان العمل الصالح الكريم : يوفقه الله له ، أو النعمة : يهبها له تعالى ، ويفرح بذلك ، ويركن إليه : مغتراً به ، غافلا عن الموفق . الواهب : جل شأنه .

وقد قال ابن مسعود : رضى الله عنه : « الهلاك فى اثنتين : القنوط والعجب ، وإنما جمع بينهما : لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى ، والطلب ، والقانط اليائس منها ، المعتقد أنها محال : لا يسعى إليهــا ولا يطلبها ، والمعجب — يعتقد أنه قد سعد ، فلا يسعى إلى السعادة ولا يطلبها .

وكم للعجب من آفات . وعاهات . ومضرات : يعجب الإنسان ببدنه ، بجماله أو هيئته ، أو صحته . أو قوته ، أو من صوته ، فيلتفت إلى ذلك ، وينسى أن ما أنعم الله عليه به من ذلك — معرض للزوال ، حيث الحسرة بذلك ، والهم والألم ، والكدر والغم ، وكان الأجدر به أن يشكر لله على ما أنعم : ليديمه ، وقد قال تعالى : (واشكروا لى ولا تكفرون) .

ومن الناس من يعجب بشرف نسبه ، حتى يظن أن الناس — خدم له ، وعبيد ، ويتطاول عليهم متفاخراً . متباهياً ، وقد يأنف من مخالطة بعضهم ومجالسته : لفقره . أو عدم جاهه : وقد قال : ﷺ : «(١) ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

ويعجب المرء بعقله . وفطنته ، وتفطنه لدقائق الأمور من مصالح الدنيا ، فيستبد برأيه ، ويترك المشورة ، ومن استبد برأيه — هلك ، وقد قال : ﷺ : «(٢) ولا ندم من استشار » .

ورأيان أفضل من واحد ورأى الثلاثة — لا ينقض

والعجب بالعلم يبعث على احتقار صاحبه للناس ، فيبعدون عنه ، ولا ينتفعون بعلمه .

---

(١) جزء من حديث شريف رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة (ض) .
(٢) جزء من حديث شريف رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس (ض) .

وما أشنع المعجب بالطاعة ، وما أسوأ عقباه .

إن المعجب بذلك ، المستعظم لما كان منـــه — يمن على الله بفعله ، ويتعجب إذا لم يعجل الله له إجابة دعائه ، ويستنكر وقوع المكروه به ، ولا يتفقد آفات ما يعمل : من نقص . أو عدم إخلاص لله فيه . وما إلى ذلك : مما يجعل العمل غير مقبول عند الله ، وإذا نزل بذلك المعجب مصاب يقول : إنى عملت كذا وكذا لله ، فكيف أصاب ؟ وإن ذلك المعجب بالصالحات — ينسى ذنوبه ، وما يتذكره منها — يستغفره ، ويظن أنه المغفور له ، ويأمن مكر الله وعذابه . والله تعالى يقول : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

وغاب عن ذلك المعجب — أن أعماله — هى نعمة من الله ، وعطية من عطاياه : مكنه تعالى منها ، ووفقه لها .

وأين هو من العابدين ؟

كانوا يعمرون ليلهم ونهارهم بالعبـــادة ، ولا يرون لأنفسهم عملا ، ويرجون ما عند الله : من خير برحمته ، التى يسعون إليها بطاعته : قال تعالى : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقال : (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون) ، وقد قال رسول الله ﷺ : «(١) لن يدخل أحداً عمله الجنة : قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته » .

وكانت رابعة العدوية تقضى ليلها مسبحة لله حامدة : تناجى ربها ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث عن أبى هريرة (ض).

وتتوسل إليه مستغفرة ، وتائبة ، وتبكي بكاء القانتين : مؤملة رحمته خائفة عذابه ، فإذا أسفر الصباح – استصغرت عملها في ليلتها ، ولم يأخذها غرور وتقول : « إلهي أقبلت ليلتي فأهنى ، أم رددتها على فأعزى . ولكن مهما رددتني من بابك – فأنا واثقة به : لما وقع في قلبي : من حبك » .

ولا يعجب عاقل بكثرة مال أو ولد ، أو أقارب ، أو أصحاب وأنصار ، فاقدر ذلك (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون) (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وقيل لمعجب بالحكم : لو دام لغيرك – ما وصل إليك ، فكيف يعجب بالحكم عاقل ، فيترفع ويتكبر ، وقد قال ﷺ : «(١) لا يزال الرجل يذهب(٢) بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم » ، وقال ﷺ : «(٣) إن في جهنم واديا : وفي الوادي – بئر : يقال له هبهب : حق على الله أن يسكنه كل جبار عنيد » .

فيا عبد الله :

اتق الله ، واحفظ نفسك من رذيلة العجب ، فلا تغضب على من يذمك بحق : لأنه يذكرك بعيوبك ، ولا تستمع إلى من يمدحك بما ليس فيك ، ولا يغرنك ثناء الناس على عملك ، فالله أعلم بك منهم ومن نفسك : (هو أعلم بمن اتقى) ، وقد كان أبو بكر : رضى الله عنه – إذا مدح – قال :

---

(١) رواه الترمذي عن سلمة بن الأكوع (ض) .
(٢) يترفع ويتكبر .
(٣) رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم عن أبي موسى (ض) .

« اللهم أنت أعلم بي من نفسي . وأنا أعلم بنفسي منهم : اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون . واغفر لي مالا يعلمون . ولا تؤاخذني بما يقولون » .

ولا تغتر — يا عبـــد الله بطاعتك . ولا بمالك . ولا بأهلك ، ولا بما أعطاك الله من جمال في الخلق أو الخلق ، ولا بشيء من مواهبك ، فليس لك في ذلك فضل : إنما الفضل للمالك الواهب ، الذي يعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع : (كل يوم هو في شأن) .

أيها المسلمون :

اتقوا الله ، واذكروا أن عمر بن الخطاب ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « (١) إن الله وضع الحق على لسان عمر : يقول به » : قد صعد : رضى الله عنه المنبر يوماً ، فاجتمع الناس حوله ، فما زاد على أن قال : « إن عمر الذي هو أمير المؤمنين اليوم — كان من رعاة الشاة : يأكل القديد(٢) . ويأتزر بالجلود ، وكان من عباد الأصنام ، حتى من الله عليه بالإسلام ، فلما نزل — قالوا : ما زدت أن سببت نفسك ، فقال : إن نفسي حدثتني أن لي مركزاً ممتازاً ، فأردت أن أقفها عند حدها » .

اتقوا الله ، واحذروا العجب وبخاصة بالرأي المخالف لكتاب الله وسنة رسوله : ككشف المرأة الرأس والساق والذراع ونحو ذلك ، وقد قال تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) واذكروا المنعم حين تنظرون إلى ما بكم من نعم : لتشكروا الله الذي بها أنعم ، ولا تتعاظموا بالنعم : (وما بكم من نعمة فمن الله) وليقل كل منكم — وهو ينظر إلى عمله :

---

(١) رواه الطبراني . (٢) اللحم المقدد .

كما قال شعيب عليه السلام : (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى متبع وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه » . رواه أبو الشيخ فى التوبيخ ، والطبرانى فى الأوسط ، عن أنس رضى الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من تعظم فى نفسه . أو اختال فى مشيته — لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » رواه الطبرانى فى الكبير ، عن ابن عمر : رضى الله عنهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مشت أمتى المطيطاء . وخدمتهم فارس والروم — سلط بعضهم على بعض » : رواه ابن حبان فى صحيحه والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما . ورواه ابن حبان عن خولة بنت قيس رضى الله عنها .

والمطيطاء : بالمد ويقصر : هو التبختر ، ومد اليدين فى المشى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى فى حلة . تعجبه نفسه ، مرجل رأسه : يختال فى مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ومرجل رأسه : أى ممشطه ، ويتجلجل أى يغوص . وقالت أسماء بنت عميس . رضى الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد تجبر واعتدى

ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سها ولها ونسى المقابر والبلى . بئس العبد عبد عتى وطغى ، ونسى المبتدأ والمنتهى ، بئس العبد عبد يختل الدين بالشهوات . بئس العبد عبد طمع يقوده . بئس العبد عبد هوى يضله . بئس العبد عبد رغب يذله» : رواه الترمذى .

ويختل : يخدع .

(ملحوظة) يكتفى الخطيب ببعض هذه الأحاديث ، حين يخطب .

التحذير من الفتنة

الحمد لله : يبتلى عباده ، ويمتحنهم بما يحبون : ليشكروا ، وبما يكرهون : ليصبروا ، وبما يفتن : ليحذروا ، وقال : (وسيجزى الله الشاكرين) ، وقال : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ، وقال : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) .

وأشهد أن لا إله إلا الله : وقانا بتعاليم دينه — الفتن : ما ظهر منها وما بطن ، وهو الحكيم العليم .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله : سأل ربه أن أن يجيره من خزى الدنيا وفتنها . ومن عذاب الآخرة . وقال : «(١) اللهم الطف بى فى تيسير كل عسير ، فإن تيسير كل عسير عليك يسير ، وأسألك اليسر والمعافاة فى الدنيا والآخرة » .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذين تلقوا البلاء بالصبر والرضا ، ونصب أعينهم قوله صلى الله عليه وسلم : « (٢) ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة : فى نفسه . وولده وماله . حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » .

أما بعد : فيا عباد الله :

من البلايا العظيمة — الفتن فى زماننا : وهى جسيمة يمتحن بها الناس

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة (ض) .
(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة (ض) .

{ وخلق الإنسان ضعيفاً } ، ومن قوى عزمه فلم يشرب فى قلبه حبها فهو السعيد الناجى : الفتنة من قبل النساء ، وقد خلعن برقع الحياء ، والفتنة : من قبل المال بالرشوة أو السرقة . أو الاختلاس . ونحو ذلك ، وقد اشتدت الحاجة إليه من شدة الغلاء ، وكثرة الالتزامات ، والفتنة فى الدين : من جهة الشفاء من مرض أو بلوغ أمل . ونحو ذلك : على يد منتسب لغير الإسلام داع لما يعتنق من ضلال .

وقد كان المؤمن من أسلافنا يقتل ولا يرجع عن دينه .

والإسلام واضح المعالم ، قوى الدعائم — لا يتحول عنه أبداً مؤمن به ، محب له مستمسك بكتابه . وسنة نبيه القائل «(١) ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من تلك الفتن ، وبين لنا فضل العبادة عند وقوعها : بالحث على المبادرة بصالح الأعمال : كما حثنا على العلم . ومنه العلم الذى اعتز به الكفار ، فطاروا بالطائرات فى الهواء ، ومشوا بالسفن على الماء ، وانتصروا فى الحروب ، وكشفوا بالكشاف المضىء — نواحى الظلماء ، ونقلوا بالتلفزيون - الصوت ، والصورة على بعد المسافة إلى غير ذلك من آثار لذلك العلم ، قال ﷺ : «(٢) بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً . ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس (ض) .
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) .

من الدنيا . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « (١) ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسى كافراً إلا من أحياه الله بالعلم » .

وما أعظم الفتنة عند فراق الحياة ، حيث تحضر الشياطين الميت فى صور أحبائه الميتين ، وتزين له الموت على غير الإسلام : ولذلك — أمرنا بتلقين المحتضرين لا إله إلا الله : قال ﷺ : « (٢) لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » .

وللإعانة على السلامة من فتنة القبر ، والامتحان فيه — قال أبو أمامة الصحابى الجليل : « (٣) إذا أنا مت — فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ﷺ أن نصنع بموتانا : أمرنا رسول الله ﷺ فقال : « إذا مات أحد من إخوانكم ، فسويتم التراب على قبره — فليقم أحدكم على رأس قبره . ثم ليقل : يافلان بن فلانة . فإنه يسمعه . ولا يجيب . ثم يقول يافلان بن فلانة فإنه يستوى قاعداً ، ثم يقول . يافلان بن فلانه ، فإنه يقول . أرشدنا . يرحمك الله . ولكن لا تشعرون . فليقل . أذكر ماخرجت عليه من الدنيا

---

(١) رواه ابن ماجه . والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة (ض) .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة (ض) .

(٣) رواه الطبرانى ، وقال الحافظ فى التلخيص : وإسناده صالح ، وقد قواه الضياء فى أحكامه ، وعن راشد بن سعد . وضمرة بن حبيب . وحكيم بن عمير . وكلهم من قدماء التابعين — حمصيون — قالوا : إذا سوى على الميت قبره وانصرف الناس عنه — كانوا يستحبون أن يقال للميت عند قبره : يافلان . قل لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . ثلاث مرات . يافلان . قل ربى الله ودينى الإسلام . ونبيى محمد صلى الله عليه وآله وسلم رواه سعيد فى سننه .

شهادة أن لا إله إلا الله . وأن محمداً عبده ورسوله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد بيد صاحبه ، ويقول . انطلق بنا ما يقعدنا عند من لقن حجته ، فقال رجل . يارسول الله . فإن لم يعرف أمه ؟ قال . ينسبه إلى أمه حواء . يافلان بن حواء ، .

ونظر المأمون الخليفة العباسي إلى أن ألفاظ القرآن الدالة على كلامه تعالى النفسي — مخلوقة . خلقها تعالى . لنعرف بها كلامه ، ونقف عند حده فنعز ونسعد بالإيمان والاستقامة ، فأمر الناس أن يقولوا بخلق القرآن ، وحرص الإمام أحمد على القول بالنظر إلى أنها تدل على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى ، التي ليست بحرف ولا بصوت ، وهي كلام الله النفسي القديم ، فقال . القرآن غير مخلوق ، وفي ذلك تقديس القرآن وإجلاله اللائقان ، فأمر المأمون بجلده ، فلما ضرب سوطاً — قال . بسم الله ، فلما ضرب الثاني — قال . لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث — قال . القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع — تلا قوله تعالى . (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فضرب تسعة وعشرين سوطاً ، حتى انقطعت تكة سرواله ، فنزل إلى عانته . قال ميمون بن الأصبغ . أحد شهود هذا التعذيب . قلت . الساعة ينهتك ، فرأيت أحمد يتجه إلى السماء ، ويحرك شفتيه ، والسروال يرتق . ولم ينزل من غير فعل أحد نراه ، فسألته حين رأيته بعد سبعة أيام عما كان من ذلك فقال . قلت اللهم أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي ستراً .

ولما قيل له — وهو يعاني ألم بليته — ألا ترى : كيف ظهر الباطل على

الحق — قال : كلا . إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة . وقلوبنا بعد ملازمة للحق .

وهكذا المسلم الصحيح — لا يغير البلاء ، وشدة امتحانه — دينه ، واعتقاده وإيمانه .

فإذا ظهر الشفاء على يد طبيب كافر ، بعد أن فشل فى العلاج طبيب مسلم — قال : إن الشافى فى الحقيقة — هو الله تعالى ، الذى يظهر الشفاء على يد من شاء .

وكم شفى بلا أسباب ظاهرة : (إن الله يفعل ما يشاء) ، وقال تعالى فى القرآن الكريم : حكاية عن إبراهيم : (وإذا مرضت فهو يشفين) .

ونشيد المسلم على الدوام :

الله أكبر إن دين محمد
وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده
طلع الصباح فأطفأ القنديلا

أيها المسلم :

اتق الله ، وابعد عن الفتنة كل البعد ، حتى لا تفسد عليك دينك ، وتبعدك عن رضا الله ، وتوقعك فى سخطه ، وأدم طاعة الله ، والاستمساك بتعاليم دينه ، وسله تعالى التوفيق لذلك ، والسلامة من فتن الدنيا والآخرة .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك

أنت الوهاب) : قال المقداد ابن الأسود رضى الله عنه : وايم الله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلى فصبر » رواه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمان فيه الصابر على دينه كالقابض على الجمر » رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

دليل الديوان — الفهرس

الصفحة | الموضوع

تم بحمد الله الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

رقم الإيداع بدار الكتب — ٣٣٧٢/١٩٨٠

مطبعة رفاعى

١٢ ش أحمد رفاعى — خلف

مدينة التعاون بالهرم